«خمس نجوم»

سارة محمد شحاتة

اســـم العمــل : خمس نجوم

الـــنـــــوع : رواية

تــألـيـــــف : سارة محمد شحاته

طبعة اولى : ٢٠١٠

طبعة ثانية: اكتوبر ٢٠١٥

تصميم الغلاف : د. خالد سرور

الـطبـــاعـــة : مطبعة أتيليه تاتش - المحروسة

النــــاشـــر : الدار للنشر والتوزيع

تـلـيـفـــــون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧

بريد إلكترونـى : elddar_press@yahoo.com

الموقع على الإنترنت : www.facebook.com/eldarpublish

المديــر العــام : محمد صلاح مراد

رقــم الإيــداع : ٢٠١٠/٤٦٥٧

الترقيم الدولـى : I.S.B.N : 978-977-702-004-6

«خمس نجوم»

سارة محمد شحاتة

الدار

٢٠١٥

الدار للنشر والتوزيع

إهداء

إليك يا من آمنت بموهبتي ولولاكي ما خطت يداي كلمة واحدة..

يا من لم أشعر يوما بغيابك واستشعرك فى كل همسة وكل كلمة..

يا من يعود الفضل إليها بعد الله فى كل نجاح وكل إنجاز أحققه فى حياتى فقط لأني أسير بنور دعائك..

يامن أفخر أني عشت معك هذه السنوات القليلة وأحسد إخوتي على تمتعهم بك لسنوات أطول..

يا من فضلت السماء على عالمنا الذي لم يكن يليق بجمالك، لكني أثق أنك معي فى كل لحظة..

يا من فقدت الكثير بفقدانك..

إليك ..يا أمي رحمك الله.

شكر واجب

إلى الكاتب الصحفى الأستاذ «محمد هشام عبية» على ما بذله من جهد في مساعدتي لنشر الرواية؛ وهو ما عرف عنه من عدم التأخر عن المساعدة.

عفاف "١"

يدوى جرس المنبه فى أرجاء الغرفة فأمد يدي لأخرسه قبل أن يستيقظ الأبناء ولم يحن ميعاد استيقاظهم بعد..يتناهى إلى سمعي من بعيد صوت الشيخ «حسن» أمام المسجد المجاور ينتهى من ترديده لإقامة الفجر بصوته المحشرج الذي يتعمد إطالة مقاطعه ليبرز حشرجته أكثر؛ أنهض فأشعر بدوار خفيف فأجلس قليلاً على حافة الفراش وأشعر خلف ظهري بهمهمة لـ«سهام» تتململ لكثرة تقلب أختها «أميرة» آخر العنقود التي لا تنقطع شقأوتها فى استيقاظها أو نومها ..تفتح «سهام» عينيها وتهمس بصوت به أثر النعاس وتسألني عن صحتى اليوم..أربّت على كتفها واطمئنها كي لا تستيقظ شقيقتها.

أهبط من فوق الفراش المرتفع ذي الأعمدة النحاسية الشيء الوحيد المتبقي من موبيليا زفافي فأبتسم حين اتذكر الحاج "سيد" أبوالعيال عندما كان يرد على لماضة الواد «عبده»: «يا أبا السرير ده من أيام الإحتلال.. غيروه بقي!» فيبتسم أبو «محمد» ليدخل شاربه الكث داخل فمه .. «ما هو انت لو بتفهم ماكنتش قلت الكلام ده..السرير ده أول حاجة جبتها لامك فى جهازها وشوف لحد دلوقتي لسه زي ماهو..أمال..نحاس معتبر» يضرب عبده على ظهره كعادته عندما يكون منتشياً فى الحديث «يا حمار ده أغلى حاجة فى بيتنا دلوقت!» يقهقه فيضحك معه عبده

...الله يرحمك يا «أبومحمد» والله لولا أن هذا الفراش يذكرني بأولى أيامي معه لكنت بعته بعد أن أصبح تسلقه عسيراً على فى هذه السن .. لعله حسن الختام ..أجلس فوق المقعد بجوار باب الغرفة وأفك الرباط الضاغط حول قدمي اليسرى لأجدها ازدادت تورماً عن الأمس رغم المرهم الذي أدهنها به كل ليلة.. «يا شافى يارب»؛ أضغط عليها قليلا بيدى فأشعر ألماً بسيطاً لكنه محسوس.. أتحامل وأنهض لأتوضأ وأعيد ربطها من جديد.

أنتهى من صلاة الفجر ..فأتبعها بالدعاء بالرحمة لأبى «محمد» وبالنجاح لـ«عبده» و «أميرة» والزواج لـ «سهام».

«يارب يعدلها لك يا سهام يا بنتي ويرزقك باللى يشيل الحمل عنك شوية».. «إلهى يا محمد يوسع عليك رزقه وترجع من غربتك اللى طالت دي».

تبدأ أشعة الشمس فى السطوع فأبدأ فى تحضير الإفطار.. أهرس الفول كما يحبه «عبده» وأعصر عليه نصف ليمونة .. أفتح المذياع على إذاعة القرآن الكريم التي كان يحبها أبو «محمد».

..عارفة يا «عفاف» الشيخ رفعت تسجيلاته نادرة قوى وكلها فيها خروشة زي مانتي سامعة كده مع أن ده أحسن واحد سمعته بيتلو كلام ربنا ..صوته فيه شجن ويحسسك بدنيا تانية.

تدخل «سهام» المطبخ وتلقى تحية الصباح وتخرج الطبلية وأقوم بإيقاظ الباقي كي يلحقوا مدارسهم.

أقطع حزمة الفجل والجرجير وأهرس معها نصف بصلة وأسمع صوت جارتنا «فوزية» التي تقطن فوقنا كما فى كل صباح تتشاجرمع أبنها

العاطل .

تصرخ وتزجره ليقوم بالبحث عن عمل بدلاً من نومه كالفتيات فى المنزل فأسمع صوت تحطيم أشياء وصراخ غير مفهوم:

- «هو أنا لقيت وماشتغلتش» ..فترد بصراخها العالى

« والله ما أنت نافع ..أنا مخلفتش رجالة ..عوضي عليك يا رب».

تدخل «سهام» عابسة لتحمل عنى طبق الفول والخضرة وتتمتم أن يخلصنا الله من هذه الجيرة السيئة فى يوم من الأيام؛ تعود وقد أعدت حقنة الإنسولين، تهزها مرتين كعادتها ثم تنحني وتدخل سنها المدبب فى فخذي الأيمن؛ يدها خفيفة جداً لا أشعر معها بأي ألم تخرجها ببطء كما علمتها جارتنا الممرضة وتطهر مكانها ثم تتمتم كالعادة «بالشفا».. تسألني أن كان لدي ما يكفيني حتى آخر الشهر ..فأومئ برأسي إيجاباً.. تنهض وتكمل إعداد الإفطار تضرب أرغفة الخبز الأسمر بعضها ببعض لتنفض عنهم الردّة الزائدة وتخرج لتضعهم على الطبلية.

..نلتف جميعا لتناول الإفطار وتأتى «أميرة» وهى تفرك عينيها من أثر النعاس وتجلس فى حجري كما اعتادت ..تنهرها «سهام» كي تجلس بمفردها كي لا تؤلم قدمي.

..تهم «أميرة» بالنهوض فأجلسها مرة أخرى على فخذي الأيمن وأفرد ساقي الأخرى تحت الطبلية ..فتنظر إلى سهام نظرة طويلة ..وتخبرني بضرورة الذهاب لطبيب آخر حتى نطمئن..أبتسم واهز رأسي دون اقتناع.

ينهى «عبده» آخر لقيماته وهوواقف ويتناول حذاءه استعداداً للرحيل.. فأربط شعر «أميرة» بأستك «ديل حصان» كما تحبه.. أطلب منه أن يوصل أخته إلى مدرستها فى طريقه ..يقترب مني وينحني ويلثم رأسي ويطلب فى حرج مالاً ليدفعه مقابل الدرس الخصوصي.. لا أريد أن أرده لكن لا يوجد ما يكفى من مال هذا الشهر..أطلب منه أن يرجئها للاسبوع المقبل قد أكون صرفت معاش والده.. فيبتسم ويلقي التحية ويعود ليؤكد على طلبه للمال خلال هذا الأسبوع.. توبخه «سهام» وتحثه على اللحاق بالمدرسة.

ترفع الأطباق فأجلس قليلاً صامتة ثم أنهض لأرتدي ملابس الخروج وأضع ملابس العمل داخل كيس بلاستيكى أسود أضعه فى آخر أكبر منه ليخفيه وتأتى «سهام» لتستعد بدورها للذهاب لعملها..أراها تغلق أزرار قميصها ثم تنظر لوجهها فى المرآة نظرة طويلة وتتنهد..لا ألمح أي تعبير على وجهها ..منذ توفى الحاج ولم أر سوى الجهامة على وجهها ..لا فرح ولا حزن ولا حتى سخط ..لم أرها يوما تضحك أوتبكي لتزيح عن كاهلها ما تحمل من أعباء توشك على إختراق عينيها وتنهمر أنهاراً لولا قوتها وعادتها فى عدم إظهار عواطفها ..أوقات أود لواجعلها تبكي كى تستريح وتريحني لكني أعرفها وأعرف اعتزازها بنفسها؛ لا تسمح لأي مخلوق حتى أنا برؤية ضعفها رغم أنني أحيانا أسمع صوت نهنهة من الحمام حين تغلقه خلفها

رحمك الله يا "أبومحمد" كنت الوحيد القادر على التعامل معها وفهمها « سهام دي اصلها زي أمي تمام مناخيرها فى السما وكرامتها غالية عليها أوي»

أجلس قليلاً على طرف الفراش ثم أنهض وأحكم الشال الأسود على

رأسي؛ تراني سهام في مرآة الدولاب القديم فتلتفت وتطلب مني عدم الذهاب للعمل كي لا يزيد التعب وتتورم قدمي أكثر ..أهز رأسي

- «لا هو انا بعمل إيه يتعب في الشغل؟»

أؤكد عليها ألا تنسي المرور على الفرن لجلب الخبز وإعداد العشاء لأخوتها ..أسبقها وأنزل درجات السلم المتآكلة فأقابل جارتنا التي تسكن بالطابق الأول فنتبادل تحية الصباح وبعض العبارت العابرة.

أقطع المسافة القصيرة بين المنزل وموقف الميكروباص؛ أتخذ مقعدي وأسند رأسي على حافة النافذة ..دقيقة أخرى ويأتي «علي» جارنا الشاب الذي يعمل في نفس المكان والذي أتى لي بالوظيفة في ذلك المجمع التجاري .. «الموول» كما ينطقها «علي» ويثقل على حرف الواو فأضحك من لفظه لها ..يركب الميكروباص ويجلس بجواري يلقي تحية الصباح ويسأل عن أحوالي ثم يتردد ويعاود حديثه ..

- «إزاي سهام؟»..ثم يستدرك بسرعة ويسأل عن أحوال «محمد» وعن ميعاد عودته من السفر.

- «والله يا أبني لسه آخر جوأب بعته من شهر ومن ساعتها لا حس ولا خبر» .. يعتدل في جلسته ويردد كالعادة «الله يطمنكوعليه» ينتظر السائق قليلاً حتى يكتمل عدد الركاب ويبدأ الحديث في الفتور شيئاً فشيئاً حتى يصمت «علي» فأسند رأسي على النافذة الزجاجية وأحاول أن أغفو قليلاً.. وكلما غفوت استيقظ على اصطدام رأسي بالنافذة بقوة نتيجة للسرعة المجنونة التي يسير بها السائق وتعمده اصطياد المطبات ومنطقتنا عامرة بها.

نصف ساعة ونصل إلى أول الشارع المؤدي للعمل فيهبط «علي»

ويساعدني على النزول بدورى ونتجه معاً صوب المول كما ينطقها «على».

نمر أمام المدخل الفخم للمول الذي مازال خالياً لم يؤمه الزوار بعد فى هذه الساعة المبكرة..نمر بموقف السيارات وأمامه عربة للشرطة واحدة "بوكس» وأخرى عادية ومع أحدهم كلاب الحراسة يلقى «على» السلام عليهم فلا يأتيه الرد .. فيعاود ثرثرته التي لا تنقطع عن نفسه وحياته وتخرجه فى كلية الآداب ولكنه لم يجد وظيفة أخرى غير هذه حتى الآن لكنه يعاود ويقول مسرعاً:

« لكن والله مرتبها حلو وبيكفى المصاريف كلها ..وأهى حاجة مؤقتة لغاية ما ألاقى شغلانه أحسن».

ثم يلتفت ليرى أثر كلامه عليّ ويؤكد لى على بحثه عن عمل آخر كسكرتير فى مكتب أحد الأقارب ..فأرد عليه كما فى كل مرة «يديك إللى فيه الخير يا على» ...يفكر فى الكلام ثم يؤثر الصمت ..أدرك ما يعتمل فىّ صدره لكني أفضل الصمت حاليا ف«سهام» أعرفها جيداً وهى لا تطيق حياتنا لكنها تتظاهر بالتماسك وتعود منهكة متبرّمة من عملها فى تلك الحضانة فكيف ترضي بمن يزيدها فقراً على فقر ..»على « طيب وأبن حلال لكنى أيضا أريد من يحمل عني الحمل قليلاً.. لم أسأل «سهام» لأعرف رأيها بل لعلى أخشى سؤالها فتقبل وأنا من يرفض فى الواقع.. قد تريد الهرب من واقعنا بأي تجديد يطرق الأبواب لكنه لن يسعدها كما تتوهم ...أتأمله يسير بجوارى بجسده الممتلئ المتهدل قليلاً يلهث فى آخر الطريق دائما فأتعجب من شباب اليوم ..أداعبه قبل أن ندلف إلى المول حتى يستعيد مرحه:

«أنت قادر تمشي يا «علي» ..ولا بتأجر ناس يسندوك على آخر اليوم؟».. يضحك ضحكته العالية المبالغ فيها أحيانا ..ثم يتبعها بابتسامته العذبة على ملامح وجهه البرئية ..أجمل ما فيه وجهه الطاهر الذي يشعرك بطيبة حقيقية ..ثم يرد بمرح «والله بقالهم كتير مأبيجوش ..تعبوا الظاهر!»

..نضحك سوياً ثم ندلف من الباب الخلفى المخصص للعاملين بالمول يصمم على أن يصعد معى حتى يوصلني للدور الثانى حيث مكان عملى أحاول منعه لكنه كما فى كل مرة أيضا يصرّ ويحمل عنى الكيس ويمد لى يده لأعتمد عليها حتى نستقل مصعد العمال فيلقى التحية على العامل ثم نخرج حين يتوقف ويسير معى حتى الباب ..أتناول منه الكيس البلاستيكي ويحييني ويستدير عائداً ليهبط للدور الأرضى حيث يعمل بالسوبر ماركت الكبير الفخم ..أحمل الكيس بيد وأخرج مفتاح الباب من "كيس النقود" أفتح الباب وأغلقه خلفى ..أخرج ملابس العمل التي أحرص على أخفائها من سهام واستبدلها بملابسي ثم أعيد إحكام الرباط الضاغط حول قدمى ..أقف قليلاً وأفتح خزانة الحائط أضع فيها ملابسى وأخرج الممسحة والدلو وأستعد لمسح أرضية حمام المول.

||||||||||||||||||||||||

أخرج زجاجة الصابون المستورد وأبدأ فى صب الماء داخل الدلو تظهر رغوة غنية رائحة الصابون منعشة حقاً؛ أخذ القليل منه فى زجاجة صغيرة وأضعها مع ملابسى فهوينظف جيداً الملابس ويعطى لها رائحة جميلة مع أنهم أخبرونى أن هذا الصابون لمسح الأرضية ..حاولت أن اقرأ التعليمات المكتوبة على العبوة لكنها بلغة أجنبية لا أعرف حتى

كيفية قرائتها من اليمين أم من اليسار.. لكن «عبده» و«أميرة» يحبان رائحة ملابسهم النظيفة عندما أغسلها به.. «بقي بالذمة دة يتمسح بيه بلاط؟.. مش خسارة والنبي ؟»

أبدأ أولاً بتنظيف المراحيض ثم أقوم بتلميع المرآة الكبيرة المعلقة بالحائط ثم أمسحها بورق الجرائد حتى تلمع وأبدأ بتنظيف الأحواض التي لم تنظفها كما يجب زميلتى الأخرى «عواطف» قبل أن ترحل ليلاً.. أسكب الماء على الأرضية وأبدأ فى مسح الأركان أولاً؛ تؤلمني قدمي كثيراً فأجلس قليلاً وأرفعها ..ثم أقف مرة أخرى وأستعيد الممسحة وأجفف الأرضية حتى تصبح شديدة اللمعة ورائحتها طيبة ..أفتح الباب.. الساعة الآن العاشرة .. أجلس على مقعد بلاستيكي وأرفع ساقى اليسري على مقعد مقابل أتأملها قليلاً ثم أسند رأسي للوراء ..أصبحت أحب هذا المكان بعد أن اعتدت عليه فهوفخم جداً ولا يشعرك أنك بداخل حمام على الإطلاق ..رغم أحيانا تكون عملية تنظيف المراحيض مقززة لكن كل شيئ يصبح بالتعود سهلاً ..أحبه أكثر لأنها المرة الأولي التي أرى بها نماذج كثيرة وغريبة من البشر فى مكان واحد..

أتذكر أول يوم وفزعى عند الدخول للمول ولولا وجود «على» لكنت رحلت منذ أول دقيقة ..لم أغضب حين أعلمني «على» بطبيعة الوظيفة ورغم حرجه وهو يخبرني بها إلا أنني تقبلتها دون تردد ..فلا يوجد مجال للتأفف وطلبات واحتياجات الأبناء تزداد و«سهام» أصبحت على «وش جواز» ..وأعجبني أن «على» لا يتحرج من مرافقتي يومياً للحمام ويحرص على تلبية طلبأتى ويسأل عنى لو أتيحت له الفرصة ..أبن حلال هذا الشاب حقاً..أضحك حين أتذكر أول مرة رأيت الحمام ظللت فى

مكاني ساكنه والعاملة تشرح لى ما سأفعل وأنا أسألها ببلاهة ودهشة «دة حمام؟!» ..وأقارنه بحمام منزلنا الصغير وأي حمام آخر دخلته ..فقبلت الوظيفة خاصة ومرتبها يساعد فى جانب عظيم من المصروفات.

هى متعبة أحيانا ومقززة أحيانا خاصة أن قدمي بدأت فى التورم بلا سبب معروف حتى الان؛ لكن هناك وقت فراغ طويل أرتاح فيه قليلاً وأمضى الوقت فى مشاهدة ومتابعة أنماط الزوار من كل شكل ولون.. وتأتى «أمل» التي تعمل بمحل قريب من الحمام أحيانا لتمضي بعض الوقت معى ومعها الجرائد كى نقرأها سويا فى عجالة واتذكر دهشتها حين علمت أني أجيد القراءة والكتابة.

. «أمال إيه أنا معايا ثانوية عامة ..أنتي فاكراني جاهلة ولا إيه؟ دة أنا كنت باذاكر لمحمد وسهام» ..أضحك وأستمر فى حديثي:

– «بس الجواز والعيال خلوني أبطل قراية وأبطل كل حاجة ..كان نفسي أكمل تعليمي».

تنظر «أمل» بدهشة وتتسع عينيها أكثر فأخبرها عن «أبومحمد» إذ كان يحب القراءة للغاية وهومن علمني القراءة لأشهر الكتاب وأن آخر كتاب لدينا قمنا ببيعه لبائع الروبابيكيا ولولا الحاجة لما فرطت فى الكتب أبداً.. تضم شفتيها معاً كعادتها عندما تمتعض ثم تغمغم ..– «خسارة والله يا دادة ..خسارة كل دة يروح»

أتنبه على صوت بالخارج فأظنها «أمل» أتت مبكراً لكن لا يفتح الباب أحد وأتذكر أن «أمل» لن تأتى قبل ساعة إلا الربع فأرجع رأسي للوراء وأسندها على الحائط وأحاول أن أغفو قليلاً.

زين «١»

أفرك وجهى مرتين بالصابون لكن لا أجد فارقا يذكر فأتخلي عن الأمر واتقبل الحال كما هو ..منذ مدة طويلة ادركت أن أنتفأخ ملامحى بعد الإستيقاظ لا حل مجدي له يمر بعض الوقت ثم يعود إلى حاله بعد أن اتشبع بنظرات المارة المندهشة..أخرج من الحمام فاصطدم بكتف « أحمد» شقيقي كي أفسح له الطريق ليدلف إلى الحمام بدوره ..أضرب المذياع ضربة خفيفة كي يبدأ فى الحشرجة الأولي ثم يظهر بعدها صوت المذيع الرتيب يعلن عن فقرتي المفضلة.. موجز الأخبار .. وتلك هى فقرتي المفضلة لأنها تضحكني كما لا يمكن لأقوى المسرحيات الكوميدية اتجاهل صرأخ شقيقتي « سلوي» التي ايقظها صوت المذياع وتوبيخ شقيقتي الآخرى القادم من غرفة الفتيات ..يردد المذيع بصوته الرزين أنه تم إنشاء آلاف المصانع الجديدة تنفيذا للبرنامج الذي وعد به الرئيس فتبدأ نوبة الضحك فى البدء ..وتزداد مع تزايد الأخبار خاصة تلك المتعلقة بانجازاتنا السياسية الخارجية التي لا نسمعه عنها سوى فى إعلامنا.. وكالعادة التنغّم بالقضية الفلسطينية التي خسرناها وخسرنا استئنافها ايضا ولازلنا نصمم على الدوران فى المحاكم كالمطلقات نبحث عن حل..تصل ذروة الضحك عندما يستعرض أخبار الاقتصاد وتنتهى النشرة أخيرا وقد أفاقتني كأقوى كوب شاي ثقيل.

أمر على والدتي فى المطبخ الضيق الذي لا يتسع سوى لفرد واحد

فألقي التحية عليها واتابعها وهى تعد خلطة المحشي كي تبيعها لجارتنا العاملة..أنهى ارتداء ملابسي وقد اصبح البيت خلية نحل بعد استيقاظ باقي إخوتي ليلحق كل منهم بمصالحه ..تذهب شقيقتي الكبري إلى عملها كموظفة فى الشهر العقارى ويذهب شقيقاي الأصغر سنا إلى مدرستيهما استعدادا لمراجعات آخر العام قبل الاختبارات التي تحل بعد أيام معدودة .. «سلوي» مازالت تغفو ..فأمضي قبل أن أسمع توبيخ أمي لها على كسلها وعدم مشاركتها فى أعباء المنزل ..أنتظر أي حافلة تنقلني إلى مكان العمل وأنا استرق النظر إلى الجريدة التي يحملها من يقف بجوارى.. اتذكر أني لم المح وجه» حامد» أخي رقم ثلاثة فى ترتيبنا العمري لعله ذهب إلى الهايكستب مبكرا ليقدم أوراق التجنيد..أحيانا لا أعلم عن بعضهم أي أخبار لمدة اسبوع أو ما يزيد عليه ..فلدي من الأخوة ثمانية أنا أكبر الصبية والمسئول بعد رحيل والدي .

أمسك بطرف أحد المقاعد كى لا أسقط ..وأميل بجذعي لأريح ظهري الذي تقوس من طيلة الوقفة وأشرد بذهني خارج حدود النافذة أتابع المارة والسيارات..أفاجأ بنبرة صوت غاضبة وضربة على الكتف ممن يقف فى مواجهتي.. يوبخني على إطالة النظر له والابتسامة الساخرة التي أوجهها له!..أفيق من شرودي وأعتذر له طويلا موضحا أنني كنت سارحاً بعيداً ولا أقصد أن أسخر منه ..يصمت بغير اقتناع ويدير وجهه بعيدا وهو يقذف بعض العبارات الهامسة الغاضبة .

أتابع المعلمة وهى تشرح لنا درس الحساب وأجاهد كي يفهم عقلي كيفية القسمة والضرب..فجأة تقذفني المعلمة بقطعة الطبشور فى وجهى وتصيح بي أن أكف عن الابتسام وإلا سيحل بي العقاب..أظنها أخطأت وتخاطب شخصا سواي لكنها تقترب وهى فى شدة الغضب

وتشدني من أذني لإصرارى على الابتسام دون داع وتصيح بي لوقاحتى وتعمدي السخرية منها.

ملامحى تخدع الكثيرين فيظنوا أنني دائم الابتسام ..لكن عظام وجنتيّ البارزة وشفتي المشدودة يعطيان الإيحاء بابتسامة كبيرة على وجهى لا أتعمدها ..وكانت السبب فى عدم ذهابي إلى كثير من سرادقات العزاء كى لا استفز أهل المتوفى ..يستمر السائق على سيره ولا ينعطف فى الشارع حيث مكان المول..فأحاول أن أخرج نفسي من بين تلال البشر داخل الحافلة وأصل للباب أخيرا ..أنتظر أن يهدئ السائق من سرعته ثم اقفز واعود مترجلا قاطعا مسافة كبيرة إلى المول..مازال الوقت مبكرا ولم يؤمه الزوار .. بعد اثبات حضوري أقوم بارتداء ملابس العمل ..أدخل المفتاح الصغير داخل لوحة التحكم بالمصعد ثم أضغط على الزر الثانى ليصعد بي إلى الطابق الذي طلبته ..المول بالداخل شبه خال اتمهل فى سيري وازجي وقتي بمشاهدة واجهات المحلات التي مازال بعضها مغلقا أبوابه ..اتأمل المانيكانات الرشيقات وملابسهن الانيقة ..التفت لأواجه «محمود» رجل الأمن أحييه واتبادل معه عبارات قصيرة ..اسأله عن أحواله فيجيب كعادته بإجابات مقتضبة.. أعابثه ببعض الدعابات المرحة فيبتسم نصف ابتسامة يشعرني معها بالخجل فأتركه وأعود إلى المصعد .

غريب أمره حقا دائما ما يقابل كلامي ودعاباتى بوجه متجهم دون أن يحاول حتى مجاملتي بالحديث وهذا يسبب لي ضيقا لأنني كثير الثرثرة لا أطيق لحظة صمت ولا أتحمل البقاء بمفردي طويلا..ولهذا لا أحب عملي الجديد ولا استسيغه أبدا فهو بمثابة الحبس الانفرادي لمدة تزيد على العشر ساعات دون أن أجد من أتبادل معه أطراف الحديث ..لكن ما باليد حيلة..أعود للمصعد وأنتظر قدوم الزبائن

أرتدي البالطو الأبيض وأجلس أمام المكتب وأبدأ فى تسجيل أولى اسامي المرضى فى الكشف وأدون بياناتهم التي يحتاجها الطبيب..يدق الجرس فأهرع للداخل لمعاونة دكتور «يحيي» فى عمله..أناوله بعض الأدوات وأقوم بتشغيل جهاز التعقيم ..تأتي «وفاء» وتناول الدكتور جهاز حشو الضروس فيبدأ فى عمله وسط تأوهات المريض الذي يعتصر المقعد بيده من الخوف ..أنهي عملي بالداخل وأخرج لاستكمل تسجيل أسامي المرضى.

أفيق على صوت تشغيل الموسيقي الذي ينساب داخل المصعد فأدرك أني غفوت دون أن أشعر ..أجلس على المقعد الصغير ذي الأرجل الثلاثة الذي وضعوه حديثا بعد أن أمضيت شهرا كاملا أستند على حوائط المصعد حتى كنت أعود كل مساء بأرجل متورمة..اتأمل الأزرار التي يشير كل رقم إلى أحد الأدوار داخل المول واتطلع إلى السقف وأبدأ فى عد المسامير التي تربط مصابيح الإضاءة به..اعرف عددها حيث قمت بعدها أكثر من مرة قبل هذا كنت أظن أن الوظيفة ستكون من أسهل ما يمكن لكني لم أتوقع أني سأعاني من عذاب الملل والإرغام على ساعات الصمت الطويلة هذه ..

لا أجرؤ على الاقتراب من الحائط الزجاجي بالمصعد كى لا أشعر بالدوار الذي أشعر به كل مرة ..فبالكاد دربت نفسي على التماسك داخل المصعد لكني لم أجرؤ بعد على كسر حاجز الخوف الوحشي الذي ينتابني كلما اقتربت من الواجهة الزجاجية حيث أرى نفسي على ارتفاع طابقين عملاقين وأشاهد الزوار من أعلى فحينها ..تتسارع دقات قلبي وأشعر بعضلاتى تتقلص والعرق يتصبب وحالة من الذعر تصيبني وتشل تفكيري.. ألتصق أكثر بالحائط المقابل وأدق بقدمي على أرضية المصعد

بانتظار إضاءة أول زر فى لوحة الأزرار.

تبدأ مقابلة العمل الجديدة هناك الكثير من المتقدمين للوظيفة.. أدعو الله أن افوز بها كيلا أعود إلى شهور البطالة الطويلة من جديد.. فلن اتحمل نظرات والدتي كل صباح ولا بقائي بالمنزل بينما تذهب شقيقتاي لعملهن..يأتى دوري فيقابلني رجل وقور فى الأربعينات من عمره يرتدي قميصا وكرافتا أنيقا يبدو أنه خلع سترته للحر الشديد.. يسألني بعض الأسئلة العامة ويثني على أبتسامتي الدائمة التي لم تفارقني ..فأبتسم بحق هذه المرة ليتسع حجم فمي حتى يكاد يصل لأذني .. يضحك ويردد أن هذا ضروري لحسن مقابلة الزوار ..يخبرني بطبيعة العمل فأجدها فى غاية السهولة..يأمرني بالقدوم غدا مبكرا لاستلام العمل ..فأرحل وأنا أطير من السعادة..استعيد حديثه فى الحافلة.. كل ما على هو أن أظل داخل المصعد المكيف وأتابع الأزرار وأقف عند الأدوار المطلوبة كي يستقل الزوار مصعد المول.

أخرج سلسلة المفاتيح وأعبث بها وأنا أدندن اللحن الذي يسري من السماعات.. ظللت فترة طويلة أبحث عن مكان السماعات الخفى هذا حتى اهتديت له أخيرا ..فلقد أخفوها بإحكام حتى يبدو وكأن الصوت ينبعث من السقف والجدران ويشمل المصعد كله ..أبدأ فى محادثة نفسي لقتل الملل الذي بدأ يخنقني ثم أقرر أن أقف بالمصعد فى كل طابق.. أهبط مرة أخرى للطابق الأرضي..ينفتح باب المصعد فى بطء فأقف بين ضلفتيه كي أمنعهما من الانغلاق وأتأمل المحال والطرقات بعض الوقت.. أشاهد درجات السلم المتحرك والتي يفضلها الزوار عن المصعد أحيانا.. وأتأمل واجهة محل الإكسسوارات الحريمي والفتاة العاملة تقوم بتعليق بعض السلاسل الذهبية الرائعة ..أدير وجهى للناحية الأخرى فألمح بعض الزوار يمرون من البوابة..فتيات صغيرات لا يزيد عمرهن عن السادسة

عشر عاما..يثرثرن معا ويتجهن إلى السلم المتحرك..أنتظر قليلا لعل أحد الزوار يرغب فى استقلال المصعد يصيبني الملل فأصعد للطابق الأعلى وأكرر نفس الشيء ..

أكره تلك الساعات المبكرة من اليوم فالزوار عادة ما يكون عددهم قليل.. تمر ساعات كثيرة حتى يبدأ أولهم فى استقلال المصعد معي.. أبتسم حين أبدأ فى الحديث مع نفسي بصوت مرتفع مرة أخرى..فأنا لم أعتد بعد على كل هذا الصمت الثقيل ..وأنا الذي كنت لا أصمت دقيقة واحدة ومشهور عني الثرثرة والرغي ..فأحيانا كنت أتحدث بالنيابة عن أفراد الأسرة جميعا عندما كنا نجتمع لتناول الغداء.. وما أن ينتهى الطعام حتى يفر كل فرد فيهم كيلا يقع فريسة لثرثرتي التي لا تنتهى أبدا.. أدرك أنها عيب خطير لكني لم اقدر أبدا على التخلص منها.. حاولت مرارا أن اتحكم فى نفسي وأقلل من حدة الكلام لكن ما أن تمر دقائق قليلة حتى أجد رغبة عارمة بداخلى للحديث مع من بجوارى أو أمامي عن أي شيء وكل شيء ..ولم تفلح مرات طردي المتكررة من مدرج المحاضرات أثناء دراستي بالكلية جرّاء هذه العادة فى جعلى اتوقف عنها..لهذا أشعر أن هذه الوظيفة بمثابة العلاج الإجبارى لي.

تأتى زبونة جديدة وتسجل اسم ابنها الذي يريد أن يخلع أحد ضروسه.. أتناول منها ثمن الكشف ثم تجلس على الأريكة بجوار مكتبي.. أتابع حلقة المسلسل على شاشة التلفاز الصغير بالعيادة ثم أبدأ فى الثرثرة معها عن أحداث الحلقة وعن « يسرا» ..ترد عليَّ مجاملة فى أول الأمر ثم تصمت بعدها فى ضجر.. يأتيني جرس الاستدعاء من الطبيب بالداخل فأنهض مسرعا بينما ألمحها تتنفس الصعداء وتبتسم للسيدة الأخرى بجوارها.

على «١»

أستدير عائداً إلى المصعد ..يركب معى عاملان فى المطعم الإيطالى بالدور الأول ..يثرثران معاً ويتبادلان النكات بصوت عال يلقي أحدهم بالقفشات المضحكة التي يتخللها مزاح بذيء أحيانا ..أبتسم لهما مجاملا حين يديران وجههما تجاهى ..يتوقف المصعد فى الدور الأول فيرحلان معاً ويرحل الصخب معهما.. أتأمل نفسي فى مرآة المصعد ..أحاول أن أشفط بطنى المترهل قدر المستطاع حتى يؤلمني صدرى فأتوقف.. اتذكر دعابة الست أم «سهام» قبل دخولنا المول.. أضحكتني وقتها لكنى أدرك حقاً أني أبدواكبر من سني الحقيقية بذلك البطن المنتفخ والفخذين العملاقين والذقن المزدوجة ..لا أنكر أن السمنة حققت لى مكسباً وحيداً فى حياتى واعفتنى من الخدمة العسكرية وذلك كما كتب فى شهادة الإعفاء «لالتصاق الفخذين» .. لكنها كانت مبعثا للسخرية فى كل مراحل عمرى.. يتوقف المصعد فى الدور الأرضى فألقي التحية على عامل المصعد وأتجه للباب الخلفي للسوبر ماركت أوالهايبر ماركت كما يقولون ..لعل «سهام» هى الأخرى تجد سمتني مفرطة بل وربما مضحكة أيضاً.

أدفع الباب المروحة فيغلق فور عبوري للداخل.. أحيي باقي الزملاء الذين أتوا لتوهم أيضاً ..أفاجأ بضربة على ظهري من «كامل» زميلى أسمع لها رنينا بداخلى ..لا أدرى هل يده ثقيلة إلى هذه الدرجة أم أني لا قوة ولا حيلة لي.. أضحك مجاملاً رغم ألم الضربة .. استبدل ملابسي بملابس

العمل ..أرتدى الـ «يونيفورم» ..أول مرة لم أتمالك نفسي من الضحك وأنا بهذا الغلاف الأصفر المنتفخ قليلاً عند القدمين والذي جعلني مع حجمي هذا أبدو كثمرة ليمونة عملاقة لا يتبقى سوى أن يدحرجها الزملاء حتى مكان "الكاشيرة"!

..أذهب إلى حيث يجلس الباقون حول مائدة بلاستيكية خضراء يتناولون الإفطار المكون من شطائر الفول المعتادة ..يمد أحدهم بشطيرة إليَّ فآخذها منه شاكرا. ..أجلس معهم ونبدأ فى الفتك بالشطائر التي أتى بها أحدهم من محل "زيكو" فى آخر الشارع الخلفى للمول.

فى المدرسة الابتدائية زملائي يهرولون خلفي فى الفناء وقت الفسحة ويلقبونني «بعلي البرميل» أشكو في البداية لمدرس الفصل عندها يوبخهم ويحاول أن يخفف عني لكن لم يستمر معنا طويلاً استبدلوه بذلك المدرس الجديد شكوت له مرة واحدة فإذا به يكاد يسقط من فرط الضحك الذى يكتمه ويقول «معلش يا حاج علي ..ليهم عذر والله ..بس صحيح أنا أول مرة أشوف طفل بكرش!» فينفجر بضحكة مجلجلة ويضرب كفه على كف مدرس آخر فأبتسم لأني لا أريد البكاء أمامه وأهرول مسرعاً مبتعداً.

ينبهني صوت "كامل" زميلي الأقرب لى فأكمل باقي الشطيرة التي لا طعم لها لكنها تؤدي الغرض وتمنحك ساعات من الشبع قبل أن تهلك جوعاً انتظاراً لفسحة الغداء...يناولني شطيرة أخرى ويستدير ليرد على من ألقى دعابة فجة بدعابة أكثر فجاجة ..هل يا ترى «سهام» ترى ذلك أيضا؟ أم أنها لا تهتم بالمظهر ..فى المرات القليلة التي تبادلنا فيها الحديث لم تبد أنها لاحظت بدانتي ولم تشر إليها فى أي حديث من قبل..هل لأنها لا تُعر الشكل اهتمامها ولا يعنى لها سوى الجوهر؟..أرتاح لهذه الفكرة

قليلاً وأقضم قطعة أخرى من الشطيرة لكن ما ألبث أن أعاود التفكير بصورة أكثر قتامة أوقد تكون لا تعر شخصى نفسه اهتمامها فلم تلحظ بدانتي من عدمها لانها لا تهتم أساساً بشخصية البدين الذي يحدثها.

..ألوك الفول بصعوبة وأحاول طرد هذه الأفكار وأتنبه لما يقولون لكني وجدتهم يتحدثون فى موضوع آخر جديد يسألني عما بي فأهز رأسي وأتعلل بالإرهاق يبتسم كامل ويستدير مرة أخرى ..يسألني مداعباً أحد الزملاء ويتساءل عن سبب سمنتى هذه مع أني أقلهم التهاما للطعام؛ أرد متهكما:

«والله علمي علمك.. الظاهر اتولدت كده».. يضحك الجميع ثم يخبرنا أخدهم بأمر أعشاب التخسيس التي أتى منها السوبر ماركت بعدد ضخم.. يرد آخر ويحذرني بألا أجربها قائلا :

«أنا أعرف واحدة جارتنا أنما إيه ..هضبة ما شاء الله أخدت منها كوبايتين مرة واحدة جالها إسهال ونقلوها المستشفى؛ جالها جناف بعدها ..وبرضه ماخستش !» نضحك جميعا بقوة ثم يعاود "كامل" حديثه وهويزدرد آخر لقيمات الفول:

– «يا عم والله العالم دى مرفهة زيادة عن اللزوم يتخنوا بفلوس ويخسوا برضه بفلوس ..طب يدوا الفلوس دى للي مش لاقيين ياكلوا ويبطلوا هما أكل شوية ..طبعاً يا علي مش عليك الكلام دة أنت بتتخن من غير ما تاكل أصلا !» يضحك الجميع وتنتهى الجلسة على ضحكات عالية فيأتي رئيس العمال لتوبيخنا ثم يطالبنا بالاستعداد للعمل ..نجمع بقايا الطعام ويقذف أحدهم باللفافة فتقع فى منتصف الصفيحة تماما يهتف أحدهم : «أيوة يا لعيب» .. نخرج ويذهب كل منا لمكان عمله.

أتوجه إلى ماكينات الصرف الآلى حيث مكان عملى أو الكاشيرة بإطالة حرف إلياء كما تقولها «ميرفت» التي تجلس خلف أحدى الماكينات التي أعمل عليها ..أبدأ أولاً بتجميع العربات والأقفاص الحديدية الصغيرة فى مكانها المخصص ..أتصبب عرقاً وأنا أدفع أمامى صفاً طويلاً من تلك العربات ثقيلة الوزن ..أنهى تنظيمهم مع "كامل" فألهث قليلاً ..يبتسم ويحمسنى لأتحلى بالقوة فى بداية اليوم الشاق.

أتركه وأذهب للماكينة الأولى وأقوم بترتيب العلب على "الستاند" المعدني بجوار الماكينة ..الصف الأول لعلب الشيكولاتة المستوردة.. والثانى للبطاريات الجافة والثالث للبأن.. وأخيراً الصف الأخير فارغاً مخصص للبضائع التي يقوم الزوار بارجاعها عند الدفع والتى قد لا يرغبون فى شرائها ..أنتهى من رص العلب فأتجه للماكينة التإلية وأعيد الكرّة؛ وأثناء ذلك أسمع صوت كعبي "مرفت" العالى المستفز الذي يدوى فوق أرضية السيراميك تحيينى ..ثم كعادتها تخرج علبة اللبان وتضع حقيبتها بالدرج وتبدأ فى مضغ اللبان بصورة هيستيرية وهى تدندن إحدى الأغنيات الحديثة..تسأل عن زميلتها "سماح"هل أتت بعد فأهز رأسي نفياً وأضم علبتين من الشيكولاتة معاً داخل علبة واحدة وأتخلص من الأخرى الفارغة.. تأتى «سماح» فتلقى التحية علينا وتلثم "ميرفت" بصوت مسموع .. وسرعان ما يتم فتح الهايبر ماركت للجمهور.

ضغط العمل عادة يكون قليلاً أول اليوم، فقط زبون كل ربع ساعة أو ثلث ساعة ثم يشتد الضغط فى الحادية عشر صباحاً.. تتسلى «ميرفت» بالحديث مع «سماح» ثم تريها شيئا فى هاتفها المحمول ..تضحكان ثم تعيده لحقيبتها؛ تسألني «ميرفت» عما كنت أعمل قبل التحاقى بالمول.

- «ولا حاجة قعدت سنتين من غير شغل وبعدين ربنا كرمنا « ..تهز رأسها بعصبية وتسأل عن مؤهلي الدراسى أن كان دبلوم تجارة أم صناعة.. فأجيبها:- «لا دة ولا دة أنا خريج آداب» ..تصمت فترة وتحملق فى ثم تهتف «يا نهارك!.. وإيه إللي جابك هنا ؟»؛ أضحك وأخبرها أنى بحثت عن وظائف كثيرة تلائم مؤهلى ولابد أن أبحث عن لقمة العيش ..تصمت قليلاً وتفكر وتخبرنى أنها ستسأل خطيبها الذي يعمل بدار رعاية خاصة كبيرة عله يجد لي وظيفة أفضل بين معارفه.. أشكرها بشدة وأخبرها أنه سيكون جميلاً لن أنساه أبداً..فتضحك بصوت عال يلفت الانظار فأتحرّج قليلا وتقول «بس على الله يتمر» ..تضحك معها «سماح» أيضاً.

أتقدم لشغل وظيفة عامل مصاعد ..وقتاً طويلاً أمضيته لأقنع نفسى وأجبرها على تقبلها وأوهم نفسي أنها وظيفة مؤقتة وسهلة لا تحتاج أى مجهود ..لكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً من أول وهلة يبتسم المسئول ويرد «دة كدة مافيش غير نفر واحد بس إللي يركب معاك فى كل مرة» .ثم يخبرني أنه ليس أمامي إلا عامل مخازن أو تلك الوظيفة.. وأبدأ محاولات جديدة مع نفسى لإقناعها بوظيفة عامل مخازن ..فى البدء أنخدع رئيس العمال بمظهرى وقام بتعيينى فى المخزن وهو يردد «كلك صحة أهو ..تقدر تشيل بقى» لكنه اكتشف حقيقة الأمر عندما كدت أصاب بنوبة قلبية وأنا أجاهد كى أرفع كراتين البضاعة وأرصها فوق بعضها البعض حتى أوقفني وهو يصرخ أنني سأتى له بمصيبة هكذا لو مت جراء هذا المجهود.. ثم صمت هنيهة وأتم جملته بأنه لن يرضى أن يقطع عيشي وسيحاول أن يجد لى وظيفة أخرى كعامل عند الكاشيرة فألهث شاكراً وأستند إلى الحائط ويناولني أحدهم زجاجة مياة فأجرع منها جرعات متلاحقة.. يتابع رئيس العمال .. «انت تخم فعلا ..منظر بس» عندها لم أعد أحاول إقناع نفسي بأى شيء.

أنتبه من شرودي فأسمع «ميرفت» مازالت على ثرثرتها مع «سماح» أتردد قليلاً ثم استجمع شجاعتي وأسألهاعن مؤهلها ..تصمت قليلاً وترد بسرعة

« أنا دبلوم تيجارة».

بالياء كما تنطقها؛ تمد لى يدها بعلبة اللبان.. أشيح بوجهى شاكراً فتخطف «سماح» العلبة وتضحكان معاً بمبالغة لا أفهم سببها، فأقف بعيداً قليلاً وأرى من بعيد أول الزبائن تدفع أمامها العربة إلى الكاشيرة فأقترب من الناحية الأخرى وتبدأ «ميرفت» تضرب على الحاسب الآلى وتسجل المشتروات وثمنها فيخرج البون بأزيزه المعروف من المكنة وأتناول البضائع وأبدأ فى وضعها بداخل الأكياس البلاستيكية المطبوع عليها اسم المول باللون الأزرق .. أضع المشتروات كما علمونى ..الملابس داخل أكياس بمفردها ..والألبان أضعها بداخل كيسين وأعلقهم على ظهر العربة حتى لا تضغط عليها باقي المشتروات وتفسدها والباقى أصنفه كل صنف فى كيس؛ تمد الزبونة يدها بالمال لتدفع الفاتورة التي تتجاوز المائتي جنيه وتمر فى الممر الصغير فتدفع العربة أمامها وتمد يدها بالبقشيش لى ..أخذه منها فى حرج شديد وأدسه بداخل جيب إليونيفورم ..تسأل «ميرفت» فجأة «سماح».

- «إيه حكاية أعشاب التخسيس دى كذا مرة أطلع بون فيه علبة أو اتنين؟» ..تمط «سماح» شفتيها جهلاً ..فأضحك بداخلى واسند ظهري بانتظار زبون جديد.

أمل «١»

أفتح الباب الزجاجي للمحل وأغلقه خلفى ..أضيئ النور "النيون" الأبيض ..تبدأ المصابيح فى الوميض المتقطع أولا فتسطع شموس كثيرة فى عيني التي لم تعتد تلك الإضاءة الباهرة ثم يبدأ الضوء فى الاستقرار ويغلف لونه الأبيض ما حولى

دائما كنت أكره ذلك الضوء الأبيض يشعرني بوحشة وبمادية ما ويترك انعكاساً سلبياً داخلى كانه ملمس جسم معدني بارد يغلفك فيشعرك بالبرودة النفسية ..منذ صغري وأنا أكره هذا الضوء رغم أن أبى -رحمه الله- كان يصر على تركيب مصابيح النيون فى غرفاتنا للاستذكار

«النور دة أحسن عشان عينيكي ..نوره جامد عشان تعرفى تذاكري» ويقنعنى بلهجته الصعيدية الجميلة ..إلا أننى أصرعلى المصابيح المعتادة ذات اللون الأصفر .. يتعجب من حبى لهذه المصابيح ذات الضوء الباهت محذراً إياي من ضياع بصري .. فأضحك وأداعبه «حأدور عليه أما يضيع!» وأخبره أنى أحب لون الضوء الأصفر الشاحب لانه يشعرني بالدفء والحرارة.

أبدأ فى رصّ الملابس وإعادة ترتيبها من جديد.. هناك بلوزة يعجبني لونها بشدة ولم يتبق منها سوى قطعة واحدة ..أحاول قدر الامكان أن أخفيها بعيداً عن أعين الزبائن حتى يحين وقت التخفيضات فربما أتمكن من شرائها وقتها ولعل الأستاذ «مصطفى» يكرمنى فى سعرها ..أنتهى من

تعليق المعروضات فأتجه للفاترينة وأبدأ فى استبدال ما ترتديه المانيكانات فهذا موعد تغيير الفاترينة.. أخلع عنها ما ترتديه وأبدأ فى إلباسها ما أراه مناسبا.

يثور عمى عندما يأتى لزيارتنا ويرانى عائدة من مدرستي الإعدادية لا أفهم ثورته وهو يخاطب أبى بغضب ويتحدث عن سماحه لى بالخروج بما أرتديه من «مسخرة»على حد قوله ويوبخ أبي لأنه لا يحترم التقاليد خاصة بعد إلحاقي بمدرسة الراهبات الأجنبية...تأتى أمى وتجذبني داخل الغرفة حتى لا يرانى عمى أمامه ..لكنى أسمع جزء من رد أبى.

« البنية لسة صغيرة وهى لابسة بدلة رقص يعنى؟ ..ما هى لابسة لبس المدرسة» ..أتعجب من تحكم عمى وتدخله فى أمورنا الشخصية لكني لا أناقش أبي لأنه نسى الامر تماما بعد رحيل عمي وأخذ يسألني عن أحداث يومى فى المدرسة.

..اجتهد فى انتقاء أحسن القطع بالمحل وأحرص على أن تكون ذات ألوأن متناسقة فالفاترينة كما يقول الأستاذ "مصطفى".

« الفاترينة زي مدخل بيتكم تمام ..لونظيف الناس حتدخل عندكم.. أما لومش نظيف العريس يطفش «.

ويتبعها بقهقهة طويلة ..رغم مزاحه الذي يتجاوز الحدود أحيانا إلا أنه رجل مهذب يحترمني ولم يسبق أن ضايقني كما أسمع من بنات يعملن فى المول ويشكين من تجاوزات أصحاب المحلات معهم.. أنتهى من تغيير ملابس المانيكانات وأضع أكسسوارات مناسبة فتصبح ملكات جمال متوجات متخشبات على أوضاع مسرحية مرسومة بعناية ..أقلد أحدى الحركات المفتعلة لهن ثم أفاجأ بخبطات على الفاترينة ..أفزع وأسمع ضربات قلبى تتسارع ثم أرى "مني" التي تعمل بالمحل المجاور

وهى تضحك بشدة ..تحرك أصابعها حول رأسها مرتين لا أميز جيداً ما تقول إلا آخر جملة «ربنا يشفى».. أفتح لها الباب فتدخل وتلثمني مرتين وتدخل معها رائحة العطر القوية.

وألحظ مبالغتها فيما ترتدى وملابسها الضيقة التي لا علاقة لها بقطعة القماش التي على رأسها ..تدفعني بكتفها فى مرح .

«إزيك يا بت ؟» لا أحب هذه الطريقة الفجة فى المزاح لكني أحاول أن أفهمها ذلك بتعاملي معها بتحفظ فلا أريد خلق عداوات ومشاكل وأحاول أن أتجنب ألسنة بنات المحلات التي لا ترحم ..تتجه للمرآة فى حجرة تغيير الملابس وتتأكد من أن أحمر الشفاه لم يذوب بعد وتشير للبلوزة القصيرة التي ترتديها وتسألنى «حلوة دي ؟»..أهم بالرد لكنها كالعادة لا تنتظر رداً ..»فتقاطعني وتكمل أنها أبتاعتها بالأمس من أحد المحلات الكبيرة وتنظق الاسم الأجنبي بصعوبة وتكمل أنها لم يعجبها ذوق المحل لانه «بلدي أوي» لكنها ابتاعتها بمبلغ زهيد ثلاثمائة جنيه فقط..أضحك فى سرى وأنا أدرك أن كلامها لا يحمل من الصحة سوى أول جملة فقط «أنها أبتاعتها بالامس» وما عدا ذلك كذب كالعادة ..أسمع باقى حديثها مندهشة..لماذا تصرعلى الكذب بصورة دائمة هكذا فأنا أعلم حقيقة مستواها المادي ليست بمن يجسر على شراء بلوزة بمرتب نصف شهر وبالمنطق كيف من الأساس تعمل بائعة لوانها لا تحتاج لمرتبها كما تدعى لا أجد ما أقول فأضحك وألفت نظرها إلى ضيقها المبالغ فيه ..تلتفت لى بغتة وترد:

« يا بنتي أنتي شغالة فى مول شيك مش فى بلدك لسه ..زباين آخر شياكة بيدخلولك لازم تبقي زيهم ..» .ثم تنفعل « دي ضيقة بالذمة ..بلاش

عقد صعايدة والنبي» ..أسكت قليلا وأفكر فى الرد لكني اؤثر الصمت علّها تصاب بالملل وترحل فليس فقط لاننى لا أحب التواجد معها إنما أيضاً لأنها لا تحمل معها سوى المزيد من العطلة ..تقلّب فى الملابس المعروضة وتنظر لى.. اتشاغل بشيء أفعله فتمضى ناحية الباب وتحيني وترحل أرد عليها بهمهمة سريعة وأهرع كى أمسح المحل بسرعة.

أذهب للمكتب الصغير وأخرج كتاب المحاسبة أحاول أن استوعب محاضرة الأسبوع الماضى فغداً ميعاد محاضرة التعليم المفتوح ولابد أن أنهى الدرس السابق اليوم لأسأل المحاضر عما لا أفهمه وإلا فلن تكون هناك فرصة أخرى.. يا معين يا رب ..أفتح الصفحة وابدأ فى الاستذكار.

ثم اتذكرفجأة «دادة عفاف» فأغلق الكتاب وأنهض مسرعة وأتناول الجرائد من الحقيبة وأدير لافتة « مغلق»؛ أنظر للساعة وأحث الخطى فى تلك المشية المسرعة التي تعودتها فى بلدتنا ب»سوهاج» كى أتقى حرارة الشمس اللاهبة فى أيام القيظ الشديد والتى تسخر منها «منى» وتلقبنى بالشاويش «أمل»..أجد فيها سرعة وانطلاق تساعدني عليها الجونلة الواسعة التي أحب ارتدائها ..أفتح باب الحمام وأجدها كما توقعت نائمة، اتنحنح قليلاً فتستيقظ على الفور وترد تحية الصباح وتسألني عن سبب تآخرى اليوم فأسألها عن صحتها وعن قدمها التي مازالت متورمة.. تهم بإزاحة قدمها عن المقعد الصغير لأجلس فأمنعها بإشارة من يدي وأعاتبها على عدم انتظامها فى تناول الدواء ..تقسم أنها تواظب عليه فأحثها على أن تذهب إلى طبيب آخر متخصص فى مثل تلك الامور... تعيد ربط الطرحة السوداء وهى تربّت على كتفى «متحرمش منك»وتذهب بالحديث بعيداً فأناولها الجرائد معتذرة عن عدم تمكني من قرائتها معها

اليوم لعلى استطيع الاستذكار قبل مجيئ الأستاذ «مصطفى» أخبرها أنه بالتأكيد هناك مصائب جديدة ..كوارث جديدة..حوادث فساد جديدة. ..

-»على رأيك يا بنتي الحاجة الوحيدة إللى بتتغير هى الأسعار كل يوم فى الطالع..غير كدة مافيش خبر حلوفى أيامنا إللى ما يعلم بيها إلا ربنا دي «..

« كل حاجة يا دادة بتغلي إلا إحنا ..سعرنا بقى فى التراب ..سوقنا أنضرب من زمان»..

أودعها وأعدها بالمجيء مرة أخرى فى ميعاد الغذاء، تسألني عن سكني الجديد وأحوإلى فيه ..فأعدها بالثرثرة عنه فيما بعد.. اتركها مع الجرائد وأهرع خارجا اتوجه ناحية المحل.

مازلت أندهش حتى اليوم حين علمت أن دادة «عفاف» حاصلة على الثانوية العامة ..لكني لا استطيع أن أصدق أنها كانت تقرأ للكتاب الذين تحدثت عنهم ..جزء منى يميل للتصديق فحكمتها ليست كحكمة الشيوخ المعتادة أرى فيها جزءاً من أبي وحكمته رغم أنه لم يكن متعلم.. بها مسحة من عمق التفكير كنت أتعجب منها وأرجع الامر لخبرتها الطويلة.

أصل مرة أخرى للمحل وأبدأ من جديد فى الاستذكار؛ أحاول أن أعصر خلايا عقلى كي أشحذ قليلاً من التركيز وألملم شتات تفكيرى المبعثر فى حجرات رأسي ..لحظات واندمج تماما مع الدرس لا أسمع سوى صوت الموسيقي الهادئة القادمة من الخارج والتى تسرى فى أنحاء المول كله.. ممتزجة بصوت خافت للموسيقي الصاخبة الحديثة التي تسمعها "منى" بالمحل المجاور.. أقلب الصفحة تلو الأخرى أحاول أن أسرع لاستذكارالأجزاء السهلة كى أترك ما لا أفهمه لأعيد قراءته ليلا فى

الدار ..

تمرساعة وتأتى أحدى الزبائن تبدأ فى تقليب نظراتها فى البضائع أغلق الكتاب وأقف بجوراها وأسألها العبارة المعتادة:

« حضرتك بتدوري على حاجة معينة ؟» ..تهز رأسها نفيا « بس بأتفرج « أتنحى جانبا لاتركها على حريتها اتأملها قليلا بملابسها التي تشي بذوق مرتفع و ثمن مرتفع أيضاً..أنيقة وجميلة تسمع صوت كعبيها على الأرض الرخامية بدقاته المنتظمة

« طيك .طوط !» ..تتجه ناحية صف البلوزات تمرر أصابعها على الشماعات ..اتوجس قليلاً عندما أراها تتفحص البلوزة التي أتمناها؛ تخرجها من الصف وتبدأ فى تقليبها بين يديها ..يسقط قلبي فتعجز الضلوع عن الإمساك به حين تتجه بها إلى حجرة تغيير الملابس ..لكنها لا تغلق الباب بل تكتفى بالنظر إلى المرآة حتى ترى شكل البلوزة عليها خارجيا وترى هل يتناسب اللون مع لون بشرتها الخمرى الجميل ..لعلها شمس شرم الشيخ أو الغردقة أو ربما شمس مكان آخر خارج البلاد صاحبة الفضل فى هذا اللون البرونزي.. أحاول أن استشف أى إشارة فى ملامحها الجامدة لكني لا أرى أى تعبير، لا ألمح فى عينيها اعجابا أوكراهية لها .. فجأة يدق جرس هاتفها الخلوى فتخرجه من حقيبتها وما أن ترى الرقم حتى تسرع بالبلوزة إليّ أفزع حين أدرك أنها تود شرائها ..لكنها تناولها لى بسرعة وهى تقول « ميرسي « وتهرع خارجا للرد على الهاتف ..أبتسم بقوة وأمنع نفسي من الابتسام «العفويا فندم ..أى خدمة !»

..أعيد البلوزة إلى مكانها وأحاول أن أضغط عليها بالشماعات الأخرى..يارب لوكنت استطيع شرائها الان بدلا من هذا الانتظار

والقلق.. أعود مرة أخرى إلى المكتب وأحاول استعادة تركيزي وأفكارى المشتتة بين شماعة مخبأة وأمى فى البلد وأختى ومشاكلها التي لا تنتهى مع زوجها ..

ينتهى أبى من صلاته ويدعولي بالتفوق الدائم وحديثه معى بعد أن ينهى صلاة العشاء «عارفة يا أمل ..بكرة لما تبقي دكتورة حأبيع فدان أرض وأفتحلك عيادة فى المركز» ..أضحك فيضمني له « بس انتي شدي حيلك وخدي الثانوية وأنتى تشوفى».

أجاهد للسيطرة على جواد أفكارى الهارب فى وديان الخيال البعيدة وإذ بخطوات أعرف صاحبها تفتح الباب فأقف وأحيى الأستاذ «مصطفى» وأخفى الكتاب فى الحقيبة وأخرج من خلف المكتب يسأل عن أحوالى وأحوال الجامعة.

«إيه أخبارالجامعة المفتوحة ..لسه مفتوحة؟»

يقولها بطريقته السريعة المتلاحقة حين يريد إظهار اهتمام غير موجود ولا يعنى سوى مجاملة ..أضحك واتمتم بالحمد لله ..ثم يتساءل عن أحوال العمل ويثنى على تنظيم واجهة المحل وذوقى الرفيع.. يبدأ فى مراجعة الحسابات فأقف بجوار النافذة الزجاجية وأستند عليها برأسى بقوة بعد أن ضاع كل أمل لى فى استذكارالمحاضرة .وأوبخ نفسي على ضياع الوقت الثمين فى الشرود.

عفاف «٢»

يسود صمت جميل وأنا اتصفح صحف الصباح وإذ بصخب مفاجئ خلف الباب ..ينفتح باب الحمام بعنف وتدخل أحدى الزائرات.. سيدة شابة فى مقتبل العمر تجرّ خلفها طفلاً صغيراً يصرخ خلفها وملامحها الجميلة يشوبها الغضب حتى ارتفعت حواجبها المرسومة فى شكل ثمانية ..دلفت للداخل فلم تلحظ وجودى.. تقف أمام المرآة الكبيرة وتضع حقيبتها ومشترواتها على الرخام بين الأحواض ثم تلفتت إلى طفلها الصاخب الذي يصرخ دون دموع فقط يغرقنا جميعاً فى بحر من العويل المستفز ..تبدأ فى نهره فى غضب شديد وتوبخه بعبارات أجنبية يتخللها ألفاظ عربية لا استنتج منها سوى كلمات قليلة ..

- «بس ولد ...مش حاجيبك تأني معايا» ..يزيد من صراخه العالى الخالى تماما من أي احساس حقيقي، فتعود لتخبره شيئاً آخر لا أميز لغته ولكن يبدوانها تهدده بحرمانه من شيء ما كما تتوعده بمدّ اصبعها السبابة أمام وجهه فيستمر فى هيجأنه ويضرب الأرض بقدميه ولا يهدأ إلا حين تفتح حقيبتها وتخرج قطعة من الحلوى تعطيها له فيصمت فجأة وكان شيئا لم يكن! ..أندهش من تركها طفلاً صغيراً هكذا يتمادى ليصل إلى هذه الدرجة من الإبتزاز.

.تستدير للمرآة وتتنهد قليلاً وهى تغمض عينيها ثم تقول له « خليك هنا

« ..تلتفت ناحية جانب الحمامات فترانى على مقعدى ..أحييها بهزة رأس فتعبس ملامحها للحظة -لعلها لم ترد أن يراها أحد وهى فى صراعها مع إبنها؛ تعبر بجوارى فاستنشق عطرها الجميل وتدخل أحدى غرف الحمام وتغلق بابها بعنف

..تخرج أم الطفل وتعود أمام المرآة ..فيتراجع ليلصق ظهره بالحائط وتبدأ فى رفع شعرها الطويل الناعم الجميل الذي صبغت بعض خصلاته بلون ذهبى.

أتوجه للمرآة البيضاوية- الموضة فى ذلك الوقت-أفرد شعري الأسود الفاحم خلف ظهري وأمشطه ببطء ..هواء المساء يحرك الستارة بغرفة النوم بشقتنا القديمة فيصل إلى ليطير خصلات شعري فتغطي نصف وجهى ..أعيده وأمشطه من جديد وأرى فى المرآة أبو "محمد" -قبل أن يأتى محمد؛ يبتسم بزاوية فمه كعادته ويقترب منى ليقف بجوارى ويتحدث إلى صورتي فى المرآة ويغمض عينيه ويقرض بيتًا من الشعر لم أفهمه وقتها ..أضحك فيضحك معى.

تتأمل وجهها فى المرآة بعد ما رفعت شعرها؛ طفلها غير المهذب مازال ينظر لى بوقاحة، يأتى بحركات بوجهه مقززة ويبرز لى أسنانه ليهددني! تراه فى المرآة وتلمح نظرتي له فلا تأتى بأى فعل ..

كنت حازمة فى تربيتي ل«سهام» و«محمد» فكنت لا أتهاون مع أي خطأ يصدر منهم حتى كان أبو"محمد" يدافع عنهم أحيانا.

«مش كدة يا "عفاف" لسه مدخلوش مدرسة..الرسول بيقول «لاعبوهم سبعا ..أدبوهم سبعاً وصاحبوهم سبعاً ثم أترك لهم الحبل على الغارب».

«عارفة يعني إيه الحبل على الغارب يا "عفاف"؟ أهز رأسي نفيا

فيبتسم ويشرح لى.

.تمرر يدها تحت عينيها وتضع سائلاً من نفس لون بشرتها تخرجه من علبة طويلة وتوزعه بدقة تحت جفنيها .. تستدير مرة أخيرة على كعب حذائها الطويل الرفيع ..جسدها رشيق مشدود يتيح لها حركة كهذه دون أن ينكسر الكعب ..تتأمل شعرها فى رضا تتناول حقيبتها ومشترواتها وتجر طفلها من جديد فيتبعها وهويهز كتفيه بطريقة مبتذلة تمر بجانبي فتلقي فوق الجريدة ورقة مإلية دون أن تنبس ببنت شفة ولا تنظر باتجاهى ولا ينس طفلها وهويعبر من الباب أن يخرج لسانه مرة أخيرة.

أدس الجنيه داخل أحد الجيوب ..فى بداية عملى كنت اتحرّج من أخذ البقشيش واتذكرفى أول عملي فى المول عندما كنت أصادف إحدى الزوار التي تناولنى البقشيش بهذه الطريقة المهينة كنت أغضب جداً وأشعر بالمهانة ..لكن تدريجيا علمتني الظروف التعامي عن هذاوطلبات «أميرة» و»عبده» أجبرتنى على ألا تضايقني مثل تلك الأمور، اقتنعت فى النهاية بأن « اللى يجي منهم أحسن منهم».

أنهض لأجفف الأحواض مرة أخرى كما فى التعليمات كى تظل نظيفة جافة لمن يأتى بعدها ..أعود لمكاني وأقرأ فى جريدة أخرى خبرا « توفير مليون فرصة عمل لشباب الخريجين» ..فأغلق الجريدة بعنف.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تدخل مجموعة من الفتيات معا حوالى ستة أوسبعة يتبادلن الضحكات والدعابات ..تعبرن أمامي تلقى أحداهن التحية فأرد بأحسن منها تتوقفن أمام المرآة دون الاستغناء عن الكلام والمزاح الذي يعقبه ضحكات طويلة..أحاول أن أفهم مزاحهن لكن لا أعلم ملابسات ما تتحدثن عنه

فرغم أن «سهام» فى مثل عمرهن إلا أننى فقدت كل الصلات بعالم الشباب لم أعد أفهم مفردات هذا العالم الصاخب البعيد.. حتى كلامهن العادى الروتينى أصبح طلاسم بالنسبة لى.

تسأل أحداهن ذات الشامة على وجهها

-» العصر اذن يا جماعة ؟» ..لا تجد ردا يأتيها فصديقاتها منشغلات بالحديث مع واحدة منهن عن عرس حضرته وتصفه لهن..تلتفت لهن وبمرح تدفع أحداهن..اتنحنح قليلاً ثم أرفع صوتى وأرد عليها -» أيوة يا بنتي أذن من شوية «

..لا يصلها صوتي لصخبهن المرتفع إلا أن واحدة منهن سمعتني فأدارت رأسها ..وأخذت تنظرلى نظرة بلا معني ..تلمح الجرائد على المقعد بجوارى فترفع حاجبيها وتعيد النظر لى مرة أخرى بفضول .. تلتفت لصديقاتها مرة أخرى وترد على الفتاة - «أيوة أذّن».

.تلتفت للأخرى التي تروي لهم تفاصيل العرس

-» وبعدين كانت لابسة إيه ؟ والتورتة كانت كام دور؟»

..تتجه الفتاة ذات الشامة لتتوضأ وهى تتابعهن بنظرها وتشاركهن ابتسامتها

يتمتم أبو "محمد" بدعاء الوضوء ..أناوله المنشفة فيخفى بها وجهه ويقترب من "محمد" ليفاجأئه ..يضحك محمد ضحكته الطفولية المرتفعة ويهرول مترنحا فى أنحاء شقتنا القديمة ..فينطلق خلفه "سيد" وهو يصدر صوت قطار ليدورا معاً حول مائدة الطعام «تووووووت توووت ..تشش تش» فتزداد ضحكات "محمد" الجميلة ويتجه ناحيتي ليتشبث بملابسي يختفى خلفى من أبيه يدفعني قليلا فأمسك

ببطني المنتفخ وأحاول ألا اجعله يصطدم به ثم ينطلق فى اتجاه حجرة الصالون ..يداعبه والده- «حاسب أخوك نايم حيصحي» مشيرا إلى بطني المنتفخ ويستمر اللعب بينهم.

أنتبه على ضحكة عالية من إحداهن تقول لصحابتها:

« دة أنتي ولا الحما يا «يارا» إيه يا بنتي دة أنتي خلتيها عفريت مش عروسة !» ..ترن ضحكاتهن المرحة فى أنحاء الحمام فأبتسم لضحكهن.. ترانى إحداهن وتبتسم هى الآخرى ..ثم تلتفت إلى صديقتها الآخرى التي أخرجت إصبع أحمر شفاه لونه بني.

-»حلو أوي الروج دة ..جبتيه منين «

أول يوم رآني فيه أبو «محمد» أصبغ شفتاي بأحمر الشفاه فأخذه من يدي وأزاحه بعيدا «أنتي أجمل من غير أى حاجة يا عفاف» فى تلك الأيام لم يكن هناك سوى أحمر الشفاه أحمر اللون كما اسمه، اتعجب فعلاً من تلك الألوأن الجديدة ..سبحان الله اسمه أحمر شفاه ولونه بني!..تتجه الفتيات ناحية الباب تدفعهن أكثرهن مرحاً وهى تسألهن الغذاء أولا أم فيلما فى السينما.

ترد واحدة:

- «لا نتغدى الأول أحسن حاموت من الجوع ..بعدين افضحكوا»

..يضحك الجميع ..تتمهل الفتاة ذات الشامة وتتأمل نفسها فى المرآة مرة أخيرة؛ تتجه ناحيتي وهى تعبث بحقيبتها.. «شكرا يا دادة» تقولها وهى تدس بين يدى المضمومتين جنيها وتختفى خلف الباب.

أتأمل الجنيه بين يديّ.. أشعر بالغصة عندما تمد فتاة فى عمر ابنتى

بحسنة إلى ..أقوم لاتوضأ لعل الماء يغسل ما علق بالروح من شوائب.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أمر وأنا عائدة من المصلى سريعاً على المحل الذي تعمل به "أمل" أجد لافتة مغلق للصلاة وألمحها خلف المكتب تنهى صلاتها ..أنتظر قليلا ..ثم ألوّح لها بيدى فتحيني بإشارة ..أمضى وأشعر بألم شديد بقدمى، أحاول أن أجعل الوزن على القدم الآخرى ..أمر بطريقي على الكافيتريا ذات الاسم الأجنبي الذي لم التقط منه سوى كلمة كافيه « أجد مشهدا غريبا بعض الشيء ..أرى فتاة وشاب يجلسان على طاولة الفتي يرشف العصير مع فتاته التي تدخن الشيشة! ..أفرك عيناى وأدقق النظر مرة أخرى فأتأكد حقا أنها التي تدخن وليس الشاب أضحك رغما عني وأعود للحمام ..

«وهوقاعد جنبها بيعمل إيه ؟..بيهوي على الفحم! لما هى تشرب شيشة هويعمل إيه؟»

أدلف للداخل وأرى سيدة تجلس فوق مقعدى وتعيد ربط حذائها.. أقف بعيداً قليلا واسند ظهرى إلى الحائط ..أتوكأ على ساقي اليمنى.. تطيل جلستها وتخرج هاتفها المحمول ..تؤلمني قدمي بشدة لكني لا اجرؤ على استئذانها ..تطلب رقماً فأحسب أنها ستتحدث وهى جالسة فأغمض عيني ثم اتأمل قدمي وأصابعي التي تظهر من الرباط الضاغط.. وفجأة تنهض وتتجه للباب .

- «أيوة يا رأفت ..السواق لسه ماجاش لحد دلوقتي» ..تخرج فأسرع إلى المقعد وأتهاوى عليه وأرفع قدمى لأفك الرباط عنها أشعر بنبض قلبى ينبعث من كل خلية بساقى أتذكر قول الطبيب الشاب فى المستوصف

بجوار المنزل.

«لا يا حاجة متقلقيش ..دة عشان عندك سكر ..عادى بس إدهنى المرهم وهى خلال اسبوع ترجع زي ماكانت» يناولني روشتة وهو ينظر لساعته، تسأله سهام «بس دي مبتعرفش تنام بليل من الوجع» ..يزفر زفرة طويلة ثم يعاود «ما قلنا عشان عندها السكر هى تأخد الانسولين وتدهن المرهم دة».

أشعر أنه لا يفهم جيداً كما تقول «سهام» ..لكن لا يوجد أمامي سواه فالمستوصف لا يحمل إختيارات أخرى؛ ينفتح الباب فتدخل "منى" التي تعمل بمحل الأكسسوارات وهى تدفع الباب بقدمها وتعيد وضع قرطها الذي يتدلي من طرحتها ذات الربطة الغريبة وتحيينى ثم تعيد دندنة تلك الأغنية، أتناول الجريدة وأتصفحها وأختلس النظرات لها ..ترانى فى المرآة ..وتضحك ضحكتها المائعة.

- «هى هى ..إيه دة ..جرنان يا دادة مرة واحدة..إيه فى صور ولا حاجة؟»

..أكتم غيظى ولا أرد.

تعيد وضع الكحل السائل حول عينيها رغم كثافة الطبقة الأولى وتزيد كذلك من كثافة طبقة الروج وفى كل لحظة تنزل بلوزتها القصيرة التي ترتفع سنتيمترات عن حافة سروالها الضيق ثم ترتفع من جديد لتنزلها بأطراف أصابعها مرة ثانية!..تمر من أمامى.

«سلام يا دادة ..ماتنسيش تتسأفى كويس»

..يمر الوقت وأشعربالوحشة تعصر ضلوعى وأفتقد "أمل" حيث تآخرت فى المجيء اليوم.

على «٢»

يكثر الزوار من ارتياد الهايبر ماركت من بعد الواحدة ويزداد معهاعدد العربات التي تدخل المول ويدفعها الزبائن ..فتهمس ميرفت:

- «الطوفان هيبدأ يا فتاح يا عليم»

..أقرر أن أصلى الظهر الآن قبل أن يأتى كل هؤلاء لدفع ثمن مشترواتهم..أخبرها أني سأذهب سريعا للصلاة ولن اتأخر.

..أدفع جسدي أمامي وألهث وأنا أجاهد لزيادة المسافة التي تقطعها ساقيّ فى كل خطوة ..أشعر برجرجة جسدى المترهل فأزداد كراهية لذاتى أكثر ..أدفع الباب بقوة فيصطدم بزميل ..

- «إيه يا عم «علي» ماتفتح ..حاتيجي تفرد عضلاتك عليا»

..أعتذر وأخلع حذائي ..أنهى صلاتى وأرحل سريعاً وأعود لمكان الكاشيرة لأجد «ميرفت» تلوّح لى بيدها بعصبية.

أجد صفاً من الزبائن و«ميرفت» تخرج بون أولهم ..فتاة شابة فى مقتبل العمر تزفر بضيق لكل هذا التأخير أضع مشترواتها القليلة فى العربة تبدأ فى الدق بحذائها الدقيق على الأرض لنفاذ صبرها.

- «يا لا بقي مش ممكن كدة».

..أهز رأسي وأناولها آخر الأكياس تسحبه بقوة وتمضى مسرعة أرى المدير يتفحص سير العمل كعادته أوقات الذروة ويمر على الكاشيرات فأجاهد كى أنهى التعبئة بسرعة حتى ينكمش هذا الطابور.

..أفتح كيس جديد للزبونة التالية سيدة مسنة فى نهاية الخمسينات من العمر ..بشرتها بيضاء متجعدة قليلاً وعيناها بلون حقل البرسيم فى بلدتنا التي لم نعد نزورها ..أفاجأ أنها أشترت طعاماً مستورد للقطط ..أضعه فى كيس بمفرده ثم أمد طرفى فضولا إلى سعره فأجد « واحد طعام قطط ٧٠ جنيه ..فرش قطط ٥٤ جنيها ..مستلزمات قطط ٤٣ جنيها» ..سيأكل هذا القط بما يعادل ما آكل وأرتدى به طيلة الشهر.

..أنظر مرة أخرى للسيدة علّها وحيدة وتتلمس فى هذ القط الونيس.. لتتبنانى إذن أن كانت تشعر بوحدة وساموء لها أفضل من أي قط!

..أناولها آخر حقيبة وأنا أبتسم فتمد لي يدها بالبقشيش وتضغط به على يدي لثانية واحدة.

أتذكر جارتنا التي كانت تهوي تربية القطط ..لكنها بعد طلاقها من زوجها وحرمانها من رؤية أبنائها أصيبت بحالة نفسية مخيفة جعلتها تقوم بتعذيبها.

أعود من المدرسة وأرتقي درجات السلم ..أمر أمام منزل جارتنا وأسمع صوت مواء القط الطويل الرخيم الذى يجعل جسدى يقشعر.. يعقبه صوت خرفشة على باب الشقة، يبدوان القط يستميت من أجل النجاة بعمره من هذا الجحيم لكن ما يلبث الباب أن يصطدم بقوة بشئ ما يعقبه صراخ جارتنا الذى تعودته وكما أتوقع ينتهى دائما بتلك الضحكة العصبية..أندهش كيف يظل القط حياً طيلة هذه الفترة ..

فحقاً القطط «بسبع أرواح».

يبدأ طابور الزبائن فى الإنتهاء شيئاً فشيئاً؛ تمسك "ميرفت" برأسها من الصداع وتتناول قطعة من اللادن تمضغها بسرعة شديدة ..بعد أن تنتهى من تسجيل بعض المشتروات وبينما أعبئها داخل الأكياس تهتف الزبونة الواقفة أمام ميرفت أنها تريد إرجاع بعض العلب..أنظر ل"ميرفت" فأرى ملامح ساخطة تخطواولى خطواتها على وجهها الأسمر لتكرار مثل هذه المواقف ..وتخبرها أنها لا يمكن إرجاعها بعد أن سجلتها على الحاسب الآلى.

تغضب الزبونة اكثر وتردد أنها لن تبتاع شيئا لا تريده تحاول "مرفت" اقناعها بصعبوبة إصدار بون جديد لانه يتم مقارنة البون بالبضاعة المصروفة وفى هذا أذى لها تعاود الزبونة اعتراضها بصوت أعلى يجذب أنتباه المدير.

..يفهم المشكلة سريعا فيشير لـ"ميرفت" أن تقوم بإخراج بون جديد ويضرب على كتفى مشجعا ..»شد حيلك يا على» ..أندهش لمعرفته اسمى رغم أنه لم يرني سوى مرات معدودة ..تسحب ميرفت البون القديم وتضعه فى درج المال وتبدأ فى تسجيل بون جديد وهي توشك على الانفجار غيظا.. لا أدري هل تفتعل أزمة أم أنه كان صعبا حقاً أن تخرج بون جديد ..ألتفت للزبونة فألمح ضحكة الانتصار وكانها أنتصرت فى معركة عمرها فأضحك رغما عنى واتابع «مرفت» وهى تضرب بأصابعها ضربات قوية على لوحة المفأتيح فتصدر صوتا رتيبا « طك ..طك..طك»

أمي تجلس خلف ماكينة الخياطة القديمة التي بدأت أجزاؤها تأن وتخبرنا بشكواها « تككك تك» ..أجلس بجوارها

- « عملت إيه النهاردة فى المدرسة؟..حد ضايقك تاني؟»

..أهز رأسي نفياً ثم أسارع بإخبارها

- « جارتنا شكلها معذبة القط جامد النهاردة»

- ...تضم أمي شفتيها

- « والله ربنا يستر .. مالناش دعوة..الست معذورة»

- ..تروي لي أنها كانت تعانى من خلل عقلي بعض الشئ قديماً ولهذا طلقها زوجها وأخذ حكم بحضانة الأطفال..مما أدى إلى تفاقم هذا الخلل ثم تنهى حديثها بعبارتها الخالدة «..كانت ست طيبة زمان. يا خسارة»

..تكمل الخياطة ثم تستكمل:

- « الواحد بس خايف..القطط دى أصلها ساعات بتكون بسم الله الرحمن الرحيم» تقولها وهى تضم اصابعها وتدور بها حول رأسها ورأسي .

-.«لوالقط من دول غضب ..ربك هو اللي يحمي ..أحسن غضبهم بيبقى وحش أوي».

..تنهض لتعد لي الغداء فأنكمش عند سماع مواء القط من جديد وأرتجف رعباً.. أنادي على أمى همساً لكنها لا تسمعني من صوت طرطشة الزيت وهى تقلي فيه الباذنجان.

. يستمر العمل وابدأ فى اللهاث بعد ساعة كاملة من التعبئة دون أن أرفع رأسى عن البضائع ..يقل حجم الطابور تدريجياً فأتنفس الصعداء؛ يأتى الدور على رجل فى الثلاثين أوالأربعين من العمر يتحدث بهاتفه المحمول أبدأ فى تعبئة مشترواته بوضع الألبأن أولا ثم أتناول عبوة كبيرة من المسحوق وأجاهد كي أفتح الكيس بإليد الآخرى الحرة ..تنزلق

العبوة من يدي لتسقط على الأرض فأرفعها من جديد وأتأكد من سلامتها ..أسمع فجأة رد الزبون:

-» ايه يا بني ادم أنت ده ..؟ أنت غبي!»

..أصعق لهذه الإهانة وأردد:

-» العلبة سليمة حضرتك محصلش حاجة»

..يرد بغضب مضاعف:

-» محصلش حاجة إيه وقرف إيه ..أنا عارف التيران دي بيشغلوها ليه»

..أكاد أحترق من كم الإهانات التي اتلقاها فوق رأسي على مسمع ومرأي من الجميع ..يمضي الزبون غاضباً وهومازال يصب لعناته التي لم أعد أسمعها لصوت الصفير الذي غزا أذني من الغيظ ..أتناول مشتروات الذي يليه وألمح نظرة "سماح" وضحكتها الخفية التي تجاهد كيلا تبرزها فبالكاد أمنع دموعي من الانهمار لتغرق المول بمن فيه ..استمر فى العمل وأنا فائر ..تهمس ميرفت لى ألا أعر ما جرى اهتماما.

أهز رأسي بلا معنى وأنا أرى المدير مازال يتابع العمل وقد رأى هذا الموقف فأتمتم..» ربك هواللي يحمي أحسن غضبهم بيبقي وحش أوى»!

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أنتهى من آخر زبون ..يبدأ ضغط العمل فى الفتور فى هذه الساعة حيث الكل مشغول بالغذاء ..

أذهب لأعيد ترتيب العربات وأعيدها فى صفوفها المبعثرة بعد أن

أتى بها أحدهم من الجراج ومن خارج الهايبر ماركت ..استرق النظر إلى الكاشيرة لعل أحد الزبائن يأتى ..لا أرى أحدا فأعود للترتيب من جديد ..يأتى "كامل" ليسأل أن كنت سأتناول معهم الغذاء..أهز رأسي نفيا وأعتذر لأنني استأذنت بالانصراف مبكرا اليوم.

يبتسم وكعادته يضربني على ظهرى ضربة تجعلني استند على أحدى العربات ..أريد أن اجعله يتوقف عن هذه العادة فكف يده يهوى على ظهري كمطرقة حديدية ..لكني لا أجرؤ على ذلك فهوصديقي الأقرب ويكاد يكون الوحيد بالمول ولكل طريقته فى المزاح وإظهار مشاعره.

أتجول قليلاً بين أنحاء الهايبر ماركت القريبة من الكاشيرة ..اتفحص المعروضات لأرى أن كان هناك بضائع تحتاج للترتيب فى الجزء الخاص بي ..تسري فى أنحاء الهايبر موسيقي أغنية فيروز «طير الوروار» ..تلمسنى من الداخل فأتوهّج قليلاً بتأثيرها ..اتناسى قليلاً التفكير فى أى شيء عدا الأغنية البديعة.

« دخلك يا طير الوروار»

أشعر أنى طير الوروارالذي تغني له «فيروز» لكني طير وروار يعاني من سمنة مفرطة.. لم أر فى حياتى طائرا سمينا فكيف أقارن نفسي به؟ ..

«رحلك من صوب المشوار»

فعلا المشوار طويل جداً وأنا مازلت فى أوله ورغم هذا تعبت .. دائما أتعب سريعا.. متى ينتهى المشوار وأرتاح .

. «وسلملي على الحبايب»

.. «سهام» تعود مبكراً من عملها ولا أراها إلا يوم الإجازة ..لوانى فقط استطيع أن أتحدث معها ولولربع ساعة ..

«وخبرني بحالهن شو صار»

..آه يا ست "فيروز" وكانك تتغني بحالى .. وبينما أناعلى حالة النشوة هذه بعيداً عن العالم ومشاكله إذ بالأغنية تنقطع وتنتهى لحظة المتعة لأسمع صوت الجرس المألوف يعقبه صوت "إيمان" الرخيم:

« على الموظفة «هدى» التوجه لمكتب الامن للأهمية «

..تكرر عبارتها ثم تعود مرة أخرى "فيوز" لتغني لكن لا أستطيع استعادة تلك الحالة الهادئة التي كنت عليها ..أجتهد لأشحذ قليلاً منها لكن بلا أمل ..بل أن صوت فيروز نفسه بدا وكانه تغير عن ذي قبل ..

أعيد تأمل المعروضات ..جزء من الملابس الحريمي والأطفالى.. اتوقف قليلا في القسم الرجالى أمام أحد الجاكيتات الجلد..

اليوم أكملت إدخار جزء من الراتب لمدة ثلاث أشهر ..أصل إلى وسط البلد فى سعادة واتفحص بعض المعروضات فى أحد محلات الملابس.

- «حضرتك بتدور على إيه بالظبط؟»

- «عاوز جاكت جلد اسود»

- «مقاسك ؟ صعب أوي بس حاشوفلك أكبر مقاس عندي»

..أتكئ على "الريون" وقد تيقنت أني كالعادة لن أجد مقاسى.

- «أنا آسف يا فندم مافيش مقاسك ..بس فيه حاجات تانية ممكن نلاقي فيها مقاسك غير الجلد».

..أمضي مبتعداً «لا خلاص متشكر»

أخرج من بين الممرات لألقي نظرة على الكاشيرة زبائن قليلين مازال بعضهم ينتقى مشترواته ..شخصاً قام بتعبئة مشترواته القليلة بنفسه .. أرى "مرفت" تبرد أظفارها وتثرثرمع "سماح" التي تفتك بأحد الشطائر

..تعاود بردهم مرة أخرى بعد أن تنفخ فيهم .. تشير لى من بعيد فأذهب إليها متضرراً تدعونى إلى تناول بعض شطائر الكفتة التي أبتاعتها فأعلن عدم رغبتي فى الطعام..أهم بالرحيل لكن تدخل "سماح" بطريقتها المتظرّفة ..وتعلق ساخرة وعمّا إذا كنت أحاول أنقاص وزني.

-»يسمع من بقك ربنا يا ريت الواحد يخس فعلا».

تكمل دعاباتها السمجة:

-»لا أنت ماينفعش معاك رجيم أنت مالكش حل غير عملية»

تتدخل "مرفت" لتخفف حدة الحديث خاصة أنها تعلم ما يشكله الأمر من حساسية لى

تتبادلان الحديث فأنسحب منهما أخيراً.

أشاهد إحدى الامهات تخير ابنها بين كرة خضراء وأخرى زرقاء فيحتار ثم يحتضنهما معاً..أبتسم لبرائته ثم أعود مرة أخرى للكاشيرة عندما ألمح أحد الزبائن ..تبدأ "مرفت" فى إعداد بون وأعبئ الأكياس وفجأة ألمح بطرف عيني طفلى السيدة يأخذأن من الشيكولاتة المستوردة ويضعانها فى جيوبهما ثم يعودان جوارها دون أى حركة..أندهش قليلاً وأنا أرى أمهما فى عالم آخر وهى تخرج مشترواتها غافلة تماما عما يفعله أبناؤها ..لم ير هذا المشهد سواي على ما يبدو..أتمهل قليلا فى التعبئة

سامح يخفى كشكول "عمر" فى حقيبته ..يتابع الأستاذ "شوقي" شرحه ثم يسأل عن الواجب ..نظهره جميعا، يمر علينا بعصا غليظة فى يده ..»عمر» بدأ فى البكاء وهو يبحث عن كشكوله فى حقيبته ..يسأله المعلم عن الواجب فيبكي من جديد ..يهوي المعلم بالعصا الأولى على يده فأسارع بأخباره بما رأيت ..يعاقب "سامح" ..واذ فجأة يمسكني من

رقبتي ليعاقبني معه!

- « أنت أكيد معاه ..ما أنا عارفك !»

وأتلقى تسع ضربات بالعصا الطويلة الرفيعة بينما يتلقى "سامح" خمس فقط!

تخرج الام حافظة النقود فيأخذ الطفلان العربة ويخرجان بها، أوقفهما بقدمى وأميل عليهما واهمس أن الأبناء نسوا أن يحاسبوا على الشوكلاتة معهم.

..تنتبه الام فيكاد الصغير يبكي خوفا تسأله الام مستفسرة ..يهمس لها ويريها ما فى جيبه فتتحرج الام وتمد يدها لتدفع ثمن ما أخذوه وتخاطبني أنا و"مرفت" التي لا تفهم ما يجرى.

-» عيال أشقيا ..مش قلنا نبطل الهزار دة يا ولاد!»

..تأخذ العربة بسرعة ويرمقنى الإبن الأكبر بنظرة كارهة

اتابعهم بنظرى لعلها ستعاقبهم فى طريقهم لكنها تمضى كان شيئا لم يكن ..تضحك "مرفت" بقوة وتتعجب من قدرتي على الملاحظة.. توبخني "سماح" على إحراج السيدة لان ذلك يحدث طيلة الوقت ولم هناك داع لذلك.

..تتسع عينيّي من الدهشة ..

- «! الله يمسيك بالخير يا أستاذ شوقي !»

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أمل «٢»

أتأمل المشهد من خارج النافذة المعتمة ذات اللون "الفيميه" وأتأمل جزء من الشارع الذي تظهر فيه العربات تمر الواحدة تلو الأخرى وأرى رجل الشرطة المجند أمام مدخل المول الجانبي يقف ليمنع وقوف السيارات أمامه ..أرفع عيناي إلى السماء الصافية التي يمر بها السحاب الأبيض الصغير فتختفى زرقة السماء للحظة ثم تعود من جديد ..لونها هواللون الوحيد الذي لم يقدر هذا الزجاج المعتم على تغييره ..بقيت زرقاء جميلة كماهى.

أبي يمسك بالفأس ليهوي بها على الأرض الطينية ..يخلخلها قليلا بين طبقات الأرض ويقلبها - «لازم الأرض تتهوي بعد كل محصول»

..تجري أختي بين الأشجار فألحق بها وتختفى خلف إحداها فألحق بها لأفاجئها فتصرخ وتجري ضاحكة ..نستمر فى اللعب ويتابعنا أبي بنظراته ..نتعب فنستلقي تحت ظل شجرة ونتأمل السماء الصافية.. تخبرني أختي التي تكبرني بعامين أن السحاب ليس سوى قطن أبيض اطلقه أحدهم فى السماء..أنهدش بشدة فتؤكد لي ذلك وتخبرني أنه لو استطاع أحد الصعود على هذه النخلة شاهقة الارتفاع ذائعة الصيت فى قريتنا لاستطاع أن يجلب بعضا منه

..أنظر للنخلة البعيدة العالية وأتخيل نفسي وأنا على قمتها اقتطف جزءا من السحاب وأعطيه لامي كي تغزل لي ثوبا بديعا لم يرتديه بشر سواي ..أسألها هل يستطيع «محمود» ابن عمنا أن يصعد هذه النخلة

التي يخشي رجال القرية تسلقها.

تصمت قليلا ثم تجيب

«محمود قصير وجبان» ..يفاجئنا "محمود" من خلف الشجرة

- « مين ده إلى جبان؟»..فنجري وهووراءنا بينما يضحك أبي من بعيد

اتأمل ملامحى السمراء فى الزجاج وألمح العبرات التي تسللت من مقلتيّ سرا وشقت طريقها على خدّي خلسة دون أن اشعر بها.. أسمع صوت خطوات تدخل المحل فأمسح دموعي المتسللة سريعا ..تدخل ثلاث فتيات مراهقات ..تتناول إحداهمن إحدى القطع .. جاكت أحمر مزيّن بأشرطة وخرز وترتر من كل الالوان ..

-»شفتي يا "ريم" الجاكت دة تلبسيه وتروحي السيرك !»

تضحكان بصوت عال وتأتى واحدة أخرى بقبعة خضراء من فوق أحد الحوامل المعدنية -» البسي عليها البرنيطة دي واضمن لك تأخدي وظيفة البلياتشو!»

اضحك فى سري لمرحهن والمح نظرة الاستاذ "مصطفى" المستاءة ..أحاول أن اجعلهن تنتبهن للمعروضات ..أخرج أحد السراويل الجينز وأريه لهن.. تحرك واحدة منهن يدها ..فترد أنها تبغي المشاهدة فقط.

أصعق حين أرى واحدة تحمل البلوزة التي اشتهيها وتخبر صديقتها أنها ذات لون جميل.

..ترد الأخرى :»جميل ايه يا شيخة ..دي بلدي جدا «

..أطمأن قليلا .. لكن تمتعض الأخرى وتحاول أن تقنع صديقتها

بجمالها لكنها تردد

« بلدي بقولك!»

..أسارع بالتدخل وأحمل قطعة لأريها للفتاة لعلها تتراجع عن رأيها وتترك البلوزة

وأعدد محاسنها كي تقتنع.

..تتأملها قليلا لكنها تصر على الأخرى ..أشعر بغيظ حقيقي منها وهى تتأملها من جديد ثم ما تلبث أن تناديهما صديقتهما الثالثة فتعيد البلوزة لمكانها وتلتفتان لأحد الأحزمة ذات الأجراس التي تمسك به الفتاة وتقول لهما.

- «باقي الطقم اهو ..الحزأم دة مع صاجات ويبقي المشهد خرافى!»

..تضحك الفتيات بصوت عالٍ وأرى الأستاذ "مصطفى" وقد ملأ وجهه السمين اللون الأحمر الغاضب ..ترمي بالحزام فوق إحدى الشماعات بلا مبالاة وتخرجن ليعود الصمت.

يغضب الأستاذ «مصطفى» ويعبر عن ضيقه من هذا الجيل الجديد الذي لا حد لاستهتاره ولا قيمة لشيء لديه ويعبر عن ضيقه مما يفعل بعض الزبائن حين يقلّبون البضاعة لمجرد الدعابة.

لا أجد ما أقول ..

- «معلش ..لسه صغيرين»

..يزفر بقوة ويكمل عمله ..أرتب الأحزمة من جديد واعيد ترتيب البلوزات كما سبق واتعمد أن اجعل بلوزتي الاثيرة الأخيرة فى المجموعة بجوار الحائط ..أحمد الله أنها لم تعجبها.

- «دي بلدي دي!»

..تمر الدقائق ويمر معها الزوار أمام الفاترينة الزجاجية يتأملنها من الخارج ..بنات صغار..مجموعة من السيدات ..رجل وفتاة تقنعه بإحدى القطع المعروضة ويعترض هوبشدة ويجذب فتاته ليبتعدا..ينظر الاستاذ «مصطفى» إلى ساعته التي تعدت الخامسة عصرا فيسمح لي بالتوجه للغذاء ..ثم يستدرك وينبهني ألا اتأخر عن ربع ساعة..أشكره وأتركه يكمل اعماله على شاشة الحاسب الآلى.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تسألنى دادة "عفاف» بلهفة عن سبب تأخرى فأتعلل بكثرة الزبائن اليوم..أخرج طعامي واشاركها إياه ..ثم أتناول إبرة الانسولين وأحقنها بها ..تتأوه وأنا أدرك أني لم اعتد مهارة الحقن أنتهى من الأمر وأنا أشعر أن الألم يخترق فخذي أنا الأخرى

أخرج الفول بالطماطم الذي اعددته ونتناول الطعام سويا ..وأبدي دهشتي من ازدياد تورّم ساقها مع أنها تواظب على تناول الدواء.

..تمضغ سريعا وتزدرد أسرع لترد:

-» ما هوالظاهر أن المستوصف الدكاترة اللى فيه مش شاطرين «

أسألها إن كانت تواظب على قياس مستوي السكر فى المركز لكنها تجيب بالنفى..تبتلع لقمة أخرى ثم تخبرني أنها لا تجد أي داع للقياس لأنه غالى الثمن وطالما لم يطلب منها أحد ذلك فى المركز.

أندهش واسألها أن كان الطبيب الذي يتابع حالتها لم يقم بقياسه ولا مرة فتضحك وتخبرني أنه لا يوجد طبيب يتابع حالتها إنما فى كل مرة

تجد طبيبا مختلفا وأحيانا لا تجد أي طبيبا على الإطلاق..لكنهم يسألونها إذا كانت تواظب على الدواء..فتصمت قليلا ثم تكمل أنها تحاولُ أن تواظب على تناول حقن الانسولين اذا ما كانت الامور المادية على ما يرام ولم يكن الأبناء بحاجة إلى شيء.

اسألها إن كان هناك علاقة بين مرضها بداء السكر وتوّرم قدمها..فتومئ برأسها جهلا

- «لا الدكتور قالى حتأخد وقتها وتروح ..نعمل إيه يا بنتي ما أنتي عارفة الحالة ماينفعش أروح لدكتور بره»

أسألها عن حال ابنتها «سهام» فتتنهد بقوة وتجيب:

« والله يا بنتي أكتر واحدة تعباني ..ماتعرفيش مبسوطة ولا زعلانة ..دايما ساكتة وتتكلم بالقطارة ..من ساعة ما عزلنا وهى كل سنة بتعدي علينا بتعجز معاها سنتين ..دي مكنتش مهمومة كدة لما مات ابوها من تلات سنين ..أكنه مات تاني»

اصمت قليلا ..فأنا أشعر تماما بما تحسه "سهام" ..فقد كنت متعلقة بأبي بشكل لا يتخيل ووقت وفاته قبل نتيجة الثانوية العامة اصابتني الصدمة ولم أصدق ..حتى عندما رأيت جثمانه يرقد على الفراش فى سلام وسكينة لم اصدق ..ظللت أباما بعدها أتخيل أنه كابوس وسأفيق منه واراه يفتح أحد الأبواب وهويغني كعادته.

تقضم قطعة أخرى من الشطيرة وتسألني عن أحوالى فى السكن الجديد فأخبرها أني لم أعد استطيع النوم فيه إلا بصعوبة بعد هذا المقلب.. تضحك طويلا حتى تدمع عيناها « والله دة حتة مقلب!» ..

-»الحمد لله برضه أهواحسن من اللى فات سعره مناسب والبنات اللى ساكنين معايا أحسن كتير من البنات إياها فى الدار التانية ..الحمد لله أني سيبتها على خير».

أخبرها أن الأستاذ «مصطفى « يرسل لها سلامه فتبتسم وتعقب أنه رجل ذو معدن طيب وحسن الأخلاق.. وأن الله قد أكرمني بصاحب عمل على خلق على عكس ما نسمع من تجاوزات الكثيرين مع عاملات بعض المحلات الأخرى.

يفتح الباب وارى "مني" تدخل تراني فتبتسم تلقي إحدى دعاباتها السمجة..أبتسم ولا أرد واتشاغل عنها بالطعام ..تنظر لي دادة عفاف وتراني أضغط بقوة على اسناني فتدير وجهها الناحية الأخرى كيلا تفلت منها ضحكة ..اتأملها تعيد ربط طرحتها بطريقة الاسبأنيش وتضع الكثير من الحُليّ فيها حتى لا أدري من أين تبدأ الطرحة وإلى أين تنتهى.

-»تحبي اعلمك السبانيش يا أمل؟»

..أهز رأسي نفياً فتسكت قليلا ثم فجأة أسمعها تهتف «قمر يأخواتى!!»..أرفع لها نظري باندهاش ثم أدرك أنها لا تعنيني بالطبع بقولها «قمر» إنما هى تتحدث لصورتها بالمرآة ..ما أن تخرج حتى أسرع بالحديث عن عدم راحتى إليها ..تبتسم الدادة قائلة:

« تاعبة نفسها عاوزة تبقي زي زباين المول .. رقصت على السلم لا عمرها حتغير جلدها وتبقي زيهم ولا هى عايشة عيشة أهلها وراضية باللى قسمه ربنا»

..أخجل من نفسي قليلا لعجزي عن تفهّم الضعف الإنساني كما فهمته دادة عفاف..كان المفترض أن أشفق عليها لا أن أبغضها ..فهى

تعانى من محاولتها البائسة فى تمثيل دور لم يكتب لها ..أدرك حقا أن هناك أناسا تخلق لنفسها مزيدا من المعاناة هم فى غنى عنها .. حقا هى ترتدي وتتحدث كزبائن المول لكنها نست أنها أبدا لن تصبح مثلهن فهى حاليا لا يتعدى كونها «مسخ» تتحدث فى عجز واضح بلغة غريبة على لسانها وتأتى بتصرفات لا تتوافق معها فتبدواقرب للمهرج ..

أعود مرة أخرى للمحل لأجد الأستاذ "مصطفى" يتناول طعاما صينيا ما أن يرانى حتى يهتف بطريقته المتقطعة المرحة:

- «الأكل الصيني دة منظر بس..حاجة توجع البطن!»..يقولها وهوممسك ببطنه ويزيحه جانبا ..»أنا اللى استاهل أسمع كلام بنتي ليه.. ماله الكباب؟!»

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تدخل إحدى الزبائن مع ابنتها ..تبدأ الإبنة فى تتفحص المعروضات أندهش لاسمها الأجنبي الذي تناديها به الام ..تتناول بعض القطع وتريها لامها وتسألها عن رأيها فتومئ رأسها بالإيجاب أريها قطع أخرى فتتأملها وتريهم لأمها ثم تعود لي وتخبرني أنها تريد شيئا جديدا لم تراه مكررا من قبل..أبتسم وأريها قطع أخرى فتعجب ببعضها وتذهب لغرفة تغيير الملابس لتتأكد من القياس ..تجلس الام على مقعد وأسألها إن كانت تبغي شراء بعض الملابس لها فتخبرني أنها لا تريد شيئا لها إنما تعبت من كثرة السير كي تبتاع ابنتها ملابس جديدة استعدادا لدخول الجامعة.. أبتسم لطيبة الام وأردد :» ربنا يخليهالك».

اتأمل ملامح الام التي تكسوها طيبة محببة للنفس ..ترجع بظهرها للوراء فتستند على ظهر المقعد

أمي تجلس فوق الأريكة العالية ..تثني إحدى ساقيها تحتها وتمشط لي شعري الطويل وهى تغني لي أغنية كنت أسمعها من جدتي قديما.. تبدأ فى تضفيره فأشعر أنها قاربت على الانتهاء من تمشيطه ..أتظاهر أن إحدى الضفيرتين قد انفرطت حلقاتها لتعيد تمشيطه من جديد.

تعاود الام حديثها عن ابنتها التي لا يعجبها أي شيء بسهولة وطلباتها التي لا تنتهى

تخرج الفتاة لتري أمها بعض الملابس.. ثم تدخل لتستكمل قياس الباقي ..فأناول الام عباءة مغربي مطرزة وأحاول أن اقنعها بشرائها..تتأملها وتفردها أمامها ..أرى بطرف عيني الاستاذ "مصطفى" يتابع ما يجري لحظة ثم يعاود عمله؛ تعجبها فتتأملها من جديد.. تمضي لقياسها بعد أن تنتهى ابنتها ..أضع مشتروات الابنة على الرخامة ليبدأ الأستاذ مصطفى بتسجيلها ..أحرر فاتورة وأضعها مع المشتروات فى كيس كبير عليه اسم المحل ..تخرج الأم وقد قررت أن تبتاع العباءة تتأملها الأبنة قائلة:

« الله حلوة أوي يا ماما ..شبه اللى طانط "ميمي" جابتها من الامارات »

..تسألني عن المبلغ المطلوب ..

-» كدة كله ١٨٥٥ جنيه».

أناولها الأكياس فتدس فى يدي خمسة جنيهات أشكرها بحرارة.. تدفع الام أبنتها أمامها وتحثها على الاسراع كيلا يتآخرا على والدها.

اتأمل الخمسة جنيهات وأدسها فى جيبي وأحمد الله « حلو كدة جتلنا ملزمة الإدارة من السما !»

أعيد ترتيب الشماعات والمعروضات من جديد؛ يتنحنح الاستاذ

«مصطفى» كعادته قبل أن يبدأ فى الكلام:

-» أنتي بياعة شاطرة بتعرفى تكسبي الزبون ..أهم حاجة فى البياع أنها تعرف تخلي الزبون يبقي عاوز يشتري المحل كله من غير ما يحس أنك بتجبريه وأنك بتحرجيه..عشان كدة أنت وحدك قايمة بشغل عشرة معاكي «

اشكره وأحمد الله على ثقته ..أتذكر "وفاء" التي كانت تعمل معي ولم تستمر سوى أسبوع لتأخرها فى المجيء..لأن الأستاذ "مصطفى" كان يحب الالتزام فى كل شيء ..يسألني إن كنت اشعر أني بحاجة إلى معاونة فى العمل ..أهم بالرد لكنه يكمل

« ولوان المحل صغير يعني ومافيهوش شغل كتير يتعب «

يقولها وهوينهض فلا أجد ما أرد به بعد هذه الجملة الأخيرة!

يخبرني أنه ذاهب للفرع الثانى من المحل ويسأل إن كنت بحاجة إلى شيء قبل رحيله

أخبره أن غدا ميعاد المحاضرات فى الجامعة وأني سأضطر للتأخير بما لا يزيد عن ساعة..ينظر للأرض قليلا ثم يوافق على مضض خاصة أن العمل لا يبدأ فى المول يوم الجمعة إلا بقدوم الزوار بعد صلاة الظهر.. أومئ برأسي ايجابا وأشكره بحرارة ..ثم أهرع لكتاب المحاسبة وأعيد الاستذكار ..أنظرللساعة مازالت الثامنة ..مازال أمامي أربع ساعات قد استطيع إنهاء استذكار المحاضرة.

عفاف «٣»

تسقط رأسي فأنتبه ..اكتشف أني غفوت دون أن أعي ذلك ..أشعر بالتعب الشديد والألم ينتقل من قدمي ليغزوساقي ..يزداد عدد الزوار ليلا ..الكل يدخل ويخرج اتساءل عما سيكون عليه الامر خلال إجازة الصيف ..اليوم اختبار "عبده" ..ترى أكان الاختبار يسيرا؟ .."أميرة" ستنتهى من اختباراتها بعد غد لتبدأ إجازتها الصيفية وكالعادة كل عام لن تجد من ينزهها فأنا لا أعود إلا بعد منتصف الليل و"سهام" تعود بعد العصر منهكة ولا تتنزه هى فكيف أطالبها بالترفيه عن أختها وهى لا تفكر حتى فى الترفيه عن نفسها.. لقد كفّت عن كل شيء تحب القيام به ..كفت عن الخروج إلا نادرا بعد إلحاح مني وتوسل من صديقتها كي تخرج معها يوم العطلة وحتى عندما تعود وأسألها هل استمتعت بوقتهما لا تجيب سوى نفس الإجابة كما فى كل مرة:

- « عادي اتمشينا شوية على الكورنيش زي كل مرة»

تأتى فتاة شابة وتقف أمام المرآة لتخرج علبة من المكياج وتبدأ فى التزين ..ذوقها رفيع فى اختيار الألوان التي تتماشي مع ألوان ثيابها الزاهية.

مش حتقلعي الأسود يا "سهام"؟ أبوكي الله يرحمه فات عليهاأكتر من سنة

تهز كتفيها فى سأم:

- «يا بنتي اقلعي الاسوددة وحطي حاجة فى وشك زي زمان»

- «واحط ليه؟»

- «يا سهام أنتي لسه صغيرة وعلى وش جواز ..ريحيني»

تضحك ضحكة مريرة « وش لا ضهر يا ماما مين بس اللى يرضي يتجوز واحدة ساكنة فى حارة وشغالة فى حضانة ..ده كان زمان «

تلثمني على رأسي ترحل قبل أن أبادر بكلمة أخرى

وكأنها زهدت كل ما يمت للشباب بصلة ..لم تعد مرحة ولا مشرقة كعادتها قديما ..كنت أراها تتزين فى غرفتها أمام المرآة بمزلنا القديم وهى تتأهب للذهاب للجامعة فى أولي سنوات دراستها ..أرى ملامح والدة "أبومحمد" فى وجهها الجميل ..لكنها حاليا زهدت كل المشهيات.. أعذرها ففرق المعيشة التي تعودت عليه وبين حالنا الان كبير وجاء بغتة بلا مقدمات ..فجأة وجدت نفسها مجبرة على أن تحيا بربع ما كانت تعيش به سابقا..وموت أبيها الذي صاحبه الكثير والكثير من الألم ..كل ذلك بالتأكيد كان سببا فى ما أصابها..لكن أما آن لها أن تعتاد حياتنا الجديدة؟ مرت ثلاث سنوات ومازالت كما هى فى أول الامر ..لعل هروبها من ذاتها هوالحل الذي وجدته كي تقاوم وتتعايش مع الوضع الجديد ..أشعر وكأنها زهدت الحياة ذاتها.

"أميرة" هى الأخرى سببا آخر يشعرني بالذنب والتقصير فهى آخر العنقود لكنها لم تذق إلا القليل من السكر المعقود لعل ذلك أفضل لها كيلا يصيبها ما أصاب "سهام" من صدمة ..بالكاد تتذكر أباها وأبامها معه

وذكرياتنا القديمة ..حرمت من حنان أبيها وشبه محرومة من حنان أمها التي لا تراها سوى سويعات قليلة فى اليوم فلا تدرك من وجودي سوى أقل القليل ..متي يعود"محمد" من غربته كي أرتاح قليلاً..

أرضية الحمام قد اتسخت من جديد وتراكمت المناديل الورقية التي تركها اصحابها فوق الأحواض أوالقوها على الأرض رغم أن سلة المهملات لا تبعد سوى سنتيمترات منهم ..اتكئ على ساقي اليمني وأنهض لأجمع المخلفات وألقيها ..أجفف الأحواض من جديد وأعود لجلستي التي لا تتبدل ...

تدخل فتاة ترتدي عباءة سوداء وتضع طبقة كثيفة من الكحل الأسود تلقي التحية فأتعرّف لهجتها الخليجية الواضحة ..تحمل كيساً به بعض الملابس ..تدخل إحدى غرف الحمام تتغيب بالداخل لفترة ..يزدحم الحمام من جديد فأرجع رأسي للوراء أريحها قليلا؛ تخرج الفتاة وإذ بواحدة أخرى.. اختفت العباءة والطرحة السوداء بداخل كيس الملابس الذي تحمله وظهرت فتاة أخرى ترتدي سروال جينز ضيق فوقه بلوزة ضيقة «بادي « كما تقولها "أمل" ولا تنسي أن تربط الطرحة الملونة كما تربطها الخليجيات وتبدأ فى وضع المكياج الثقيل ..

تنتهى مما تقوم به وتميل عليّ تستفسر عن مكان لتضع به الكيس الذي يحمل العباءة مطوية ..وتسألني إذا كان هناك إمكانية أن تضعها هنا معي لتعود فيما بعد لأخذها ..أرفض تماما وأخبرها بمكان الأمانات فى المول؛ تمتعض قليلا وترد بكلمة خليجية لا أفهمها .. لا أريد جلب المتاعب لنفسي.

أنظر لساعتي التي تشير للعاشرة إلا ربع ..لم يعد باق سوى أقل من

ساعتين استرجع حديثي مع " أمل" صباحا أضحك بقوة حين أتذكر سكنها الجديد والخدعة التي أنطلت عليها « أما حتة مقلب فعلا!»

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أنتهى من تنظيف الحمام بسرعة ..لا أنظفه بإتقان فسأعيد الكرّة غداً بعد صلاة الجمعة ..لن يمر" علي" الليلة كما أخبرني فهوذاهب لأحدى مقابلات العمل ..أغلق الباب وأمرّ على المحل الذي تعمل به " منى " أراها تضحك وهى تمازح صاحب المحل وكعادتها تجذب بلوزتها لأسفل كل دقيقة ..أمر على "أمل" فأجدها تقف بجوار زبونة تتشاور مع رجلها حول إحدى القطع التي تمسك بها ..أشير لها فتراني وتشير لساعتها بإشارة خفية فأبتسم وأمضي مبتعدة..اتأكد أن الكيس الأسود الذي به ملابس العمل محاطاً جيدا بالكيس الآخر ..ف"سهام" لا تعلم شيئا عن عملي وأخشى عليها من صدمة أخرى قد يكون لها أثر مدمر هذه المرة ..أشعر بدمعة تسقط فى لحظة غفلة من جفوني فتستدرك أصابعي هذا السهو وتجففها تاركة خطا مبللاً على خدي

..المول مازال به بعض الزوار لكن عددهم يتناقص تدريجيا..أخرج للطريق وأقف فى انتظار الميكروباص الذي سيقودني للمنزل ..الهواء منعش وبارد فى أول الصيف .. الشتاء الماضي كان قاسياً وكان يمر وقت الانتظار وأنا اكاد أتجمد من البرد الشديد ..أرى سيارات التاكسي الصفرَاء تقف بمحاذاة الرصيف انتظارا للزبائن وسيارات الملاكي ينتظر السائق بداخلها من ظل ساهرا بالمول.

يأتى أخيرا الميكروباص فأسرع بالصعود وأجلس لأريح قدمي التي تكاد تصرخ من الألم..

البيت مظلم وهادئ كالمعتاد فلقد آوى الجميع لفراشه ..ترى ماذا فعل "عبده" فى اختبار اليوم؟ وهل استذكرت" أميرة" جيدا لإختبار بعد غد؟

أشعر بوخز ضميري كلما أدركت أني بت لا أعلم إلا الخطوط العريضة عن عالمهم بالكاد أراهم لاسألهم عما فعلوا فى يومهم فلا يتبقي الوقت لشيء آخر..

- «خلاص يا ماما أنا ذاكرت كويس»

تهتف "سهام" وهى تتشبث بملابسي .. «أنا كمان يا ماما عملت الواجب» التفت إلى محمد وأراه أنهى واجب الرياضيات ولم يرتكب أخطاء كالمرة السابقة .أراجع واجباتهما ثم أسمح لهم باللعب قليلا قبل النوم ..يهرعان من أمامي قبل أن أغير رأي ويبدأن فى لعب الاستغماية..

أعد كوب الشاي الخفيف كما يحبه الحاج "سيد" ونجلس سويا فى الشرفة بالدور الثانى نتأمل المارة ويتناهى إلى سمعي صوت محمد

- «خلاويص»؟

تسمع "سهام" الجلبة التي أصدرها قدومي فأراها قادمة من الغرفة تعدل من شعرها المنسدل وهى تقاوم النعاس تلثمني وتلقي التحية وتهم لتحمل عني الكيس فأجذبه منها ..تنظرلي طويلا ثم تعتدل وتسأل عمّا إذا كان العمل يحتاج لكل هذا الوقت..وأن العمل لساعات طويلة هكذا سيزيد من مرضى.

أتظاهر بالسعال حتى أجد ردا مناسبا

- «اصل مدام "عايدة" معتمدة علي فى كل حاجة وزباينها كتير بنقعد

طول الليل نفصّل عشان نلاحق على طلباتهم ..وكمان الشغل مشواره بعيد»

أصمت قليلا حتى يتوقف تهدج صوتي..لا تبدومقتنعة بكلامي لكنها لا تعقب تسألني إذا كنت أريد العشاء الان فأخبرها أني تناولت الطعام مع "أمل"..تتساءل من هى أمل فأخبرها أنها فتاة جديدة تتعلم التفصيل .

أباردرها بالاسئلة حتى ألهيها قليلا؛ أسألها عن أخواتها ودراستهما ..وإن كانوا تناولوا العشاء؛ تومئ برأسها ايجأبا وتهم بالكلام فأباغتها مجددا وأسألها عما فعل "عبده" فى اختباره..تتثاءب طويلا ثم تخبرني أن الأختبار جاء طويلا ولكنه جاوب جيدا على الأسئلة وتكمل أنها قد قامت بمساعدة "أميرة" على الاستذكار استعداد لاختبار بعد غد.

أجلس على أحد المقاعد فى الصالة فتجلس بجوارى وتلقي ملاحظة على قدمي التي تستمر بالتورم أطمئنها أن الألم بدأ فى الخفوت قليلا تتمتم بالحمد وتهم القيام إلا أني أجلسها من جديد؛ أسألها عن أحوال عملها فتمط شفتيها فى امتعاض وتشكومن ضجيج الأطفال فى الحضانة وتتنهد قائلة:

- «..نفسي ألاقي شغلانة تانية بقى»

نصمت قليلا وأحاول فتح معها موضوعا للحديث..لا أدري لما أشعر أنها تحاول بالمثل إيجاد موضوعا مشتركا للحديث ..تطول لحظات الصمت أشعر بمساحة الأرض المشتركة تتقلص بيننا رغم محاولات كل منا التشبث بها ..تسألني إن كنت أريد شيئا قبل أن تنام ثم تلثمني وتغفو بسرعة من شدة التعب.

أنتظر قليلا فوق المقعد ..استرجع ما قلته لها والقصة التي أحكمت

صياغتها عن مدام"عايدة" الخياطة الشهيرة بوسط البلد واستعانتها بي لسابق معرفة ..اتأمل الكيس بجانبي ..هل أخبرها الحقيقة لعلها تتقبلها؟..لكني أخشي عليها أن تكون هذه هى الصدمة الأخيرة تفقد حتى معها أبتسامتها التي رأيتها الليلة للمرة الأولي منذ فترة طويلة.

أخرج ملابس العمل وأغسلها سريعا لتجف قبل أن يستيقظوا صباح الغد ..فغدا الجمعة والعمل يبدأ بعد صلاة الظهر..اتأكد من نومهم فأقوم بنشرها على الحبل وأخفيها بملابس أخرى كيلا يظهر منها شيء ..أشعر بالنعاس الشديد فأستبدل ملابسي وأدهن قدمي بالمرهم؛ لم أعد ألاحظ هل ازدادت تورما أم لا لكنها لا تقارن بحجم القدم الأخرى بالتأكيد..مازال الجرح لم يندمل بعد ..الغريب أني لم أشعر به حين جرحت إلا بعدما أحسست بالدماء والألم أحيانا يزيد علي فأشعر به وأحيانا يخفت ..أريد التأكد من ذلك فأضغط بإصبعي بقوة لاتيقن.. أشعر بألم قوي فتصدر مني آهة رغما عني أحمد الله أن أحدا لم يسمعها.. تتململ " سهام " قليلا ثم تكمل نومها ..أندهش من أمر قدمي هذه ..لعل طبيب المستوصف على حق وهى طريقها للشفاء ..استلقي على الفراش، لحظات واستغرق فى نوم عميق بلا أحلام.

-على»٣»

باقي أقل من ساعة على ميعادي وأنا لم أزل بعد فى المول لم أغادره.. مازال هناك طابور طويل من البشر الذين ينتظرون دورهم ..وأنا مازلت أعبئ البضائع داخل الأكياس البلاستيكية ولا افعل شيئا سوى هذا ..أنظر إلى ساعتي باقي أقل من ساعة على الموعد ..أسرع فى عملي ليتقلص الطابور قليلا ..يأتى صبي صغير لا يزيد عمره بأي حال من الاحوال عن الثالثة عشر يقف ليتابع أمه وهى تضع المشتروات على السير المتحرك يعينها ويضع البقية ثم يخرج ليقف إلى جوارى يساعدني فى التعبئة ويتناول معي بعض الأكياس ليضع البضائع بنفسه داخلها ..أنظر له فيبتسم ويكمل معاونتي ..»الله يخليك لوالدتك» أتمتم بذلك فى صدري..تمر الزبونة وابنها الذي يصافحني بيده الحرة واشعر بملمس ورقي فى يدي يمضي مبتعدا دافعا العربة أمامه ويتبع والدته ..أدس العملة فى جيبي سريعا لأعاود العمل ولا أطيل من شرود الذهن لعل العدد ينخفض قليلا. باقي ساعة إلا الربع.

يمر الزائرون بمختلف الأشكال والأحجام سيدة فشاب فرجل..أتأمل "ميرفت" وتسألني هامسة لماذا لم أرحل للحاق بموعدي حتى الآن.. أشير إلى الطابور الذي ينتظر دون تعليق، فتقترح أن أطلب العون من "أحمد" كي يتولي العمل مكاني

..أهرع إلى حيث أجده فى الداخل يتحدث مع أحدهم ؛فأخبره بالامر سريعا فيوافق بعد تمنع وتوسل مني ..أهرع لاستبدال ملابسي وأتخيل مظهري وأنا ذاهب إلى المقابلة بالأوفرأول الأصفر..سأرفض من أول وهلة.

أقف كثيرا بانتظار أي مواصلة تقلني إلى وجهتي لكن يمر الوقت ولاتمر أي حافلة أوميكروباس ..أنظر لساعتي وأكاد احترق من القلق فلم يعد باقي على الموعد سوى نصف ساعة كانت حافلات كثيرة تمر ..لماذا هذا النحس الذي يلازمني؟

لا أجرؤ على الانتظار أكثر من هذا أتردد قليلا لكن ما أن ألقي نظرة أخرى على عقارب الساعة فى سباقها المحموم لتكمل دورتها حتى أهتف مسرعا بالكلمة قبل أن أتراجع :» تاكسي!»

السير بطيئ للغاية رغم أننا لسنا فى ساعة ذروة من أي نوع هل الأوقات كلها أصبحت أوقات ذروة أم أنه حظي المعتاد؟..أتحسس جيبي الخلفى لاتأكد من وجود حافظة النقود ..يسمع السائق أغنية سوقية لا أميز منها حروفها من خرفشة تغطي على مقاطعها ..لا استطيع الجلوس ساكنا فالتوتر يقتلني والدقائق تمر ومازلنا بعد بعيدا عن مكان المقابلة ..اتشاغل بحساب ما بحافظتي من مال لأدرك فداحة ما ارتكبت ونحن مازلنا فى منتصف الشهر ..أتمتم:

- «ربنا يستر ..بس لوكنا فى رمضان كانت موائد الرحمن موجودة»

- «بتقول حاجة يا أستاذ؟»

يقولها سائق التاكسي فجأة فأفكر فى تجاهله لكني أجد نفسي مرغما أجاوبه وأطلب منه أن يسلك طريقا آخر مختتصرا لان لدي موعد هام

ويضحك ضحكة خبيثة فتمنيت وقتها ألا اكون نطقت بحرف إذ سرعان ما أنعشه حديثي ليبدأ فاصلا طويلا مطولا من الكلام والحديث عن الازدحام.

- «أنهاردة الدنيا كلها زحمة..:باينه بيعدّي»

يبدأ فى الحديث عما يراه من زبائن التاكسي الذين صادف كونهم زبائن آخر الزمان أيضا ..ويلمّح إلى من يتهربون من دفع الأجرة كاملة فى تهديد واضح المعاني لي ويروى ما فعل بشخص حاول الهرب دون أن ينقده أجره كاملا يتبعها بضحكة طويلة متهدجة تبرز فيها اسنانه الصفراء النخرة من أثر السجائر أوالمعسل وبينما يلتفت إلي ليتحدث بحماسة إذ به يصطدم بسيارة أمامنا ..يلقي سبة ويوشك على النزول للشجار ..أتشبث بملآبسه واستعطفه أن يمضي ولا داع للشجار وإضاعة الوقت.

أرى الشرر يتطاير من عينيه ويسمعني أنا الآخر سبة بذيئة ثم يهبط ليتشاجر مع صاحب السيارة الملاكي التي صدمها لتوه!..تمضي الدقائق وأنا اتميز من الغيظ حتى يعود أخيرا ..أرجوه أن يسرع فيحدجني بنظرات نارية فأدرك أن علي ألا استثيره أكثر من هذا فالامر قد خرج من يدي..أميل برأسي على النافذة وأنا أدعوالله..أشرد بذهني قليلا ثم أفيق على صيحة غاضبة منه:

- «يا استاذ ما تسندش أوي احسن الباب يتفتح وتقع بره وتعملي مصيبة..وأنت ما شاء الله يعني وزنك مش خفيف!»

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أدلف إلى داخل المكتب الذي كتب على لافتة خارجه « شركة الوعد

للتجارة والتصدير»

ألحظ أن حرف العين تعلوه نقطة سوداء من جراء تآكل جزء من نحاس اللافتة.. فبدت الكلمة مضحكة يبدوان أحدا لم يبال بإصلاحها ..ثم أنتبه إلى أن لا أحد يلحظ تلك الامور سواي ..أرى بالداخل السكرتير يجلس خلف مكتبه المعدني ينقل البيانات إلى جهاز الحاسب يرفع رأسه فيرانى وينطلق فى وصلة طويلة من التوبيخ لي عن سبب تآخرى هكذا عن العمل ويطلب مني فى جفوة واضحة ألا استغل صلة القرابة بيننا كي أتأخر كما يحلولي موضحا أن المدير لا يعلم بأمر قرابتنا.

أشير له كيف يوقف سيل التوبيخ الذي أمطرني به ..أتهاوي على المقعد أمامه وألهث موضحا أني أتيت بمعجزة وأهم أن أروي له ما حدث إلا أنه يقاطعني بغتة مشيرا إلى ما أمامه من أوراق يريد الانتهاء منها ..أهم بالقيام ثم أسأله سؤالا أخيرا عن مكان الفرع الآخر الذي يطلب له المدير سكرتيرا..يزفر بضيق معلنا عدم معرفته ثم يشير إلى مقعد بعيد لانتظر ريثما يأتى دوري فى آخر القائمة بما أني تآخرت عن موعدي الذي بذل المستحيل كي يحدده مع مديره وأني لا أستحق بذلك الجهد الذي يبذله من أجلي..أهم أن اعترض إذ أن كلامه به تناقض كيف لا يعرف المدير بأمر قرابتنا وفي نفس الوقت يقول إنه بذل جهداً للقائى به ثم أعدل عن ذلك كيلا استثيره.

تمر لحظة ثم أرى "إبراهيم" يشير إلى فأقترب منه ..يوبخني على مظهري غير المتناسق، فأهم بالاستفاضة فى شرح ورواية ما حدث لعل ذلك يخرجه من جفائه معي لكنه يعود لعمله من جديد..أعدل من ملابسي التي تجعدت داخل الحمام وأغسل وجهى فأشعر بالانتعاش قليلا ..أدخل

القميص داخل السروال كي أخفى أطرافه المتجعدة رغم أن ذلك يزيدني بدانة لكن ما باليد حيلة.

اتأمل وجهى فى المرآة مرة أخيرة ثم ألحظ وجود حوض استحمام..لا أدري ما الداعي لوجوده فى مكان عمل

اجلس بين اثنين آخرين من المتقدمين للوظيفة أحدهما يرتدي بذلة كاملة أنحني لامسح حذائي علّه يلمع ثم اكف عن المحاولة ..أجاهد كي أجد عبارة أبدأ بها التعارف على من يجلس إلى يميني ..اتنحنح أولا ثم أساله:

- «حضرتك جاي عشان الشغل برضه؟»

- «أكيد»

أنتظر منه تكملة لكنه يكتفى بهذه الكلمة ..أحاول أن اتجاذب معه أطراف الحديث لنقضي على ملل الانتظار لكنه بدا قليل الكلام ولا يهتم بالرد على أسئلتي فانتقلت عدوي الصمت إلى أنا الآخر.

يمر الوقت ثقيلا كئيبا أجاهد كي أتغلب على أثر النعاس ..يخرج آخر المتقدمين منفرج الأسارير وأهم بالدخول إلا أن "ابراهيم" يوقفني ليدخل إلى مديره يخبره بقدومي ..يخرج ويخبرني أنه اجتهد كي يقنع مديره برؤيتي..أشكره دون اقتناع.

المدير يجلس خلف مكتبه واصابعه متشابكة حول بطنه المنتفخ قليلا..يحييني ويبدأ حديثه معي بشكل مرح فأرتاح قليلا يلومني سريعا على تأخرى عن موعدي وتنهمر اسئلته عن خبراتى واللغات التي أتقنها وعن اتقاني للحاسب الآلى يعود التوتر إلى حينما يصمت قليلا:

-» طب يا أستاذ "علي" شرفتنا ..أسبوع ونرد عليك» يقولها وهويبتسم ابتسامته الديبلوماسية فأرحل دون أن استشف أهذا مؤشر خير أم ماذا.. أحاول أن استفهم من "إبراهيم" إلا أنه بدا متعجلا ليدخل إلى مديره ويطلب مني الرحيل ويعدني بلقاء آخر بعد العمل.

أرحل كيلا أسبب له المزيد من الحرج..أتهادي قليلا فى سيري بتلك المنطقة الراقية اتأمل شوارعها الانيقة ومبانيها القديمة التي مازالت محتفظة برونقها ووقارها ..لم تتأثر بعوامل الزمن ولا السوقية التي زحفت على كل شيء ..مازالت تلك المباني شاهدا على فترة أناقة عاشها الناس يوما ما ..أناقة فى كل شيء ..فى المظهر والأخلاق .. ..حين كان يعامل المواطن معاملة الانسان وليس رقم يستحسن لوامكن نقله من سجل المواليد لسجل الوفيات لتخفيض عدد السكان الحجة الواهي لحالنا المرير..أخرج إلى الكورنيش وأرى أمامي النيل ينتظر زائريه فى صبر ..لم يتغير منذ آلاف السنين مازال كريما يقابل إساءتنا بإحسان ..اتوقف قليلا لاتأمله فأجده اسودا كليل موظف فى آخر الشهر ..تري هل هذا سواد الليل أم سواده هو؟..أرى على إمتداد البصر الكبارى تعبر فوقها السيارات مسرعة غافلة عن هذا الكائن المظلم الذي يحمل قاعه أساس الكبارى العملاقة ويتحمل صخب السيارات.

..أمد بصري يمينا فأرى زوج من المتحابين يسيران متجاورين يهمس أحدهما للآخر ويتبادلان الضحكات ..توحدا معا لاهين عن صخب العالم من حولهم واجدين لحظة رومانسية رغم الضوضاء لعلهم يتناقشان فى مستقبلهما تري كيف يرون المستقبل؟..أهومعتم مجهول كما أراه ..أم أن شمعة الحب اذابت كل يأس لديهم؟..يمران بجوارى فيلحظ الفتي

نظراتى فأخفض رأسي حرجا وأمضي مبتعدا ..لم أكن احسب نفسي يوما حاسدا إلا أنني شعرت بالحسد تجاههما..رغما عني وجدتني أفكر فى "سهام" تري ماذا تفعل الآن؟..أنظر لساعتي فأجد الوقت مازال مبكرا؛ أقرر الرحيل لعلى أحظي برؤيتها واتحجج بالسؤال عن "محمد" وأطمئن على اختبارات "عبده".

أمل «٣»

أغلق المحل أخيرا بعد رحيل آخر الزبائن ..الساعة تجاوزت منتصف الليل ..مازالت بعض المحلات تفتح أبوابها لاستقبال الزبائن الأواخر الذين لا يغادرون المول بهذه السهولة..أنتظر بالخارج قدوم أي مواصلة واتحمل معاكسات الشباب الوقح ..الشارع مازال مستيقظا مزدحما قليلا حتى هذه الساعة المتأخرة ..فالوقت صيف والناس هربوا للطرقات.

الشتاء الماضي ..الشارع الخالى ..أنتظر وحيدة بانتظار إحدى الحافلات التي بمثابة قارب الانقاذ لكل الساهرين ..التفت ورائي كل دقيقة لدي سماع أي صوت غريب يمر كلب ضال بعيدا فازداد انكماشا.. أشعر برعدة تمر عبر خلايا جسدي فلا أدرك أهى رعشة البرد أم الخوف..احساسي بالوحشة يزداد فالليلة شديدة البرودة ولا يوجد من يجسر على النزول للشارع سوى القليل مثلي ..يطول الانتظار لبعد الواحدة صباحا ..ألمح أخيرا الحافلة تتهادي من بعيد تخبرني أنها لم تنساني ..اتعجلها بنظري لكنها تقبل بثقل و ثقة ..تأتى أخيرا فأدلف إلى الداخل ليصطدم الخوف والوحشة بالباب وتمنعهم من اللحاق بي.. أراهم بالخارج فأبتسم فى سعادة وأنا أبتعد عنهم بالحافلة

مواعيد عملي جعلتني لا أشهد زحام الحافلات إلا نادرا ..حتى يوم الجمعة رغم أنه عطلة رسمية إلا أن المحاضرات تبدأ قبل الصلاة وتنتهى والناس بعد غافلين ..تقطع الحافلة الشوارع ..عمارات فاخرة ومحلات فاخرة أحس بالحاجز الوهمي الذي يفصل بين منطقة السكن

ومنطقة العمل يقل الحاجز تدريجيا مع الابتعاد عن المول ليزول تماما فور خروجنا من الحي وكأن هناك عالمين منفصلين يكمن أحدهم خلف جدران المول ويمتد أثره خارجه قليلا ..عالم مخملي قوامه الكرواسون والسائق الخاص وتتلاشي قبضة هذا العالم بقفازها الحريري تدريجيا لتفسح المجال لقبضة أكثر قوة وخشونة رغم تجاور العالمين إلا أن تباين قاطنيهم يضمر عداءا لا يأخذ صوراً مادية واضحة لكنه موجود ويتنظر.

.تصعد الحافلة الكوبري لتبتعد تماما عن كل ما يمت للمول وما يجاوره بصلة وتهبط بنا إلى حيث عالمي الجديد بصخبه الذي اعتدته وأناسه وعمائره المتنافرة فى الإرتفاع والذوق مازال الميدان مزدحما لا ينام أبدا حتى بالشتاء وهذا ما أعجبني فى مكان سكني رغم ما أعانيه به فهو لا يشعرك بالخوف مهما تأخرت فى العودة على عكس الدار السابقة التي كانت فى شارع جانبي لم يعرف إختراع أعمدة الانارة ويكاد يخلو من المارة بعد العاشرة ناهيك عن زميلات الدار اللاتي تعد من أغرب ما رأيت من فتيات بحياتى.

القاهرة تأوي للفراش متأخرا عكس بلدتنا الصغيرة الصعيدية المتزمتة إذا ما غربت الشمس تساوت كل ساعات الليل صيفا كان أوشتاءا.

أعود من إحدى مراجعات الثانوية العامة بعد صلاة المغرب فأجد «محمود» ابن عمي بوجه ممتقع ..يدب الرعب فى قلبي وقد طننت مكروها أصاب والدي يطمئنني ويحثني ألا أدخل من الباب الأمامي.. أشيح عنه فى غضب وأدلف من باب الدار لأسمع جانبا من شجار عنيف يدور بين أبي وعمي..كعادة عمي يتشاجر بخصوص ما نملك من أراض زراعية يقنع أبي بشيء ما لكن أبي يردد بهدوء أنه لن يبيع الأرض..ألقي التحية فيرد أبي بابتسامة رغم ما يبدو على عمي من ملامح الغضب

الشديد..أتركهم لكني أسمع عمي يوبخ أبي على تأخرى خارج المنزل حتى هذه الساعة « بنتك فلتت..احكمهالك لومش عارف تحكمها» لأول مرة أسمع أبي يرد بحدة « بلاش الكلام دة..أنا فاهم وأنت فاهم» ثم يطلب منه ألا يتخذ مني حجة لتنفيذ رغباته ويعقب بمرح كي يزيل جو التوتر « أرضي وانا حر فيها يا أخي»

يرحل عمي غاضبا وأراقب «محمود» يتطلع إلى شرفة غرفتي فى عجز فينهره ليسرع باللحاق به.

..أعبر مدخل الدار حيث إصيص الزرع الوحيد لنبات لا معلم له سوى أنه أخضر اللون ..يحيني حارس العقار الذي استطعت كسب صداقته وإخباره بمواعيد عملي المتأخرة كي يسمح لي بالدخول رغم تعليمات صاحبة الدار ..أرتقي درجات السلم أشعر بالتعب فأتمهل قليلا غير عابئة بنظرات الجيران وهم يرونني أفترش السلم استرد أنفاسي اللاهثة؛ أضحك حين أتذكر تعليق دادة "عفاف"

«والله فعلا مقلب كبير».

الشقة هادئة فالكل قد أوى لفراشه ضوء الصالة أبقته أحداهن ..من المؤكد أنها "مي" حيث غرفتها تطل على الصالة وهى تخشي الظلام.. أتجه للمطبخ لأجرع كوبا من الماء فأسمع من داخل إحدى الغرف صوت المذياع معه أحاديث هامسة بين "منال " و"ريم" الطالبتين فى آدأب إنجليزي ..غرفتي تقع فى آخر الشقة ..هى عالمي الحقيقي وهى كل ما أملك فى دنياي حاليا ..نعم هى ملكية مشتركة مؤقتة مع "فاطمة" زميلتي فى الغرفة لكن مواعيدنا مختلفة تماما فهى تعمل ممرضة ولا تأتى إلا صباحا حيث أكون بالعمل وترحل فى المساء فلا أراها إلا يوم الجمعة

قبل ذهابي للجامعة ..أفتح الباب وأسمع الصوت الذي تعودت عليه « فووووم..فووووم».

فالغرفة هى الوحيدة التي بها شرفة وكنت سعيدة بفوزي بها رغم أني كنت أتيت بعد ما سكنت باقي الغرف وكنت أتعجب من نظرات السخرية وقتها.

فالغرفة فى ظهر العمارة التي يطل على كوبري يمر بين العمارات والشرفة لا تبعد سوى مسافة ذراع عن سور الكوبري!

- «الأودة دي لقطة الوحيدة إللى فيها بلكونة»

تقولها صاحبة الدار ..صوت التلفاز مرتفع للغاية لا أعرف لماذا ترفعه هكذا وهى تحدثني ..أتفقد أرجاء الغرفة وتخبرني بأمر زميلتي فى الغرفة..أهم بفتح الشرفة فتهرع إلى بسرعة وتقودني للخارج.

- «تعالى أوريكي المطبخ والحمام عشان أنا لازم أمشي حالا»

تأخذ أجرة شهر مقدم كتأمين، وتخبرني أنها ستترك المفتاح مع البواب كي أنقل حاجياتى غدا..أرحل وكلي سعادة بهذا السكن اللقطة

استبدل ملابسي وأتربع فوق الفراش لأنهى استذكارى استعداد لمحاضرات الغد الذي يعد باقي عليه سوى ساعات معدودة ..استجمع شتات أفكارى وأبدأ باسترجاع فتيل المعلومات ..اتأمل قليلا صورة أبي وأمي التي أضعها بجوارى ..أرى ملامحى فى وجهه الحبيب ..أفيق على صوت « فووووم» لسيارة أخرى تمر على بعد مترين لا اكثر من رأسي.. أجبرت نفسي على التعود على هذه الأصوات لكني استيقظ فزعة أحيانا لمرور حافلة نقل عام بمفرقعاتها التي تهز زجاج النافذة عندما يعلن شكمانها أنه اكتفى ولم يعد يتحمل المزيد.

سعيدة كطفلة فى يوم العيد ..أنقل حاجياتى للغرفة متجاهلة ضحكات البنات الساخرة ..أحاول فتح مصراع النافذة فأسمع صوت إحداهن الساخر:

- «ما بلاش !»

استمر فى محاولتي متسائلة عن كنه هذا الصوت الغريب..تضحك ثم تستند على حافة الباب منتظرة أن أفتح الشرفة يستجيب أخيرا المصراع وافتح النافذة لأصعق وأجد نفسي اصرخ من المفاجأة عندما أجد عربة نقل ضخمة على بعد نصف متر مني تمر وصوتها يصم الآذان وأرى بعدها سرب سيارات وكأن غرفة نومي أنقلبت إلى ميدان! أسارع بغلق النافذة وأرى الفتيات الأخريات يضحكن بجنون وتهتف إحداهن:

-» الخامس !» على غرار الفيلم الشهير لأنور وجدي ..أضحك عندما يروين لي أن رابع ساكنة لم تحتمل أكثر من يومين وفرت تاركة باقي إيجار الشهر.

أعاود الاستذكار وقد أدركت السبب فى قلة الأجرة المطلوبة ..يغلبني النعاس فأنام والكتاب بين يديّ.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

استيقظ فزعة على صوت نفير قوي أمد يدي إلى المنبه لأخرسه ..تهزني "فاطمة" التي عادت لتوها من عملها ..الساعة مازالت السابعة والنصف ومازال أمامي ساعة ونصف قبل المحاضرة.

-» حرام عاوزة أنام»

اقولها وأضع الوسادة فوق رأسي ..لكن يعلو صوت النفير أكثر ويختلط بأصوات أبواق من سيارات أخرى أضغط بالوسادة أكثر فيعلوالصوت

أكثر! أهب من فوق فراشي لأجد "فاطمة" تستبدل ملابسها وتندس بين الأغطية وكأنها لا تسمع شيئا اتلصص من بين خصاص النافذة فأجد الكوبري مصطفا بالسيارات وإحدى الحافلات قد تعطلت فأوقفت السير خلفها ..لا أجرؤ على فتح الشرفة منذ مدة طويلة وهى مغلقة لكن اليوم لا اجرؤ حتى لأن أحد سائقي التاكسي يقف على بعد متر مني وانا بالداخل بملابس النوم لا يفصلنا سوى مصراع نافذة!

أقشعر لتلك الخاطرة ثم اذهب لأغتسل لعلى أفيق من النعاس الذي يفتك بخلايا عقلي ..أعود لأجد الحال كما هوبل إمتد للأسوأ إذ بدأ بعض السائقين يتشاجرون فأصبح الأمر لا يحتمل ..أتأمل "فاطمة" بغيظ شديد وهى تغط فى نومها دون أن يبدوعلى ملامحها أي ازعاج دون حتى أن تتقلب أوتتململ فى نومها..استبدل ملابسي سريعا قبل أن يستبد بي الجنون ..أنتهى من إعداد بعض الشطائر التي سأتناولها فى المول ثم أغادر الشقة ..لوغاردتها من الشرفة لصار الأمر أيسر حيث سأجد مواصلة بسرعة!

الحافلة تمضي ببطء شديد فى صباح الجمعة الهادئ فى كل أنحاء العاصمة إلا غرفتي ..السائق يتبادل حديثا مع الكمسري أغفوقليلا ثم أفيق عندما يصطدم رأسي من جراء أحد المطبات أسمع من بعيد ضربات تهوى بها إحدى ربات البيوت فوق السجاجيد لتنظيفها من شرفتها « بوم.. بوم..بوم».

أمي تعلمني كيف أمسك بالمضرب لأهوي به فوق الكليم ..أهوي بكل قوة ينبعث سحابة من الغبار أرى ذراتها فى ضوء الشمس فوق سطح دارنا..تمر حولي أسراب الأوز التي أخاف منها بأسنانها كأسنان كلب

حراسة شرس..أهوى من جديد وأنا التفت لسرب الأوز تقترب إحدى الأوزات بفحيحها المخيف فأجفل ويهوى المضرب بقوة على قدمي الصغيرة ..أصرخ ألما فتحملني أمي بين ذراعها وتوبخني على خرقي وهى تغالب ضحكها..أسمع صوت الأوز يعلو فأشعر أنهم يشاركوها السخرية من حماقتي.

يسير السائق ببطء رغم أن الطرقات خالية فى صباح العطلة الرسمية حيث الموجودات ذاتها تتثاءب فى الطرقات والوجود من حولك مازال يفرك عينيه من أثرالنعاس ..الناس مازالت غافية تفوتهم لحظة هدوء اسبوعية نادرة تمتد حتى الإقامة ..القلة القليلة فى الطرقات أما بائعي الجرائد أوجامعي القمامة أوسائقي الحافلات الذي يبحثون عن ركاب مازالوا فى فراشهم يغطون فى نوم عميق ..الشوارع تبدواكثر اتساعا ..الأشجار تبدواكثر طولا ..الهواء أكثر نقاءا..والكون نفسه فى قمة اتساعه الذي لا يدوم سوى تلك السويعات المعدودة قبل الصلاة حيث يكشف فيها أسراره النفسية لمن تكبد مشقة الاستيقاظ باكرا كي يلحق برؤية مشهده الأثير الخاص الاسبوعي حيث تفسح السحب مجالا لأشعة الشمس الحانية قبل أن تقسووتمر نسائم الهواء الرقيقة قبل أن تتعلم الخشونة..أتنفس بعمق كي أختزن قدرا كبيرا من هذا الهواء البكر داخل رئتي وأرجع رأسي للوراء لأتابع الضوء الذي تسلل من بين غصون الأشجار ساخرا من هؤلاء الذين يضيعون لحظات ثمينة كهذه فى نوم هانئ داخل غرفهم الهادئة التي لا تطل على كبارى!

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

باب الجامعة الرئيسي الجميل بزخارفه القديمة الشيء الوحيد الذي

ظل على حاله ..حرس الجامعة مازالوا بعد نيام لا يهتمون حتى بسؤالى عن وجهتي؛ فى يد أحدهم كوب من الشاي الصعيدي الأسود الثقيل الذي اشتاق إليه من يد أمي لنرشفه فى ساحة الدار مع أبي حيث يجمعنا حوله ليروي لنا أحدى قصصه

أجلس على أحد المقاعد بانتظار أن يمر الوقت لبدء المحاضرة.. حديقة الحرم الجامعي جميلة وهى مازالت تنفض عن نفسها آثار نوم البارحة أفكر فى الاستذكار ثم ما يلبث أن يهبط أحد الطيور الصغيرة يتقافز على قدميه القصيرتين بجوارى يلتقط أشياء من الأرض لا أراها بعيني غير الحساسة كعينيه يقترب أكثر فأغلق الكتاب لاستمتع بهذا المشهد البديع ..أندهش من عدم خوفه مني؛ أصبح على بعد خطوات من قدمي فلا أحرك ساكنا كيلا يفر ..أتابعه بنظري فى كل حركة يأتى بها ..تهب نسمة هواء فأسمع حفيف أوراق الأشجار الطويلة تسقط إحدى الأوراق التي غزا اللون الأصفر حوافها على إحدى ركبتيّ لا أتحرك كيلا يفزع العصفور الصغير تهب نسمة أخرى تحمل الورقة بعيدا.

يفرد أبي ساقيه فوق الحصيرة بحقلنا قبل مغيب الشمس يعيد كوب الشاي الفارغة إلى الصفحة ويسألني إن كنت أنهيت استذكارى جيدا استعدادا للاختبارات ..يتنحنح قليلا ثم يعلق على اعتدال مناخ اليوم.. أدرك أنه يريد أن يقول شيئا ما لكنه متردد ثم فجأة وهو ينظر للأمام.

- «ابن عمك طلبك عاشية»

لا أجد ردا فألتفت للناحية الأخرى

-» محمود ابن حلال وانتي ميالة له أنا عارف»

يقولها وهو يبتسم

- «وأنا خلاص مش حاعيشلك كتير» يقولها وهو يتحسس جانبه الأيمن لا شعوريا حيث كبده المتعب ثم يزيل يده عندما يري نظرتي الملتاعة ..يأخذني بين ذراعيه ويخبرني أنه اشترط عليه أن اكمل تعليمي الجامعي بعد الزواج ..أزداد التصاقا به ونتابع معا مشهد الغروب.

مازال الطائر يقفز حولي وإذ بيد تغلق عيناي فجأة « أنا ميين؟»؛ ثم أرى وجه "حنان" و"أماني" زميلاتى فى الجامعة وقد اقتحمتا خلوتي وأفزعا الطائر الصغير وافزعا معه باقي طيور الحديقة التي ألجمتها المفاجأة فأصابها الخرس.

-» قاعد بتفكر فى مين؟»

تقولها أماني فأبتسم مجاملة

-»انتي كنتي بتعيطي ؟»

أتحسس وجهى فأجده مبتلا بالدموع فأتعلل أن جسما غريبا دخل عيني فأدمعها ..لا أتابع سوى حركات شفتيهما دون وعي لما يتحدثان عنه؛ أشعر بتشوش يغزوتفكيري أبحث بنظري عن الطائر الصغير لعلى أرجع لصفاء النفس مرة ثانية برؤياه ..أحاول أن أتابع ثرثرتهم لكني لا أفهم شيئا أبتسم بلا معني ..يشرد ذهني من جديد ولا أسمع من حديثهما سوى غمغمات غريبة لها صدي أغرب يمتزج بأفكارى الجامحة التي أعجز عن ترويضها.

..تجذبني "أماني" لأصغي فأتابعها بهزة رأس وأغمغم « أيوة صح» .. تتوقف فجأة عن الحديث وتضحك عاليا وهى تلومني لأنها كانت تسألني عن أمر ما .. يفتضح أمر شرودي وتسألني إن كنت سمعت أن المحاضر الذي يلقي محاضرة الإدراة تزوج من فلانة وأنها تكبره فى العمر؛ لا أدري

ما المثير فى هذه القصة لكني اتظاهر بالاندهاش لهذا الانفلات الفظيع ..»
ياه معقول؟»..يفلت مني حرف الجيم رغما عني فلم تزل لهجتي القاهرية تحبو أولى خطواتها ..أحاول أن أجعلهن تتحدثن حول المقرر وكيفية الاستذكار وأعلن عجزي التام عن الاستذكار من الكتاب ..تضحك حنان وهي تتعجب من اصرارى علي الاستذكار من الكتب

اسألها بدهشة

: « أمال الكتاب لازمته إيه ..إحنا المفروض تعليم مفتوح كمان»

تمط شفتيها وتعود للثرثرة مرة أخرى ثم تضحكان كثيرا ..لا أتابع حديثهما ولا أعي سبب ضحكهما المبالغ فيه لكني لا اتمالك نفسي أنا الأخرى فأضحك لضحكهما ..لعلى كنت أتوق للضحك فأنتهزت الفرصة.

.ينتقل الحديث عن سفر «حنان» الأسبوع القادم لزيارة اهلها فى بورسعيد أدعوالله فى سري ألا ينتقلا للحديث عني إلا أني كما توقعت سألتني "أماني" عما إذا كنت سأسافر إلى بلدتي قريبا

أتنفس بعمق وأهز رأسي نفيا فتكمل وهى تنظر نظرة خفية إلى حنان.. وتسألني من جديد عن السبب فى أني لم أزر بلدتي ولا مرة منذ أتيت للقاهرة

أطرق بنظري للأرض وأعبث بإحدى الحصوات وأرد دون أن أرفع نظري عيناي خشية أن تخوناني ويفتضح كذبي وأتعلل بظروف العمل والجامعة وأنه لا يوجد وقت كاف للسفر.

تتابع حنان

: «يا قلبك يا أمل ماوحشتكيش بلدكم ..أنا لومر على اسبوع من غير ما أروح بورسعيد باحس أني حاموت «

أشعر بغصة فى حلقي وبالدموع توشك على الانفجار من مقلتيّ لتصبح فيضانا يغرقنا جميعا ..نسير وتستمران على ثرثرتهما؛ أشعر بطنين داخل أذني أحاول أن اتنفس سريعا مرات متلاحقة كي أتغلب على تلك الغصة وأمنع الدموع التي تتحفز للانهمار.

«ما وحشتكيش بلدكم يا أمل ...يا قلبك»

أغلق عيناي بقوة كي أطرد آثار كلامهما ..أشعر برعشة خفيفة فى ذراعي أحاول أن أخفيها ..نجلس ثلاثتنا متجاورين ويبدأ المحاضر شرحه ..أجاهد كي أركز تفكيري وأهز رأسي مرات عديدة لعلى أفيق من طوفان الأفكار الذي يلاحقني من تأثير كلام حنان ..أجده يتحدث فى نقاط جديدة لا استوعبها

الجو شديد الحرارة كعادة الصيف فى الصعيد ..أعاون أمي فى رفع فناجين القهوة بعد انتهاء أربعين والدي ..يتنحنح عمي ويدلف للداخل ومعه «محمود» مطرقا برأسه للأرض ..يجلس ويطلب مني إعداد فنجان قهوة مضبوط؛ استرق السمع من المطبخ حواره مع أمي .. «أمل كبرت وعاوزين نسترها زي ما اتفقنا مع أخويا الله يرحمه»

«يبقي علم الإدارة لازم يشمل التخطيط والرقابة والتنظيم»

ترد أمي بالموافقة بعد أن افقدها موت أبي تركيزها ..أشعر بضربات قلبي تتزايد وأنا أجاهد كي أسمع همس عمي؛ لا تصل كلماته كاملة إلى.. « مافيش فرح طبعا ..نكتب الكتاب عشان أخويا يرتاح فى قبره.. الفاتحة على روحه» تنسحب روحي تدريجيا وأسمعه.. « علام إيه يا حاجة ؟ البنت مالهاش إلا بيتها ..هى حتكون أحسن من بناتى يعني؟»

« النشاط الإدارى يحتاج إلى قدر كبير من التفكير الذهني والخبرة وينبغي أن يكون منفصلا عن النشاط التنفيذي ..يعني إيه الكلام دة؟»

ترد أمي بالموافقة استند للحائط وأنتبه لصوت فوران القهوة لا استطيع تحمل المزيد فأهرع وأخبره بكلمات متلاحقة عن اتفاق أبي مع محمود على اكمال تعليمي الجامعي ..أرى الشرر يتطاير من عينيه ومحمود مازال مطرقا للأرض لا يرد « كفاية عليك الثانوية انت احسن من بناتى ؟ وبعدين مصاريف الجامعة لازمتها إيه» ينطقها بتأن وهو يتوعدني بنظراته؛ استغيث بأمي لكنها لا تأتى بأي رد فعل تضع يدها على رأسها وترثي أبي وهى شبه غائبة عن عالمنا تماما.

«ثبات العمالة وانخفاض معدل دوران العمل»

أصرخ بمحمود أن يخبره باتفاقه مع أبي لكنه يظل صامتا فأخبر عمي أني سأصر على التعليم كما أراد أبي وأن المصاريف سأدفعها من إيجار أرضنا الزراعية؛ يقوم عمي من مجلسه ليصفعني.. يمنعه محمود من المزيد فأهرع من أمامهم وأنا أسمعه يصيح ليسمعني «الأرض دي بقيت تحت تصرفى..وكلامي حيمشي عليكي»

« وبكدة نكون خلصنا آخر جزء فى محاضرة النهاردة والأسبوع الجاي نبتدي موضوع جديد» ..ادرك أني أضعت المحاضرة تماما واتمتم وأنا ألملم حاجياتى لأسرع باللحاق بالعمل:

« الله يجازيكي يا حنان فكرتيني ليه؟»

زين» ٢»

يضيئ زر الطابق الأول فأهبط مسرعا..يقف المصعد وأسمع من خلف الباب ضحكات عالية ..ينفتح الباب وتدلف ثلاث فتيات إلى الداخل.. نكمل إحداهن عبارتها فتهز الأخرى رأسها وتطلب منها السكوت.. «مساء الخير» أقولها فى وضوح فتلتفت إحداهن إلى وتهز رأسها فى تحية صامتة ثم تتفحص شعرها فى مرآة المصعد الجانبية..يقف المصعد فى الطابق الثالث كما أردن ..ترحلن دون كلمة واحدة وأسمعهن يتابعن حوارهن وضحكهن..تعودت على ذلك الموقف..أغلب الزوار يصمتون عندما يدلفون للداخل حتى لوكان بينهم حديث مشوق لم يكتمل ..ففور أن يدخلوا المصعد يتوقف سيل الحديث لدقائق ويستكملوه فيما بعد.. فحتى إمكانية أن أسلي وقتي بسماع أحاديث الآخرين أصبح أمرا بعيد المنال..لم يعد متاحا لا الكلام ولا حتى الاستماع وكأن المصعد بات مقبرة للكلام ومرتعا للصمت.

يضيئ الزر فأصل للطابق المطلوب ..تدلف سيدة ترتدي عباءة خليجية ونقابا يظهر منه عينها التي رسمتها كأبرع ما يكون..أخفض عيني حين يتبعها زوجها الذي كان يتحدث فى هاتفه المحمول يدخل بجلبابه الأبيض والعقال الخليجي المميز.ألقي التحية فلا يأتى رد..أدير وجهى للناحية الأخرى والتصق أكثر بالأزرار..يستند الزوج على درابزين فى وسط الواجهة الزجاجية ويشاهد المول من أعلى ..يشير إلى محل ما

لزوجته فتجيبه بلهجة لا أفهم أكثر مقاطعها ..أحسده على قدرته على التطلع من الزجاج على هذا الارتفاع دون خوف.

أدلف إلى المصعد فى أول يوم عمل ..أحمد الله أني حصلت على الوظيفة كيلا أذوق مرارة البطالة من جديد ..أردد تعاليم العمل على ذهني بصوت خفيض «ممنوع التدخين» «ممنوع الحديث مع الزوار» «ممنوع ترك المصعد إلا لسبب قهري» «ممنوع اصطحاب الطعام والشراب داخل المصعد»..سلسلة طويلة من الممنوعات..يسمح لي فقط براحة غذاء قصيرة وخلالها أقوم بما أريد سواء تناول الطعام أو الذهاب لدورة المياة..أضغط على الزر الثالث فيبدأ المصعد رحلته لأعلى..أرى الأرض ترتفع رويدا رويدا من خلال الزجاج وتبدأ مشاعر الخوف التي نسيتها فى العودة بتوحش..نسيت فى غمرة فرحي بالوظيفة أن المصعد لا يعني سوى الإرتفاع خاصة مع هذه الواجهة الزجاجية الفيميه ذات اللون القاتم التي تكشف كل ما حولي ..استولي عليّ الرعب المصحوب بالمفاجأة وأبدأ فى الارتجاف وأسمع ضربات قلبي تتسارع لتختلط ببعضها البعض..تضطرب أمعائي وأشعر برغبة عارمة فى القئ..ألتصق بالحائط المقابل وأنثني على نفسي دون إرادة مني ..يقف المصعد أخيرا وينفتح الباب فأهرع خارجه مهرولا إلى الحمام.

أقف بالمصعد قليلا فى الدور الثانى وأتطلع إلى ما يجري فى الممر أمامي..أتابع الزوار الراحين والغادين..بعضهم يحمل مشتروات ويسير متطلعا إلى واجهات المحلات والبعض الآخر وهوالأكثر عددا جاء ليمضي وقتا ممتعا فى هذا المكان الفخم الأنيق كنزهة مع الأصدقاء ينهيها بتناول الطعام فى أحد المطاعم المنتشرة أوفى منطقة الطعام يعود بعضها راضيا عن يومه ..يمر أمامي بعض الصبية يمشون ببطء لا يتطلعون إلى المحلات إنما تدور عيونهم على كل شئ وكل شخص يمر أمامهم..أمد

رأسي خارج باب المصعد وأبقي قدمي على حافته كي أمنعه من الانغلاق واتابعهم بنظراتى الفضولية..حال ثيابهم وأحذيتهم يشي بمستوي اجتماعي بسيط ..أحدهم يضع كمية كبيرة من الجيل اللامع على رأسه حتى صارت تبرق كسطح معدني..تمر أمامهم مجموعة من الفتيات فأرى المشهد المتوقع ..ينظرون لبعضهم البعض كما فى إتفاق مسبق ويبدأ أولهم فى الاقتراب من الفتيات ..يتبعه الباقون..يلقي أحدهم دعابة فجة لكن لا تضحك أي فتاة منهن ..يدفعه حرجه أمام أصدقائه للتمادي فيبدأ فى إلقاء المعاكسات ويقتربون أكثر من الفتيات ..ألمح الفتيات يسرعن فى سيرهن لكن يقترب أحدهم من الفتاة الأخيرة ويحتك بها فى تعمد واضح..تلتفت الفتاة فى غضب شديد لكن صديقتها تجذبها لتعاود السير معهن..يضج الصبية بالضحك وألمح السعادة الشديدة فى عيونهم لما جرى..أنظر للناحية الأخرى فأجد حارس الأمن يتابع ما يحدث بلا حركة ..فقط يقترب قليلا فيبتعد الصبية للناحية الأخرى..

تدخل سيدة إلى المصعد فأعود للداخل وأضغط على رقم الطابق الذي تريده ..أفكر فيما شاهدت؛ أعرف هذا النوع من الصبية جيدا.. فأكثرهم من أحياء شعبية بسيطة كالتي أقيم بها ..يأتون إلى المول وقد ارتدوا أثمن ما لديهم من ثياب وأحذية لكن رغم ذلك تعرفهم دون عناء من خامتها الرديئة بساطة وتواضع مستواهم المادي والاجتماعي ..يأتون للمول رغبة فى رؤية هذا العالم المخملي الذي يسمعون عنه ولهفة على فتيات هذا العالم ويكون أقصي طموحهم فى معاكستهن أولمسهن؛ عندها ينعمون بالمتعة التي يبحثون عنها ليعودوا إلى عالمهم منتصرين ..ظافرا بما استنشقه من عطر فاخر وبما رآه من مظاهر الترف والرفاهية رغم أنه

فى كل مرة يتأكد من بعده التام عن الوصول لمثل هذا العالم الساحر فى نظرهم لكنه بذلك استطاع أن يسرق جزءا منه يشعره أنه أفضل كثيرا.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تنتهى ساعات العمل؛ لا أجرؤ على القول أني أعود منهكا؛ فالعمل ليس مرهقا على الإطلاق ..لكني رغم ذلك لا استسيغه أبدا..لا أطيق حبسي داخل أربع جدران متحركة معزول عن كل شيئ إلا لثوان عندما يركب أحد الزوار المصعد ..أحيانا أشعر بلهفة حارقة للحديث مع أي شخص لرؤية أي مشهد سوى هذه الجدران المعدنية الباردة..لا أنكر أن الامور أفضل كثيرا من المرة الأولي ..خفتت حدة الخوف قليلا « فوبيا المرتفعات» كما شخصها الطبيب لكن فى بعض الأحيان عندما أطيل النظر إلى الناحية الزجاجية يعاودني الخوف الشديد الوحشي وأضطر إلى اسناد رأسي إلى لوحة التحكم كي أسيطر على انفعالاتى .. لكن لا يوجد أمامي سوى الرضوخ لذلك حتى أجد فرصة عمل أخرى..فالاختيارات لأمثالنا محدودة إن لم تكن معدومة.

أصل إلى منطقة السكن ..حي « إمبابة» الشعبي ..أترك الميكروباص وأبدأ فى السير قليلا رغبة فى لمس أرضية الشارع وتنفس الهواء المنعش الذي افتقده طيلة فترة العمل ..أبتاع بعض الشطائر لطعام العشاء وأعرج على جارى كي أعرف آخر أخباره وكي أفرغ شحنة الثرثرة التي تكاد تنسكب على الأرض من حولي..أحيي والده وندلف سويا إلى غرفة الصالون التي غطيت بعض قطع الأثاث بها بسجادة الصلاة كي تدارى الإهتراء الذي أصاب القماش الأصلي ..يحدثني عن عمله فى مكتب المحاماة ويثني كثيرا على أستاذه الذي يعتبره جهبذ من جهابذة القانون..

ثم يحدثني عن زميلة فى العمل ..أتابع حديثه فى نظرات خبيثة فلا يقاومها كثيرا ويبدأ فى الحديث كثيرا عن شعوره الغريب الذي لا يملك تصنيفه إن كان حبا أم اعجابا لأنها زميلته الوحيدة فقام بقولبة مشاعره عليها..أنصحه ألا يطيل التفكير فى الأمر ويدع الأمور تسير كيفما سارت وسيدرك حقيقة مشاعره دون عجالة ..

يأتى دوري فى الحديث فأروي له بعض أحداث اليوم لأجدها لا تتعدي الكلمات القليلة ..أشعر بضيق لا أدري مبعثه فأنهى الزيارة سريعا.. أتجول قليلا فى شارعنا الضيق ..وأصعد درجات عقارنا وأنا استرجع كلامي معه ..منيت نفسي أني سأتحدث كما لم أتحدث من قبل لتعويض ساعات الصمت الطويلة لكني فوجئت أنه لم يعد هناك ما يقال فى حياتى وشعرت بتفاهة ما سأرويه وتفاهة مهنتي ..تضاءلت تفاصيل حياتى بشدة حتى صارت فى حجم غرفة المصعد الضيقة لا تفوقها مساحة ولا أهمية.. حاولت أن أبحث بين خلجات نفسي عن أي تفصيلة استطيع أن أبدأ بها الحديث لكني لم أجد..ألهذا الحد صارت حياتى خاوية جوفاء؟.. لم أع طيلة الفترة الماضية أني أنحدر سريعا هكذا لدرجة أن أعجز عن الحديث عن أي موقف فى عملي أواجد أي جديد فى حياتى وأنا الذي عُرف طيلة حياته بداء الثرثرة.

أفتح الباب فأجد شقيقي الصغير أمامي ذاهبا إلى الحمام ..أمر على أمي فأجدها أنتهت لتوها من تنظيف الممبار الذي طلبته منها إحدى الزبائن ..أتبادل معها كلمات قليلة ثم أتركها تستريح قليلا على فراشها.

لا ترانا مجتمعين إلا عندما يحل الليل وترى أسرتنا الكبيرة اجتمعت معاً لتناول العشاء ثم النوم ..ثلاثة أشقاء من الذكور وأربع من الإناث..

يتكدس كل نوع فى غرفته ورغم عددنا الكبير الذي يدهش الجميع إلا أننا لا نتبادل عبارات كثيرة وقد تمر أيام وليال دون أن أعلم عن بعض إخوتي أخبارهم ..أتذكر تعليق صديقي عندما دخل منزلنا لأول مرة أنه يشبه الحافلة وقت الذروة ..أظل فى مكاني على أريكة الصالة أتابع بعين شاردة أحداث المسلسل..يذهب الجميع للنوم وأبقى بمفردي.

يستدعيني الدكتور «يحيى» بعد آخر المرضى ويبدأ فى الحديث فى شئ من الحرج..

«أنا نبهتك أكثر من مرة انك تقلل الرغي مع الزباين..كذا زبون اشتكى»

لا أدري بما أرد فأعتذر وأعد بعدم تكرار الأمر مرة أخرى ..ينظر لي طويلا فأدرك أنه قد اعتزم شيئا ما

« حيتكرر يا «زين» وأنا عارف أنه غصب عنك..بس دة مينفعش فى نظام العيادة ..خصوصا تهريجك الزايد مع الزباين»

أظل صامتا حتى يفرغ ما عنده ..يخبرني وهو ينظر إلى ملفات على مكتبه أنه يتمني لي حظا أفضل فى وظيفة أخرى ويشكرني على العام الذي أمضيته فى العيادة..يطلب مني المفاتيح فأخرجها سريعا وأنا مازلت أحاول استيعاب ما يحدث ..يعطيني راتبي ومكافأة مالية ثم يربّت على كتفى ناصحا إياي أن أحاول التخلص من هذه العادة الذميمة.

عفاف «٤»

أتأمل شروق الشمس ..تمر اللحظات القصيرة الثمينة ليبدأ يوم جديد لكنه لا يحمل معه أي تجديد.. اتأملهم وهم نائمين "عبده" على الأريكة و"سهام " و" أميرة " على الفراش متجاورتين ..أود لواوقظهم كي أنتهز تلك السويعات القليلة فى الجلوس معهم والتمتع بأحاسيس افتقدها منذ سنوات ..لكم افتقدهم ..تمتد يدي إلى كتف "سهام" ألمسه برفق لعلها تستيقظ فأتبادل معها أطراف الحديث لعل المسافة بيننا تتقلص لكنها لا تنتبه وتكمل نومها ..مسكينة فهى بالتأكيد متعبة ..أولعلها تحيا حياتها الحقيقية فى أحلامها حيث تحقق فيها كل ما تعجز عنه فى الواقع.

نتناول الإفطار معا والصمت قد فرض سيطرته الكاملة على مجلسنا لا يقاومه سوى قفشات «"عبده" التي يحاول إضحاكنا بها..تبتسم "سهام" وتطعم أختها ..تسألني «أميرة»:

- «ماما هو ابيه محمد مش حيرجع بقى؟»

أتمتم بكلام لا معني له فتجيبها «سهام» أنه سيصل فى القريب العاجل وتطلب منها أن تكمل طعامها

«أنا نجحت يا ماما»..يقولها "محمد" وهو يكاد يقفز من الفرحة.. بقي معايا بكالوريوس تجارة قد الدنيا ..احتضنه وأشعر بالفرحة لأول مرة منذ وفاة والده ..» احتفالا بالتخرج أنا عازمكم على عشا فاخر بره»..يدفع «سهام» ويطلب منها أن تغير ملابسها «يا لا يا ماما مفيش

حد حيقعد كلنا حنخرج»

أتأكد من إخفاء ملابس العمل جيدا بعيدا عن أعين «سهام» التي لم أعد اتحمل الأسئلة التي تعج بها ..أرقبها وهى تستعد للذهاب للعمل فأخرج خطابات "محمد"من خزانة الملابس وأبدأ فى إعادة قراءتها حتى يحين موعد العمل.

أعد المناديل الورقية التي أناولها لمن يدخل الحمام ..وأتأكد من أن الأحواض جافة والمرآة نظيفة ..أقرأ عناوين الأخبار فى بعض الصحف

آلاف المصانع الصغيرة تغلق أبوابها»

أزيح الجريدة جانبا

يسعل أبو "محمد" بقوة وهو يمسك بجانبه من الألم ..تدمع عيناه قليلا بعدما سرّحوه من العمل فى ذلك المصنع «خدوني لحم ورموني عظم»..أشد على يده ونحن بإنتظار دورنا فى الكشف ..

ينتهى الطبيب من الفحص وهو يضم شفتيه .. «مخبيش عليك يا حاج..الورم بدأ ينتشر ..لكن مفيش حاجة كبيرة على ربنا»

تدخل فتاة ترتدي جونلة قصيرة وبلوزة بلا أكمام ..أراها كثيرا ..تدخل الحمام لتعدل شعرها وتضع المزيد من المساحيق ..ألحظ دخولها المتكرر فى المرات السابقة وكنت أكذّب نفسي لعله تشابه الوجوه ويخلق من الشبه أربعين.

لكن لم يعد هناك مجالا للشك فالأمر يتكرر بصورة شبه يومية ولكنها لا تلحظ نظراتى لها؛ تخرج من حقيبتها الصغيرة إصبع أحمر شفاه لتصبغ شفتيها بلون أحمر قرمزي ..اتابعها بنظراتى فألحظ غشاءا رقيقا من الدموع يغلفها رغم أنها تجاهد كي ترتدي قناع اللامبالاة إلا أن عيناها

تفضحها وتبرز حزنا عميقا يكاد ينفجر ليغرق وجهها بالدموع .

تتوقف يدها عن صبغ شفتيها للحظة وألمح نظرتها فى المرآة تتبدل ويقترب حاجباها من بعضهما البعض ..تري أهذه نظرة احتقار أم أن عيناي تخدعانني ..تعيد إصبع أحمر الشفاة إلى حقيبتها وتهرع إلى إحدى غرف الحمام مسرعة ..تدخل فتاتان تتحدثان معا لكني رغم حديثهما استطيع أن أميز صوت نهنهة قادمة من الغرفة التي دخلتها الفتاة.

تخرج مرة أخرى ولا يظهر عليها أثرا للبكاء سوى خط أسود من الكحل تحت جفونها تزيحه وتعيد وضع طبقة جديدة ..تتلاقي أعيننا للحظة فتطيل النظر إلي ..نظرة طويلة خاوية بلا معني..تنتهى من زينتها فتمر سريعا وتلقي نظرة أخيرة لي لا أدرك معناها..لعلها رسالة فشلت فى فك شفرتها.

أحاول أن اطرد الأفكار السيئة التي اقتحمت تفكيرى؛ ما الذي يأتى بها بصورة متكررة إلى المول؟ وحملها لحقيبتها معها يدل على أنها ليست عاملة فى أحد المحلات ..كما أن ملابسها أيضاً ملفتة وفاضحة فى أحيان آخرى....تزداد الأفكار سوءا برأسي فألوم نفسي « إن بعض الظن اثم.. ربنا يستر على ولايانا»

تدلف" أمل" فى غير موعدها ..تحييني وتجلس صامتة بجوارى.. احترم صمتها لدقائق حتى المح بدايات أنهمار الدموع من مقلتيها ..اسألها عن سبب البكاء وان كان الاستاذ "مصطفى" قد ضايقها تهز رأسها نفيا ثم يتهدج صوتها قليلا ..تتنفس بعمق ثم تمسح دموعها

-» النهاردة سنوية والدي..تلاقيهم عملوا ليلة أمبارح»

ينتهى العمال من تحميل قطع الأثاث لبيعها تاركين الفراش وبعض القطع الأخرى "سهام" تتابع ما يجري بوجه متجهم وعيون زائغة .. يعود "محمد وعبده" ليتسائلا عما يجري ..أتركهم وأدخل إلى "أبومحمد" الذي يرقد فى فراشه ..اتأمله بجسده الضامر عدا بطنه المنتفخ «استسقاء الغشاء البريتوني» كما وصفه الطبيب ..أحاول السيطرة على دموعي وأنا أقارنه بما كان عليه قبل عام واحد فقط.. يفيق من نومه فأمسح دموعي سريعا؛ أجلس بجواره لاناوله الدواء فيلحظ أن العلبة قاربت على الانتهاء «ولا له فايدة الدوا احسن أنه خلص» أخبره أني سأبتاع علبة جديدة .. «حانضحك على مين يا عفاف ؟ ما احنا عارفين أنه خلاص كلها أيام» يقولها ويسعل بقوة

«الرجل أخد العفش ؟» أهز رأسى فيلوي رأسه الناحية الأخرى ليخفى عني دموعه

تهدأ "أمل" وتبدأ فى الحديث لكني أشعر أنني من أصبح لا رغبة لديه فى الكلام تسألني عن "سهام" و"محمد" وإن كان أرسل خطابات جديدة

أنسي الحزن قليلا « قال أنه سمحوا له بإجازة فى أول فبراير وبيقول جايب أجهزة وحاجات حلوة كتيرة ..وحشني أوي»

تدخل إحدى الزبائن فلا أقدر على القيام ..تتناول مني "أمل" المناديل وتمدها لها تنظر الزائرة بدهشة إلى قدمي فتتابع" أمل" نظرتها وتبدي أنزعاجها من حالة قدمي وتسألني إن كنت أواظب على الإنسولين أم لا وعن رأى الطبيب فى تدهور الحالة هكذا؛ أخبرها أني لم أعد أذهب إلى المستوصف فلا يوجد من يهتم وأنا لم أعد أشعر بساقي كما السابق إلا فى بعض الأحيان يزيد الألم لكنه يخفت بعدها..تعبس وتخبرني أن

فقداني للإحساس بالألم قد يكون خطرا فى حد ذاته فأحاول أن ألهيها قليلا فاسألها عن عن حال الدار وهل وجدت سكنا آخر أم لا.

تضحك وتخبرني أنها تحاول التأقلم مع الوضع وأنها لن تجد سكنا آخر بنفس الثمن القليل ..نصمت قليلا ثم تسألني بغتة عن سبب وفاة أبو"محمد"

- «سرطان بعيد عنك..كان شغال فى مصنع اسمنت ومواسير وفجأة تعب مرة واحدة ..أصمت قليلا ثم أكمل:

- «الدكتور قال أن المرض عنده من أكتر من عشر سنين وفضل يزيد عليه كان اسمه سباستوس باين»

تشهق "أمل"

- « قصدك الأسبستوس يا دادة..يا خبر»

- «جيت متأخر يا حاج الرئة مليانة بألياف الاسبستوس والسرطان انتشر دة وصل للحنجرة كمان ..المصنع إزاي ميعملش عليكو كشف دوري؟ وفين الأمن الصناعي؟

يضحك "سيد" بتهكم فتنتابه نوبة سعال قوية ..يهدأ ويرد

- أمن صناعي ؟ دول سرحوني بعد ما تعبت

يتناول منه الروشتة ..يحاول الطبيب تقديم أي مساعدة فيقترح علينا أن نرفع قضية نطالب فيها بالتعويض من المصنع..يضحك "سيد" ويمضي مستندا على ذراعي

- « المحاكم عندنا حبالها طويلة»

تعاود أمل تساؤلها إن كنا قد رفعنا قضية تعويض كما فعل عمال كثيرون

فأتذكر ضحكة أبومحمد وأجيبها بنفس لهجته « رفعنا بس المحاكم عندنا حبالها طويلة».

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

يزدحم الحمام ..أشعر بحرقان يجتاح قدمي يعقبه خدر يسري بها.. استشعر الخوف من كلام "أمل" لعله لابد أن استشير طبيبا آخر فقد لا أتمكن يوما من الحضور للعمل ويتم خصم أجرة اليوم و"أميرة" و"عبده" فى حاجة لكل قرش ..أزجي وقتي بقراءة أحد الكتب القديمة ل"سيد" وجدته مصادفة أمس ..الكتاب الوحيد الذي نجا من بائع الروبابيكيا.. أتحسس بأصابعي العلامات التي كان يحدثها بقلمه على بعض الفقرات والرسوم التي كان يرسمها فى الهامش ..أقلب الصفحات حتى تقع عيناي على صورة رسمها لي بالقلم الرصاص ..تدمع عيناي قليلا وأشعر بالاختناق

أنتبه على صوت مدام "عايدة" التي لم أشعر بها؛ تلقي تعليقا على تورّم قدمي وتبدي تخوفها هى الأخرى ..تسألني عن أحوالى ثم تنتهى من زينتها ..أتردد قليلا فى طرح طلبي ..أشعر بالخجل الشديد ..تهم بالرحيل فأسارع بسؤالها إن كانت لديها أي وظيفة لـ «سهام»

تفكر قليلا وتسألني عن مؤهلها الدراسي

- «تجارة زي أخوها»

تفكر مرة أخرى وتخبرني أن الفتاة التي كانت تعمل لديها سترحل الشهر المقبل وإن كانت "سهام" تستطيع أن تتولي حسابات المحل مكانها..أرد فى حرج أنها لا تعلم بأمر عملي بالمول ..وأطلب منها أن

تحاول أن تبحث لها عن عمل خارجه..تعدني بالبحث لدي معرفها وتسألني فى جدية إلى متي سأخفى عملي بالمول عنها

لا أجد ردا فتعدل من ملابسها وتكلم انعكاسي فى المرآة وهى تمد إلى بكارت تخبرني أنه لأحد أقاربها الأطباء كي يفحص قدمي قبل أن يزداد الأمر سوءا

أتحامل على نفسي وأقوم لتنظيف الحمام من جديد؛ تدخل زائرتين تكمل إحداهن حديثها

«تالت واحد وترفضه برضه مش عارفين نعمل معها ايه؟»

تفتح «سهام» الباب بعنف وهى عائدة ليلا بعد أن جلبت لنا العشاء تزفر بقوة ولا أفهم حرفا من كلامها ذي الحروف المختلطة تخبرني أن إحدى الجارات استوقفتها وأخذت تسألها عن أحوالنا وتثني على أخلاقها وحسنها الذي ورثته مني .

تصرخ فى غضب «وأنا إلى كنت فاكراها بتجامل»

تكمل أنها سألتها إذا كانت ترغب فى الزواج من أحد الأثرياء العرب..» ومش مكسوفة تقولي أنه حيدفعلى مائة وخمسين ألف لما يطلقني» تنتابها حالة من الهياج فيختلط كلامها بالبكاء ..أقف مشدوهة وأنا اتأمل شقتنا المكونة من غرفة واحدة وصالة وأنسحب من أمامها «فينك يا أبومحمد تشوف إللى جرالنا من بعدك».

أستمر فى قراءة الكتاب وأنا اتابع بنصف انتباه ما يدور داخل الحمام فالزوار يدخلون ويخرجون ..لحظات صمت يعقبها لحظات صخب ..

تدخل إحدى السيدات لا أنتبه لها إلا عندما تتحدث مع الطفل بلغة عربية غريبة أرفع عيناي إلى وجهها فألمح ملامح شرق أسيوية ..العيون

المسحوبة والبشرة الصفراء ..تمسك بيد الطفل الصغير لتدخله إلى إحدى غرف الحمام .. هؤلاء إذن الشغالات الأسيويات اللاتى كنت أسمع عنهن..تخرج لتنظيف الطفل وتغسل وجهه ..تلحظ نظراتى المتفحصة فأخفض رأسي قليلا.

..يتملكني الفضول فأرفع نظري من جديد ..أجدها تقوم بدور الأم للطفل الصغير ..فأين أمه إذن؟ وما الذي تقدمه له إذا كانت لا تقوم بأبسط واجباتها نحوه؟..ألحظ تعلّق الطفل بالخادمة وهويمد يده الصغيرة لها فتمسكها ويخرجان معا من الحمام ..لحظات أستمر فى النظر لباب الحمام ثم أرجع من جديد لأتصفح الكتاب عاثرة بين الصفحة والأخرى على علامة أحدثها "أبومحمد" تعيد إلى طوفان من الذكريات القديمة .

على «٤»

.تدندن "مرفت" إحدى الأغاني الحديثة وهى تعبث بهاتفها المحمول.. أمر أمامها وأنا أنتهى من تنظيم آخر صفوف العربات ..فأسمعها توسوس لي من بين اسنانها كي أقترب؛ تسألني عن مقابلة العمل وإذا كنت ظفرت بالوظيفة التي تقدمت لها فأرد:

- «ولا حاجة قإلى حارد كمان اسبوع وفات تلات أسابيع ومفيش حاجة ..وقريبي أختفى ومش بيرد علي »

تضم شفتيها معا أسفا ثم أسمع تعليقا هامسا من "سماح" أرادت أن تسمعني اياه

- «طبعا فى حد يشغل واحد خمسة طن »

لا اعبأ بالرد..أتردد قليلا ثم اسأل "مرفت" إن كان خطيبها استطاع أن يجد لي وظيفة جيدة تتبسم حرجا وتجيب أنه شخصيا لا يضمن استمراره فى الوظيفة تري ملامح الضيق على وجهى فتسألني وهى تدير دفة الحديث لاتجاه آخر؛ تسألني إن كان لدي أخوة فاهز رأسي نفيا

- «كان لي أخ بس مات وهوصغير »

- «تلاقيك كنت بتاكل أكله» تقولها "سماح" فأبتعد عنهما كيلا أسمع المزيد ..أمر على قسم الألعاب فألمح حصانا صغيرا.

ألمح طرف إحدى الألعاب يخرج من خلف خزانة الملابس بغرفة والدتي أجاهد كي أخرجه وأهرع به إليها ..تراه بين يدي فيتجهم وجهها قليلا وتشرد بذهنها وهى تمنع دموعها من الانهمار .. «ده كان بتاع أخوك الله يرحمه» ترى اندهاشي فتجرني خلفها

- «أنت كنت لسه مولود » تقولها وهى تخرج بعض الصور التي أرى فيها أمي مع أخي فى يوم سبوعه ثم وهو يرتدي ملابس المدرسة «دي فى أول يوم له فى المدرسة» تسكت قليلا .. «تاني أسبوع خبطته عربية.. الله يجازيه إللى خلاني أشوف ابني ملفوف بورق جرايد وسايح فى دمه»

تشرد أمي فأدرك أنها لم تعد تحدثني إنما هى تخرج ما بها من مشاعر ظلت سجينة طويلا ..تكمل : «يعني أخوك عند ربنا»

أرد مسرعا «عند ربنا زي بابا ؟» يعبس وجهها «أبوك مش عند ربنا ..ده اتجوز وسافر بلدهم» أرد مندهشا «إتجوز ؟..هو مش متجوزك انت؟»

تنزلني من فوق قدميها وتهرع إلى غرفتها ..أقف خلف الباب أقرعه وأنا أسمع بكائها من الداخل ..أسمع مواء القط الحزين فأدرك أن جارتنا تعذبه من جديد

- «افتحيلي يا ماما ومش حاعمل كدة تاني»

تستمر فى البكاء فأبكي أنا الآخر وألتصق بالباب خوفا ورعبا

يحييني "أسامة" عامل النظافة وهويمسك بالجاروف والممسحة ويلملم أي غبار على أرضية الماركت ..نتبادل المزاح لثوان ثم يخبرني مبتسما أنه حصل أخيرا على تأشيرة السفر لأحد دول الخليج العربي ويحثني أن أقدم أوراقي قبل أن تضيع الفرصة

« ..حتقبض بالدينار الكويتي حد طايل»

أتناول منه الممسحة ذات الشكل الغريب

« يعني أنت رايح تشتغل مدير ..مانت حتشتغل فاعل بهدلة زي هنا»

- «بهدلة بس حيدوك فلوس ..هنا حتتبهدل ومن غير فلوس كمان»

أراجع كلامه ..لحظة ضعف تمر بي ثم سرعان ما أتذكر "سهام" وكيف تأتيني القدرة على الرحيل وأتركها لا أدري عنها شيئا أردد هامسا:

« على الأقل اسمك بتبهدل فى بلدك»

يضحك بقوة وهويمسك ببطنه

- «مقتنع أنت باللى بتقوله دة؟ بذمتك حاسس أنها بلدك فعلا؟ لينا حاجة فيها بلدك دي؟..دي بلدهم يابني مش بلدنا ..اعقل وفكر آخر معاد تقديم الأربع»

يتناول مني الممسحة ثم يمضي وهويغني فرحا ..أتأمل صف مساحيق الغسيل المستوردة وأنا استرجع كلامه مرة أخرى

اهز رأسي كي أنفض منه أثر كلامه « اخزي الشيطان يا علي «

..استمر فى عملي وإعادة ترتيب البضاعة وإذ فجأة بصخب يأتى من خلف أحد صفوف المعروضات ..أتبع فضولي ..فأرى جمع كبير من زبائن الماركت يهرعون خلف أحد العاملين الذي يدفع أمامه عربة كبيرة محملة بأجهزة إليكترونية ..أتعجب من هذا المشهد حتى ألمح كلمة» تخفيضات» على العربة.

أتأمل تدافع الناس ومحاولة كل فرد أن يمد يده لتصل إلى أحد الكراتين قبل غيره ..يتبقي ثلاث كراتين فقط فيتقاتل نفر قليل من الزوارعليها..حتى يحصل عليها أكثرهم قوة وأسلطهم لسانا ..يحملون الكراتين ظافرين إلى

عرباتهم وعلى شفاههم ابتسامة النصر يدفعون العربة وهم يعدلون من ملابسهم التي تجعدت من أثر القتال ..استدير برأسي فألمح العامل الذي أتى بالكراتين يمضي بالعربة فارغة؛ أتناولها منه وأنا اسأله عما تحويه هذه الكراتين

« كاسيت هاي فاي ..عليه تخفيض» ..ثم يتبع كلامه بابتسامة هامسا

- «كلمة فى سرك ولا عليه تخفيض ولا حاجة ..بس هى الناس بتجري ورا كلمة تخفيض من غير ما يبصوا على قيمة الحاجة تستاهل ولا لأ ..علم إدارة يابني»

يبتسم ويرحل فأضحك أنا الآخر وأنا استرجع كلامه وأدفع أمامي العربة التي اختفت ما بها من بضاعة خلال أربعين ثانية لا اكثر

..كل هذا التقاتل من أجل جهاز كاسيت والغريب أن بعض الزوار حال ثيابهم وأخذيتهم يدل على تواضع مستواهم المادي ورغم ذلك أعمتهم كلمة تخفيض ومشهد التهافت على الشراء فأقبلوا يهرولون مع غيرهم ليظفروا بهذا الجهاز حتى لولم يكن بهم حاجة له ..فحقا هى كلمة سحرية تلك ..»تخفيض»

استعيد سؤال "مرفت " عن إخوتي ..لم كان ردي بالنفى رغم علمي أن لي أخوة غير أشقاء ..كل ما أتى بذهني لحظتها هوشقيقي الراحل الذي لا أعرف عنه سوى صوره الثلاث لدي أمي ..أما عن أخوتي فلا أعلم عنهم هم الآخرين شيئا سوى أسماء أول اثنين منهم ..فبعد انقطاع أبي عن زيارتنا بعد زواجه بعامين وأنا فقدت كل اتصال به وبإخوتي فلا أعرف هل ازداد عددهم أم لا

أمي توقظني فى ساعة متأخرة من الليل وتخبرني بقدوم أبي بنبرة حزينة «جه يشوفك» أقفز من فوق فراشي واستبدل ملابسي بسرعة لعله لو رآني مهندما يأخذني معه لينزهني ..أراه واقفا بجوار الباب فأتجه إليه يصافحني فأشرأب بثغري نحوه كي ألثمه لكنه لا ينحني ..أتراجع وأنظر خجلا إلى قدميّ ..يسألني فى عجالة عن أحوال الدراسة ..لا ينتظر إجابة ..يشير إلى لفافة فوق المائدة

- «بتحب الكمثري جبتلك منها»

أنظر إلى أمي أجدها تبتسم تهكما ..أخجل من أخباره أني لا أحبها.. أسأله عن إخوتي ..فيجيب باقتضاب «كويسين» أسأله لم لا يأتون لزيارتنا فيزفر ضيقا

«عندهم مذاكرة»

تتدخل أمي لأول مرة فى الحديث «الظاهر أن أبوك كمان عنده مذاكرة»

- « مافيش داعي للكلام ده يا زينب»

- « مافيش داعي لحاجة أبدا ..أديت الواجب وأرتحت ؟»

أنتبه وسط حديثهما إلى أني لا أرتدي حذاءا ..يربت أبي على رأسي وهو يهم بالرحيل « ذاكر كويس ..مش عاوز حاجة؟» يقولها وهو يهبط درجات السلم فلا يصله ردي «أيوة عاوز..»

- «هو مخدنيش معه عشان مش لابس حلو ..المرة الجاية حالبس حلو ومش حأنام لحد ما يجي» تقودني للفراش وهى تتنهد بحرارة

انتظرت المرة القادمة لكنها لم تأت أبدا.

أفيق على صوت الشاطور الذي يمسك به عم " شوقي" العامل بقسم الأسماك وهويفصل رأس إحدى الأسماك العملاقة ..يلوح بالشاطور

فأقترب لتحيته ..يشير إلى السمكة الكبيرة

- «شايف من زمان الواحد مشافش حاجة محترمة زي كدة ..عارف فى السويس وأنا صغير كنت أطلع مع أبويا ..صياد بريمو ..ديب يا علوة.. مايرجعش إلا وهو مصطاد قد السمكة دي ثلاث مرات»

يهوي بضربة أخرى من الشاطور ليقطع جذعها إلى نصفين؛ أرى قطرات العرق تتفصد من جبينه و يكمل:

- «كان لازم كل أسبوع يعزم الصيادين على أكلة صيادية معتبرة.. كانت أيام..قبل الحرب ما تقوم ويضيع أبويا فيها هو والمركب ونتهجر على مصر»

أسأله أن كان مشتاقا للصيد والبحر وذكريات الصبا

يبتسم وهويلتفت حوله « بيني وبينك أنا كنت خيبة فى الصيد معنديش صبر زيه ..كنت بأقطع السمك برضه زي دلوقت..إنما هوكان ديب دييييب!»

أضحك فيشير إلى قطع من الجمبري

- «كان يطلع معانا من غير تعب ..وكان بيتباع بتراب الفلوس زمان.. أيوة زي ما بقولك ..كان أبويا يحطه زيادة على السمك للزبون»

اتأمل الجمبري الذي يبلغ الكيلوالواحد منه ربع مرتب الشهر ..أرى عضلات ساعديه القوية رغم سنه المتقدمة تتوتر والعرق يسيل بين شعيرات شاربه الأبيض الكث ..اسأله إن كان يشتاق للسويس فيتوقف قليلا عن التقطيع ويشرد بذهنه بعيدا

-: رحتها من فترة معرفتهاش ..السويس بتاعت زمان راحت مع

الحرب»

يستمر فى التقطيع وأدرك أني عكرت صفو مزاجه وأنه رحل بعيدا إلى حيث مركب الصيد القديم.

- «مش السويس بس إللى راحت مع الحرب يا عم شوقي»

يبتسم بمرارة وينظر لي شاردا وأرى على عينيه غشاوة من الدمع مالحة كمياة بحر السويس حيث مازال يعيش هناك بروحه أما جسده هنا يقطع الأسماك العملاقة للزبائن.

أجمع العربات الفارغة التي تركها أصحابها وأضمهم معا ..أرى إحدى الزائرات الأجنبيات تقف أمام صف من الخضروات وهى تمسك ببعض الباذنجان الأسود تتأمله قليلا ثم تعيده إلى مكانه باشمئزاز؛ لعلها لا تدري الباذنجان فى بلدها ولا تعرف أن ملايين يعيشون عليه كغذاء يومي

ألتفت خلفى ريثما يأتى الزبون الجديد ..فألمح محل الكريستالات ببضائعه الأنيقة الفخمة؛ اتأمل المعروضات قليلا.. ألمح أحد الأباجورات التي يتدلي منها حبات الكريستال فتسطع وكأنها شموس صغيرة ..أنسل بعيدا عن الكاشيرة بسرعة كي أراها عن قرب ..لا أدري لم تخيلت "سهام" وهى تمسك بها وتضيئها كما تفعل تلك الفتاة بداخل المحل.. بالتأكيد ستعجبها ..تعيدها الفتاة فأتأملها وألمح الورقة الصغيرة التي كتب بها الثمن ..تتوقف عيناي عن الرؤية بعد الرقم الثالث

«ألف ومتين جنيه عشان أباجورة « اتأملها من جديد فأجدها جميلة بحق ..أشرد بذهني قليلا بين لمعان حبات الكريستال الرقيقة حتى أسمع صوت "مرفت" ينبهني للعودة من جديد.

- « مساء الخير يا سهام»

تنتبه إلى وهى سائرة عائدة من عملها ..ترد التحية وهى تبتسم ابتسامتها التي تذيب معها خلايا عقلي فأعجز عن إيجاد كلمات لها معني ..تتوقف قليلا وأنا مازلت فى حيرة من أمري لا أجد ما أقول

- « أخبارالشغل ايه؟»

ترد أنه يمر بلا تجديد وتتمني لو تجد عملا آخر ..أجاهد كي أتابع كلامها دون أن يظهر توتري ودون أن تلحظ ارتعاشة جانب فمي

- « وأخبارمحمد إيه؟»

ترد بكلام كثير لا أستوعب منه حرفا إلا أن وجهها يتهلل فى آخر جملة فيشرق معها قلبي « نازل إجازة فبراير الجاي» أهز رأسي ..وأفتش فى ذاكرتي عن كلمة واحدة لها معني من المقالات التي أعدتها فى صبر..تمر لحظة صمت فأجد نفسي أسألها من جديد:

«أخبار الشغل ايه؟!»

تضحك بصوت عال يفقدني آخر مقاومتي ومن ثم تحييني وتمضي مبتعدة

تعجز "مرفت" عن معرفة سعر أحد القطع فتطلب مني العودة لقسم الملابس للسؤال عنها .أحاول أن ارفع طبقات الشحم المترهلة وأنا أهرول؛ أدرك أن مظهري مضحك لكل من يرانى أجري وأترجرج بهذه الطريقة ..أصل أخيرا إلى قسم الملابس لأرى سعر القطعة ..أثناء العودة أرى تدافع بعض السيدات على إحدى الصناديق الخشبية الكبيرة التي وضعت بها "تي شيرتات " حريمي وكل واحدة تتقاتل من أجل الفوز بواحدة تضعها فى عربتها وعلى وجهها سعادة المنتصر ..أميل بجذعي لألمح على جانب الصندوق الكلمة التي توقعتها..«تخفيضات»

أمل» ٤ «

شهور الصيف تمر مسرعة ..ويزداد فيها شعوري بالملل بعد توقف الدراسة تمر الأيام بطيئة كئيبة ..أجاهد كي أبحث عن أي تجديد يكسر رتابة إيقاع الحياة اليومية ..استيقظ مبكرا فأجد الشقة خالية ..فالبنات قد عدن لبلدتهن بعد انتهاء الدراسة ولم يعد فى الدار سوى "فاطمة" زميلتي التي جاءت لتوها من العمل وتغط فى نوم عميق ..و"مي " التي رحلت هى الأخرى لعملها ..أجلس قليلا فى حجرة المعيشة المشتركة وأضع براد الشاي على النار كي أتلذذ بكوب شاي صعيدي أثناء متابعتي لأشعة الشمس التي تدلف من بين خصاص النافذة وألمح ذرات الغبار واضحة كثيفة تسير فى خط واحد متتابع ..أشعر بسعادة ساذجة عندما أمني نفسي أخيرا بشراء البلوزة التي ظللت اشتهيها طيلة شهور الصيف فالأوكازيون قد أوشك على الانتهاء ونجحت فى إخفاءها قدر الإمكان عن أعين الزبائن..لعل اليوم يقوم الأستاذ" مصطفى" بتخفيض خصيصا من أجلي.

تحملني خواطري بعيدا إلى حيث أمي وأختي لكم اشتقت لهما.. أغمض عيناي لأتخيل ما تفعله أمي حاليا ..من المؤكد أنها تطعم الدواجن كعادتها صباحا ثم تستعد للجلوس فى حديقة الدار حتى الظهيرة..أغمض عيناي بقوة وأرجع ظهري للخلف ..اتنفس بعمق فأشم رائحة زهرة شجر البرتقال التي زرعها أبي..أغمض عيناي بقوة اكثر فالمح وجه أمي الحبيب

يبتسم عند هبوب نسمة هواء قادمة من الحقول القريبة ..تختفى ابتسامة أمي ويتلاشي وجهها من رأسي؛ أجاهد كي اتشبث بآخر ملمح لها ..لكن ينتهى المشهد وتعود أرجاء حجرة المعيشة تحتل مكان بيتنا الحبيب ..أشعر بأنقباض قلبي والقلق قد بدأ يضع أولي خطواته بداخل حجرات نفسي بثقة وتحفز ..أتحسس هاتفى المحمول؛ تري لماذا تآخرت أمي وأختي فى السؤال عني؟ ليتني استطيع محادثتهما إلا أني أخشي على أختي من عاقبة فعلى هذا.

«اعقلي يا "أمل" عمك لو عرف حتبقى مصيبة»

تقولها أختي وهى تحمل ابنها الرضيع على كتفها

- «مش كفاية رفضتي جوازك من "محمود" بعد رفضك وهو مش عاوز يسمع سيرتك ومفيش عندنا بنات تتكلم فى الحاجات دي»

أزفر بضيق «وهوانا باشحت دي ميراثي وحقي مش كفاية ضيع على مجموع الثانوية كان زماني دكتورة»

تجلس فوق الفراش وتحاول اسكات ابنها عن الصراخ تجاهد كي تثنيني عن رأيي ويناديها ابن عمي الآخر وزوجها من أسفل فتهبط للحاق به

أنتبه على صوت "فاطمة" التي استيقظت لتوها وتناولني كوب الشاي الذي نسيت أمره؛ تجلس بجانبي ..أندهش لاستيقاظها مبكرا هكذا فتخبرني أن اليوم إجازتها ولا تريد إضاعته فى النوم وأعربت عن رغبتها فى الحديث معي قليلا؛ تبدأ فى الثرثرة عن عملها والمستشفى الحكومي الذي تعمل به

- «امبارح مريض قعد يصرخ عشان لقي قطة فى العناية المركزة!»

تقولها وتضحك فأضحك معها « أمال لوشاف البلاوي التانية حيعمل ايه؟»

يمضي دفة الحديث بعيدا فتحكي عن زميلتها التي تزوجت حديثا ومازالت فى إجازة شهر العسل

-» الواحد القطر فاته خلاص « تقولها وهى تتأمل الكوب بيدها.. فأردد بلا اقتناع أنه مازالت الحياة أمامها مفتوحة والمستقبل يعد بكل جميل؛ تنظر لي باستنكار وتجاوب

- « الواحدة بعد ما بتعدي التلاتين خلاص بيروح عليها ..أنتي إلحقي نفسك قبل ما تبقي زي حالاتى»

أخبرها بعدم رغبتي في الزواج وبأني سعيدة ولا أجد ما ينقصني

يسود الصمت لحظات أدرك فيها أني لا أعني حقا ما أقول إنما أريد إقناع نفسي بذلك لمعرفتي استحالة أن يتقبل أحدهم بالزواج ممن فى ظروفى؛ فبماذا أجيب عندما يسأل عن أهلي وسر ابتعادي عنهم ..هل أرد بالحقيقة كما مع " اشرف " زميل الجامعة المفتوحة الذي سألني بتهكم لم يداريه عمن يطلب يدي منه وكيف يقوم بالسؤال عن أهلي ما دام هذا هوالحال بيني وبينهم؛ فستكون هذه كلمة النهاية لقصة لم تبدأ بعد.

تعاود " فاطمة" حديثها من جديد

- « عارفة اتقدملي من إسبوع واحد ..كبير فى السن شوية عندة خمسين ومتجوز وعنده عيال ..بس قال لى أني حايكون لي شقة لوحدي..رأيك ايه؟

تري علامات الصدمة على وجهى فتكمل

- « أنا خلاص مبقاش فى فرص قدامي كثيرة ودي ممكن تكون آخر فرصة»

أحاول اقناعها بأنها ليست مجبرة على مثل هذا القرار الانتحارى وليس عليها أن تقبل بزيجة لمجرد أنها قد لا تجد فرصة أخرى ..لا يظهر عليها الاقتناع

- « بقي عجباكي عيشتنا دي بين أربع حيطان محدش يعرف ولا عاوز يعرف حاجة عننا ؟»

أدرك مقدما أنها ستقدم على ذلك آجلا أم عاجلا ..إنما هى فقط كانت بحاجة لسماع كلمة تأييد مني لم تجدها ..تسألني عن عملي لتغير مجري الحديث كيلا تسمع مزيدا من الاعتراض يزيد من ألمها النفسي أولعلها تخشي الاقتناع بحديثي ورفضي.

أتحسس هاتفى المحمول مرة أخرى فتسألني بمرح إذا كنت فى انتظار مكالمة ما فأخبرها بتأخر أختي عن الاتصال وشعوري بالقلق الشديد؛ تأخذ مني الكوب وترد وهى تقوم

- « اتصلي بيها انتي..بسيطة»

أنهض لأستعد للذهاب للعمل وأنا أردد عبارتها بسخرية « بسيطة « !

- «يخبرني المحامي أن القضية مضمونة وأني سأكسبها بكل تأكيد.. ويخبرني أنه لا يحق لعمي أن يستولي على أرضنا وأنه لا يحق له سوى الميراث الشرعي فقط..اطمئن وأحثه على رفع القضية كي استرجع حقي..يصمت قليلا ويخبرني بالأتعاب المطلوبة..أفزع لفداحة المبلغ وأعده بتدبيره فى أقرب فرصة ممكنة

ترتعب أختي لدي معرفتها وترجوني أن أعدل عن القضية كيلا

يطلقها ابن عمي الثانى وأكون سببا فى خراب بيتها

« تعملي إيه بورثك؟..ناقصك حاجة ؟ لو كنتي اتجوزتي محمود كان كله بقي لأولادنا»

أشعر بالغضب من أنانيتها وعدم تفكيرها فى ضياع مجموعي الكبير فى الثانوية وضياع أملي فى الالتحاق بكلية الطب

- «سمعت أن فيه جامعة مفتوحة وعاوزة أقدم فيها كفاية الأربع سنين إلى ضاعوا»

تمسك بيدي وتحمّلني مسئولية ما سيجرى من مصائب عندما يعلم عمى

أنتهى من ارتداء ملابسي فأهبط درجات السلم مسرعة

أنتهى من بيع كل ما أملك من ذهب وما ورثته عن جدتي ويعدني المحامي من جديد بأننا سنكسب القضية من أول جلسة..

يدخل عمي الدار فى ثورة عارمة أختفى فى حجرتي وأحكم غلقها.. وأسمع تهديده لأمي أنه تبرأ مني ولو رآني خارج المنزل فسوف يكون آخر يوم فى عمري بعد ما تجرأت ورفعت هذه القضية ..أهدئ من روعي ومن روع أمي بعد رحيله وأخبرها أننا سنكسب القضية وسألتحق بالجامعة ولن يقدر على اصابتنا بسوء..لا تأتى برد سوى مزيد من البكاء؛ أشعر بالخوف عليها لكني أتشبث بالأمل.

نخسر القضية من أول جلسة ونخسر الطعن كذلك..لا استطيع التوصل إلى المحامي وأدرك أن عمي قد رشاه ليتعمد أن يخسر القضية.. لم يعد بحوزتي أي مال استأجر محاميا آخر ..أنتهى من قراءة إعلان الجامعة فى الجريدة فأقرر الرحيل إلى القاهرة للعمل والدراسة قبل أن تضيع آخر الفرص..تتوسل إلى أمي وانا أعد العدة للسفر للقاهرة

- « اعقلي ..عمك حالف ما تعتبي البلد لو سافرتي وانتي عارفة قادر ويعملها»

أكمل استعدادي ..اطمئنها أنه لا يقدر أن يمنعني من رؤيتها وأني سآتى للزيارة وقتما أشاء

. «دي آخر فرصة عشان أكمل تعليمي ومش حاضيعها»

أكمل العدة وأحتضن أمي ..تلثمني أختي و إذ بها تهمس بأذني جانبا مستعطفة إياي:

- «انتي عاوزة تخربي بيتي ..جوزي حالف يمين طلاق لوسافرتي ماشوفك ولا أكلمك ..ماتجيش انتي ولا تتصلي ..حابقي أتصل أنا بيكي..متخربيش على ..أرجوك يا أمل»

لم يعد هناك مستقبل فى بلدتي ..لم تعد أختي كما أعرفها كل ما يعنيها غضبة زوجها وخشية طلاقها..تمضي الأيام ومع كل فجر جديد لا أدري هل ما فعلته كان صوابا أم خطأ

أركب الحافلة واتعلق بأحد القضبان الحديدية ..لكم اشتاق إليهما وإلى جلستي أنا وأختي ليلا نتهامس بعد أن يخلد الجميع إلى النوم.

أهز رأسي وأنا اتمتم ..» بسيطة!»

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أمر على بعض المحلات الأخرى قبل أن أصعد للطابق الذي أعمل به وكعادتي أقف قليلا لأتأمل معروضات الذهب والمجوهرات لذلك المحل الأجنبي ..ألمح صاحب المحل ينظر إلى ممتعضا من خلف الفاترينة ..أتجاهل نظراته وأستمر فى تأمل قطع الألماظ المتلألئة وألمح إحدى الزائرات يبدوعلى هيئتها أنها من دول الخليج تدلف لداخل

المحل.

..أتساءل حقا أهناك أشخاص يجرؤون على عبور ذلك الحاجز الزجاجي ليدلفوا إلى هذا العالم بالداخل ..أرحل كيلا اتأخر وأصعد درجات السلم الرخامي فلم أحب أبدا المصعد ..أمر على محل العطور المكتوب على واجهته «العود والعنبر» ..مازلت حتى الآن لا أعرف معني كلمة العود فمن المؤكد أنها لا تعني تلك الآلة الموسيقية فلم ألمحها بالداخل! ..تخرج من أبوابه رائحة بخور خلابة؛ أتمهل قليلا فى سيري كي استنشق منها أكبر كمية ممكنة أختزنها بداخل صدري وأدلف إلى داخل المحل؛ أشعر أني صرت أفضل.

أبدأ فى تغيير ما ترتديه المانيكانات بالفاترينة، مازلت أضحك كلما رأيت الجديدة ذات فروة الرأس الثائرة الهوجاء الأرجوانية

أدندن إحدى اغاني «أم كلثوم» التي كان يحبها أبي وأمسح أرضية المحل ..أرفع المقعد كي أنظف ما تحته.

أسمع دقات على باب المحل فألمح إحدى الزائرات ..أشير إلى الممسحة والمياة فتفهم الرسالة وتمضي وهى تزفر بضيق ..أعيد التنظيف ومازلت أدندن الأغنية ..انتهى من التنظيف فأبدأ فى رص البضائع وأفتح الباب.

أشعر فجأة بذراعين تداعباني فألتفت فجأة لأجد وجه "منى" يبتسم إليّ

- « خضيتك؟»

تقولها وتبدأ فى تفحص المعروضات كعادتها ..استمر فى عملي

وأتجاهل نقدها وتهكمها من طريقة عرضي للمعروضات وأخبرها أنها تعجب الأستاذ "مصطفى"

تلتفت فجأة إليّ

- « هى بس إللى عاجباه ؟ »

تقولها فأشعر برأسي يحترق غيظا من تلميحاتها الوقحة ..لكني أتجاهلها كيلا تستمر فى فجاجتها تسألني مجددا إن كان متزوجا.. فأخبرها أنه متزوج ولديه أبنتان يعشقهما ثم أزفر لعلها تدرك ضيقي بها لكنها تكمل

- «ميمنعش الشرع سامح باربعة»

تقولها وتستدير لتجلس فوق المكتب وتبدأ فى هز قدميها منتظرة إجابتي كي تستمر فى حديثها المسموم هذا ..أستمر فى دندنة اللحن كي أتخلص من آثار كلامها وأعيد رص المعروضات ..أبحث عن بلوزتي الحبيبة أخرجها من مكانها على الشماعة واتأملها للمرة الأخيرة بانتظار قدوم الأستاذ "مصطفى" لأطلب ابتياعها

تعبث "منى " بالأحزمة المعلقة وهى تحاول أن تجذبني للكلام فأرد بعبارات مبتورة ..تعود للحديث عن الأستاذ" مصطفى" من جديد ثم تسألني عن عدد المحلات التي يملكها

أمط شفتاي معلنة جهلي فتزفر وهى تهم بالرحيل وقد أيقنت أنها لن تحصل مني على إجابة شافية

- «خليكي كدة خيبة»!

أتأمل الزجاج الملون فى نهاية الردهة وأتابع ضوء الشمس الذي يتخلله

فتدخل أشعة الشمس بألوان مختلفة تعطي ظلالا فى منتهى الروعة..تمر بي إحدى عاملات النظافة تدفع العربة أمامها وهى تخفض بصرها للأرض باحثة عن أي غبار أو ورقة أسقطها أحدهم ..أحييها فلا تنتبه إلى؛ تستمر فى سيرها وعيناها على الأرضية تدور فى محجريهما بسرعة وهى تفتش الأركان عن أي مخلفات ..أهمس لها من جديد وأرفع يدي كي تنتبه إليّ فلا تلحظ أيضا ..أدرك أنها اعتادت خفض بصرها لمدة طويلة فنست كيف ترفعه ..وأصبحت لا تلحظ شيئا حولها سوى رخام أرضية المول..لم تعد تعرف سوى عملها الذي يتلخص فى تنظيف الأرض فأختصرت عالمها بين مربعات الرخام وأسفل الأبواب وبات نظرها سجينا بين الأحذية التي تمر بها لرجال وسيدات وأطفال.. ولا تري سوى أرجل أصحابها الذين لا يجرؤ نظرها على الإرتقاء لرؤية وجوههم..أولعلها لا ترغب فى رؤية هذه الوجوه..اتأملها وهى تكمل سيرها حتى تختفى خلف إحدى الدورانات.

أسمع وسوسة "سمر" التي تعمل بالمحل المقابل فأحييها بإشارة من يدي وأدلف للداخل كي ألبّي طلبات الزبونة التي دخلت لتوها المحل.. تتفحص كل المعروضات ولا تعجبها فتسأل عن قطع معينة أخرج لها كل الملابس التي على الرفوف فتبدي ضيقا شديدا « مش إلى بدور عليه برضه»

أخرج لها باقي المعروضات علّها تجد ضالتها فتلقي بآخرالقطع بإهمال وهى غاضبة « مفيش حاجة عندك عجباني «

تقولها فأكف عن المحاولة إذ أدرك أنها تبحث عن شيء غير موجود ولا تدركه هى شخصيا ..ترحل أخيرا فأتأمل الملابس التي خرجت كلها من على الرفوف وعلى إعادة ترتيبها من جديد.

يدلف الأستاذ «مصطفى» ومعه ابنته التي لم أرها سوى مرة واحدة.. أهرع إلى تحيتها فتمازحني بخفة وتجلس بجوار أبيها

- » نقي الهدوم إلى انتي عاوزاها..ومعاكي أمل حتساعدك»

يقولها وهويمسك بالهاتف ليجري إحدى المكالمات

تبتسم إلى ابتسامتها الجميلة وتبدأ فى تفحص المعروضات ..تنتقي بعض الجونلات والسراويل أحمل لها الملابس خارجا حتى تنتهى من قياسها داخل غرفة القياس ..تستقر على بعض السراويل وتخرج لانتقاء بعض البلوزات فأتوجه إلى الاستاذ «مصطفى» كي يقوم بتسجيل البيانات لديه على الحاسب ..أضعها داخل الأكياس وأعود لها ..أجدها تمسك ببلوزتي الأثيرة وتناولني إياها كي أحملها لها فأتنفس بعمق كيلا تلاحظ صدمتي ..تنظر لي بدهشة حين تطيل من مد يدها إلى فأحمل عنها البلوزة وأعتصرها بين يديّ وأنا أبتسم لها مجاملة ..تستمر فى الانتقاء وتأمل المعروضات وأنا أشعر بغصة فى حلقي تزداد مرارتها كلما تحسست البلوزة بيدي ..تأخذها من بين يدي لتقيسها وأدعوالله وأنا أغلق الباب خلفها ألا يناسبها القياس

تتأخر فى القياس بالداخل فأزداد توترا وضيقا ..أنظر للأستاذ «مصطفى» فأجده مشغولا فى الحسابات ..أعيد النظر لباب غرفة القياس وكلي لهفة.. هل تأخرت حقا أم أنني من يتخيل ذلك؟ تخرج أخيرا وتناولني البلوزة مع قطع أخرى تريده؛ أتناولها منها ويفلت السؤال من بين شفتي :

- «حاتخديها؟»

تبتسم وتومئ برأسها موافقة فأعيد السؤال من جديد دون وعي:

- «لازم تأخديها؟»

تتوقف عن الابتسام وترفع حاجبيها بدهشة حقيقية فأتناول القطع بسرعة كيلا يلحظ الاستاذ "مصطفى" ذلك الموقف؛ يسجل بياناتها فأضع البلوزة داخل أحد الأكياس

مع باقي القطع وأنا أمنع نفسي من البكاء؛ أفتح الكيس وألقي على البلوزة نظرة أخيرة؛ تخبر أباها أنها سترحل فيسألها إن كانت ترغب فى شيء آخر ..تطلب منه مالاً لأنها ستتنزه مع أصدقائها قبل العودة

- «بس متتآخريش»

يقولها وهويلثمها تمر بجانبي فتحيني بابتسامتها وتشكرني

- «العفو» أقولها فتخرج مني متهدجة فأسارع بالابتسام قبل أن تجد دموع الحسرة طريقا خارج عيوني.

زين « ٣»

الإجازة الصيفية فى أوجها والمول فى ازدحام دائم..حرارة الجو بالخارج تجعله ملجئا لمن يرغب أن يتنزه ويمضي وقتا طيبا فى مكان مكيف ويمتع عينيه بمشاهد المحال الفخمة والديكور الغربي الأنيق الذي لا نراه سوى فى التلفاز ..كنت أحب المكان أول الأمر بل كنت مبهورا لدرجة تجعلني لا أكف عن تأمل كل ما حولي فى ذهول وكنت أشعر بالخجل الشديد من مظهري المتواضع هذا وأنا أعبر بوابة هذا العالم.. لكن الشعور لم يلازمني طويلا سرعان ما وجدت فيه سطحا براقا لامعا لكنه أجوف من داخه ..باردا لا يحمل أي روح على الإطلاق ..ولا يفتح أبوابه سوى لفئة تستطيع أن تدفع هذه الأبواب بثقة فى الذات وثقل فى الجيب ..يدلف مجموعة من الرجال رتدون جميعا بذلات أنيقة ويتحدث اثنان منهم عن إمكانية أن يدخل البنك شريكا معهم فى المشروع..فيهز رأسه فى غير اقتناع ويطلب من زميله أن يعيد التفكير مرة أخرى ثم يضرب له مثل لأحد الأشخاص..يتوقف المصعد فلا أتمكن من متابعة باقي القصة..يمضون جميعا إلى أحد المطاعم ذات الاسم الأجنبي ..أنتظر لثوان ثم أهم بالهبوط عندما تشير لي الفتاة التي تعمل فى محل الملابس الشهير..تدلف إلى الداخل وتضغط بنفسها على زر الطابق الأرضي دون أن تتبادل معي ولوكلمة واحدة طوال عملي بالمول..تتعامل معي بأنفة وتعالى لا مثيل له ..فى أول الأمر شككت أنها صاحبة المحل من مظهرها

الأنيق وشعرها المصفف بعناية وكلامها القليل الذي تخرجه من أنفها فى أنفة واضحة..ثم أندهشت لدي معرفتي أنها عاملة المحل ..فلِم كل هذا التعالى وبخلها عليّ حتى بتبادل بضع كلمات بسيطة.

..ينفتح باب المصعد فألقي عليها التحية فلا تردها كالمعتاد ..استند بظهري إلى باب المصعد وأتطلع إلى النافورة الجميلة واتأمل الزوار وهم يتسابقون للجلوس حولها .ثلاث فتيات يحتضن بعضهن البعض ويبتسمن لرابعة تلتقط لهن الصورة من هاتفها المحمول ذي الكاميرا.. فتي وفتاة فى عمر الزهور يجلسان أمامها ويتطلعان إلى الماء الذي يتدفق منها..اتأملهما قليلا وأشعر بابتسامة تشق أطرافها إلى ثغري .لا يتحدثان ولا يلتفت أحدهما للآخر فقط يتأملان الماء دون أي حركة..

يروي «شهاب» قصص غرامياته ومغامراته علينا فأبادر بسؤاله عن كل تفصيلة ليعيد الحكي من جديد فأعيش معه فى كل كلمة مما يقول.. يتوقف عن الحكي ولا أتوقف عن استرجاع كلامه حتى يباغتني سؤاله عن حياتى وإن لم أكن قد طرق الحب باب قلبي بعد ..أرتبك ولأول مرة لا يسعفني لساني للحديث ..يبدأ فى التندّر فأشاركه السخرية وأعلل سبب عدم تجربتي للأمر بعد بانشغالى فى أموري الهامة!..يضج الجميع بالضحك وأضحك معهم ونخرج معا من الباب الرئيسي للجامعة بإتجاه موقف الميكروباصات.

يصعد معي زوجان من السياح .يتحدثان بلغة غريبة لا أتعرف منها على أي لفظة إنجليزية..يقف الزوج يتابع المشاهد الصاعدة من خلال الزجاج فاستشعر الغثيان يشق طريقه إلى معدتي..أحبس أنفاسي كما نصحني الطبيب وأبدأ فى عد الأرقام كي ألهى نفسي..تحسنت الأمور بعض الشئ..فكلماعاودني ذلك الشعور الممضي والرغبة فى القئ أسرع بحبس

أنفاسي وأفكر فى أي شيئ يلهيني..أواظب على الدواء الذي نصحني كي يقلل من شعوري بالدوار عند حركة المصعد..لكن ما عجزت عن إيجاد علاج له هوذلك الشعور الموجع بالخوف الذي لا عقل له والذي أشعر به يعتصر قلبي فى قوة فيلجمني فى مكاني ..عندها أشعر بمقدماته خاصة عند هبوط المصعد فأحاول أن ألهى نفسي أو أتحدث إلى الزوار حتى وإن لم يردوا على حديثي..قلت حدتها وان لم تختف تماما ..لكن ليس أمامي سوى الرضوخ لذلك وإلا فلن استمر فى العمل.

أتوقف عند الطابق الثالث ..طابقي المفضل حيث دار السينما لأتابع أفيشات الأفلام والزحام عند شباك قطع التذاكر ..أغلب رواد السينما من الشباب الصغير؛ أتسلي بمتابعتهم وتأمل ملابسهم وتقاليع الثياب الجديدة من السراويل الساقطة و الشباشب ذات الإصبع الواحد ..البعض تجد سرواله الجينز قد مزّق أطرافه وبعض الفتيات ترتدين ملابس ذات تفصيلة غريبة للغاية ..ألمح «محمود» رجل الأمن يتابع الشباب مثلي فأشيرله كي يقترب قليلا فأنا لا أقدر على ترك المصعد..يرد على إشارتي بإشارة مثلها ..فأبتسم وألح عليه أن يقترب قليلا ..يقبل على مهل وبملل واضح بقامته الطويلة وبنيانه الهزيل النحيف..يبتسم نصف ابتسامة فألمح أسنانه الصفراء أسفل شاربه الأسود..أبدأ فى الحديث معه فى تلقائية محاولا جعله يخرج عن صمته الذي يتمسك به ..يرد على بإقتضاب لكنه يظل أمامي فأتحمس للحديث.

..أحدثه عن نفسي وعن عملي السابق ..فيبتسم ثم يضحك عندما يعرف سبب فصلي من العمل ..أسعد للتقارب الذي بدأ يحدث بيننا وأستمر على كلامي بسرعة خشية أن يعود إلى صمته السابق ..أسأله

عن نفسه وحياته فأعلم أنه متزوجا لكنه لايتحدث عن أطفاله ..أتعجب لذلك وأعلق على عدم ارتدائه دبلة الزواج ..فيشرد بذهنه ويبتسم ابتسامة صفراء..فأقوم بتغيير مجري الحديث ..أتحدث عن حال البلد وأجده عاجزا عن متابعة الحوار ..يندهش لبعض الأخبار التي أقصها على سمعه ويصمت عندما أبدي تعلقي عليها..اسأله عن رأيه فيبدأ فى الحديث مترددا أول الأمر ثم يحاول الاستمرار ..ألحظ أنه يتلعثم فى حديثه خاصة عندما أحدق فى عينيه ..فأدور بعيني جانبا كيلا أحرجه وكيلا تزداد لعثمته أكثر ..أهز رأسي وأتركه يتحدث دون أن أظهر له أني لاحظت نقطة ضعفه هذه .يرد على أحد أسئلتي ويبدأ الإجابة فى صعوبة بالغة ..

- «اأأ ..اااأنا..كنت قريت فى الجرنان أن فيه ..إن إن.إنتخ.»

أكمل له الكلمة دون وعي « أنتخابات» يهز رأسه فى غضب يداريه سريعا ..فأبادره بابتسامة عريضة كيلا يزداد حرجه..نتحدث عن الانتخابات وأجده لا يفرق بين أنتخابات مجلس الشعب أوغيرها..أسأله عن مؤهله الدراسي لكنه يهرب من الإجابة عن السؤال فلا أعود له كيلا أفقد حديثا بدأ للتوّ بشق الأنفس..تحين مني نظرة إلى لوحة الأزرار فأجد أكثر من زر يضيء فألوئذح له مبتعدا كي أعود لعملي ويعود هو إلى مكانه المفضل أمام ذلك المقهى.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تدلف فتاة جميلة ترتدي ملابس لافتة ..أراها كثيرا داخل المول وليست بالطبع عاملة فى أحد المحلات فهى تبدو كإحدى نجمات السينما ..تتردد كثيرا على المول وأحيانا أجدها تستقل معي المصعد يومين متتاليين ..تفوح منها رائحة عطر أخّاذ ..أبتسم لها فترمقني بريبة ثم

تنظر إلى قدميها الصغيرتين..تخرج مسرعة وأراها تدور قليلا أمام بعض المطاعم والمقاهى الأجنبية تتأمل الجالسين بالداخل ثم أراها تدلف إلى أحد المقاهى المفتوحة وتجلس على أقرب المقاعد ..أريد أن أتابعها أكثر لكن يستدعي أحد الزوار المصعد..تمر دقائق وأصعد لنفس الطابق أبحث عنها فأجدها فى مكانها شاردة ..أتابعها بإعجاب وألحظ أحدهم يقترب من مقعدها يتبادلان حديثا ثم تسمح له بالجلوس ..أشعر بحاجباي يعبسان قليلا وألحظ أزرار المصعد تضيئ فأتجاهلها وأظل أتابعها بدقة.. دقائق قليلة ثم ألحظها تقوم معه ويسيران إلى خارج المقهى ..أمد رأسي قدر استطاعتي فأجدهما يسيران معا حتى يصلا إلى نهاية الممر ويستقلان المصعد الآخر.

..أعود للداخل مبلبل الفكر..تنتابني شكوك كثيرة عنها وعما رأيته منذ لحظات..أتراها كانت على موعد معه ..لكنه كان جالسا على الطاولة المقابلة لها لفترة طويلة ولم تتجه له مباشرة حين دلفت إلى المقهى .... تلحّ على فكرة سوداء بعينها وأحاول أن اطردها كثيرا لكني لا أفلح فى ذلك..أتراها حقا كما أظن؟..أيعقل أن تكون هذه الرقيقة فتاة ليل كما أسمع عنهن؟..اهز رأسي كي أطرد الفكرة وأعود إلى عملي من جديد.. يصعد معي مجموعة كبيرة فأحاول أن ألصق ظهري بالحائط كي أقلّص المساحة التي يشغلها جسدي ريثما تنفتح أبواب المصعد من جديد.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أتوجه للقاء صديقي كما اتفقنا.. أجده جالسا على المقهى فأحييه لتشرق ابتسامته الجميلة ..ينطلق فى توبيخي على تأخرى رغم أن المكان لا يبتعد خطوات عن منزلي ..أمازحه قليلا كي يهدأ ..نتحدث عن كل

شيء يأتى على خاطرنا ..ثم نطلب الطاولة من صبي المقهى لنبدأ مباراة ساخنة أنتظرها فى لهفة كل اسبوع ..ينتهى الدور سريعا بهزيمة ساحقة لي فأطلب منه لعب دورا آخر للثأر منه لكنه يعتذر إذ أن عليه العودة مبكرا اليوم للمنزل ..نتعانق ثم يرحل فى خفة ..أمر على محل الكهربائي على مدخل شارعنا وأشاركه بعض اللب الذي يقزقزه ..يروي لي بعض أحداث اليوم ثم تأتى سيرة «العميد فهمي» ويروي لي فاصلا جديدا من أفعاله ..حادثة اليوم كانت داخل المسجد حيث إعتلي العميد المنبر بعد الصلاة وأعلن أن على كل فرد التبرع بمبلغ ثمانون جنيها كي يقوم بتجديد واجهة المسجد بالرخام..عارضه الكثيرون لهذا البذخ الذي لا فائدة منه وأفهموه أن المبلغ المطلوب قد لا يقدر على دفعه الكثيرون إلا أنه أمسك بمكبر الصوت وصاح بأعلى صوته الجهوري الذي لازمه منذ أيام الخدمة وأخبر المنطقة بأسرها أن ذلك أمر لا نقاش فيه!

..ضحكت كثيرا حتى دمعت عيناي ..وعاد عم»حسن» إلى مقعده بعد أن أتم تمثيل الواقعة فى اتقان كبير ..حييته وانطلقت عائدا للمنزل وأنا استعيد ما حدث

..فالعميد «فهمي» عميد شرطة سابق خارج الخدمة منذ مدة طويلة.. خرج معاشا مبكرا مرغما دون إرادته؛ تكثر الأقاويل عن سبب خروجه المبكر هذا ..ويشعر المنطقة بأسرها أنه مازال فى مكتبه يصدر لنا الأوامر ورغم أنه أنتقل بأسرته بعد ترقيته إلى منطقة المهندسين فى شقة أفخر وأوسع كثيرا لكنه عاد إلى المنطقة بعد أنتهاء خدمته فى الشرطة..عاد وحيدا إلى شقته القديمة تاركا زوجته وابنائه فى الشقة الأخرى يذهب لهم كل اسبوع يومان أو ثلاث ..لا أحد يدري السبب فى عودته من جديد..

فمن المؤكد أنه ليست حبا فى العودة إلى الجذور وهو أكثر من كان يشمئز من مجرد ذكر سيرة سنوات « امبابة» على مسمعه..لكنه يبدوانه أحس بضياع السلطة ومتعة إلقاء الأوامر وأن يسمع فيطاع؛ فلم يجد سوى هذه الحارة بناسها الطيبين ليمارس سلطته التي حرم منها ..فمن المؤكد أنه لا يمكن أن يقوم بذلك فى المهندسين!

ننتهى من صلاة تحية المسجد فى ذلك المسجد الصغير أول شارعنا أو الزاوية كوصف أدق..ويبدأ الخطيب فى ترديد الأدعية تمهيدا لخطبة الجمعة ..الصمت يلف أرجاء المسجد عدا أصوات دوران المراوح..وفجأة ينهض العميد «فهمي» من صفه الأول ليتناقش مع الخطيب فى صحة ما يقول من معلومات دينية..الدهشة تشملنا جميعا ونحن نسمع جدال العميد فى أمور لا يفقه فيها شيئا ثم تبلغ الدهشة مداها عندما يعتلي المنبر وهو يأمر الخطيب بالنزول وينعته بالجاهل..ويقوم هو بإكمال الخطبة بمعلومات مغلوطة تثير الضحكات التي حاولنا كتمها ..ننتهى من صلاة الجمعة فنسمعه فى مكبر الصوت يمنع الخطيب من العودة للمسجد مرة أخرى ثم يأمرنا بإفساح الطريق له كي يخرج أولا !

الغريب أن الجميع أفسح له الطريق بالفعل وهم يتبادلون النظرات الباسمة دون أن ينبسوا بأي كلمة ..شيئا فشيئا نجده يتدخل فى كل أمور حارتنا من إصلاح النور على حسابنا بالطبع؛ إلى اختراعات جديدة يبتكرها كل يوم فقط ليستشعر اللذة فى إطلاق الأوامر بصوته الجهوري ورؤيته من يلبي أوامره ..والأغرب أن خطيب المسجد لم يعد بالفعل مرة ثانية رغم كل محاولاتنا اقناعه أن العميد « فهمي» ترك الخدمة وتركته السلطة منذ سنوات..لكنه آثر السلامة والإبتعاد عن عش الدبابير ..

أحيانا وأنا أرى نفوذه يتعاظم شيئا فشيئا أشعر أنه لابد من وقفة معه

كيلا يتوغل بسلطته المزيفة هذه فى نفوسنا..فالآن نتابع ما يفعل فى سخرية وضحك وتندّر على رجل يبحث عن السلطة فى أي شئ بعد أن ادمنها..لكن قد يزداد الأمر خطورة مستقبلا ويصير الفكاك منه مستحيلا.. فلا ندري ما قد يتفتق ذهنه المريض عن أفكار فى المستقبل ليشعر بذاته ويستعيد شعور الآمر المتحكم من جديد.

اقأبل جارى على السلم فأهز رأسي وأراه يقابل هزة رأسي بمثلها ويغلق باب شقته فى وجهى..إعتدت هذه المعاملة ولنقل أنها افضل المعاملات الممكنة بيننا بعد ما تم من شجار فهو أسوأ مثال لجار يمكن تصوره.. يصلح كصورة كاريكاتورية لتوضيح معني «جار السوء» من استحواذه على المياة الشحيحة بالأساس وإلقاء القمامة أمام باب شقتنا وأطفاله غير المهذبين الذي لا ينقطع لسانهم عن السباب ..يعمل كمسري فى السكة الحديد لذا لا أراه كثيرا لحسن حظه وحظي ..فكنا على خلاف دائم ..ولا أزعم أننا حاولنا يوم فى الأيام إحترام خلافنا وإختلافنا..بل كنا على الأرجح ننتهز أي فرصة للشجار وتبادل السباب ..وكإتفاق غير معلن بدأنا فى تحاشي بعضنا البعض منعا للمزيد من الشجار اليومي.

أدلف للمنزل وأجده خاويا إلى حد ما على غير العادة .. فأمي عند جارتنا تتفق معها على طلبات جديدة وباقي إخوتي فى العمل ولا يوجد سوى أخي الأصغر يستذكر فى الشرفة وأختي تجلس أمام التلفاز تتابعه بنصف وعي..أجلس جوارها ونتحدث عن أحوال كل منا فى عمله ..تتحدث بثقل كأنها سأمت حتى الحديث..تكبرني هى بأعوام ثلاث؛ أي أنها فى السابعة والعشرين من عمرها ..لم تتزوج حتى الآن وإن كانت تتظاهر بأن الأمر لا يشغلها لكنها تفشل فى إتقان هذا الدور ..استشعر

حسرتها عندما يأتينا خبر زواج إحدى فتيات العائلة الأصغر عمرا ..منذ عام تقدم لها شاب على خلق ولكنه لا يملك شروي نقير ولا يعد بأي أمان معه فى المستقبل..بالكاد يستطيع أن يكفل لها شقة صغيرة إيجار..لكنها بلا أي تجهيزات ..ولا أزعم أننا أفضل حالا ..فنحن كذلك لا نملك أن نساعدها فى جهازها إلا بأقل القليل ..تدخر راتبها لعل ذلك يساعدها؛ لكن حتى الآن لم يحن النصيب بعد..تعلن رغبتها فى النوم استعدادا للغد فأتوجه بدوري للنوم.

أتمدد على الفراش بجوار أصغر إخوتي الصبية الذي لا تمر ثوان إلا وأجد قدمه مغروزة فى بطني ..فهو يتقلب كثيرا أثناء نومه دون أن يشعر؛ أهزه كي يهدأ قليلا واستلقي على الجانب الآخر ..تأتيني صورة فتاة المول الجميلة ..استغرق فى تأملها لفترة ثم أتذكر رحيلها مع ذلك الرجل ..يعاودني الغضب دون أن أدرك أسبابه ..أضع الوسادة على رأسي وأحاول أن أغفو قليلا قبل الاستيقاظ باكرا للعمل.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

عفاف «٥»

مازال كارت الطبيب معي لا أدري لماذا لم أذهب ..أخوفا من حديث "أمل" ؟ فأني أخشى حقا أن يخبرني الطبيب بضرورة الراحة وهذا ما سيكون مستحيلا كما أني لا أريد أن اسبب مزيدا من الصدمات للأبناء يكفيهم ما بهم..

أربط الشال حول كتفى جيدا ..الخريف بدأ والهواء أصبح باردا ..أغلق باب الحمام وأنظر للجدول الورقي المثبت خلف أحد الأبواب وألحظ أن "عواطف" زميلتي لم تأت هذا الصباح وقد قامت المشرفة بوضع علامة غياب بجوار اسمها ..تري ما أصابها ؟

أجد بجوار خانة «غير نظيف» علامة فأدرك ما ينتظرني من عمل..استبدل ملابسي بسرعة وأحاول جاهدة الإسراع فى تنظيف الحمام..أبدأ بدورات المياة ثم يدركني التعب الشديد ولا أقوى على الوقوف ..أبحث عن المقعد البلاستيكي حولي فأجده قد إختفى ..يبدو أن أحدهم قد أخذه.

أستند إلى الحائط وأرفع قدمي قليلا وقد إشتد النبض بها واستشري فيها الخدر ..أبحث فى الخزانة عن أي شيء يصلح للجلوس عليه فلا أجد سوى صفيحة صغيرة فارغة ..أجلس فوقها فاستشعر مزيدا من الألم.. أزيحها جانبا وأجلس على الأرض ..أنظر لقدمي لأجد حالها سيئا للغاية ..أسمع الباب يفتح فأقوم مسرعة كيلا يرانى أحدهم على هذا الوضع..

انتظر حتى ترحل الزائرة لكن تدلف غيرها ويبدأ العدد فى الازدياد لا أجد حلا سوى الجلوس فوق الصفيحة الصغيرة من جديد متحملة آلام انغراس معدنها فى لحمي وأمد قدمي أمامي ..أخرج كارت الطبيب من جديد وأعتزم على عدم تأجيل الزيارة أكثر من هذا.

تدلف إحداهن فيخيل إلى أنها ألقت التحية فأرفع رأسي كي أرد لكني أدرك أن أذناي تخدعاني ..تتبادل فتاتان حديثا لا أفهم منه حرفا لكن صوت إحداهن مرتفع للغاية ويمنعني من الاسترخاء :

- « رمضان جاي وحانرجع نصوم تاني»

- « بذمتك بتصومي برضه؟

..رمضان على الأبواب ومن بعده العيد..وكالعادة سيمر دون أن أحتفل به مع الأبناء كباقي الأسر الأخرى..فالمول لا يسمح إلا بإجازة ليوم واحد فى الأسبوع ..فلن يتسني لي رؤية "أميرة" بملابس العيد الجديدة التي جلبتها لها " سهام" إلا بعد عودتي من العمل فتكون فرحة العيد قد فترت.

يزداد شعوري بالتقصير داخلى حتى يؤلمني ..فما التواصل الذي أقدمه لهم إذا كنت لا أشاركهم حتى لحظات الفرح المعدودة ..وإذا كانت " سهام" قد تبادلت الأدوار معي؟.. .لوكان " محمد" هنا لأختلف الأمر كثيرا.

- «لازم السفر يعني ؟»

يتناول مني جواز السفر ويلثم جبيني وهو يغالب دموعه كى لا أراها «على عيني يا ماما ..بس لواستنيت أكتر من كدة برضه مش حالاقي شغل وانتي عارفة الحالة»

يحمل الحقيبة ويودع إخوته ..تحبس "سهام" دموعها ثم يلتفت إلي ويرتمي بين ذراعيّ يعلو صوت بكائه الذي لم يعد قادرا على منعه..أمسح دموعه وأدفعه

- « يالا حتتأخر على طيارتك»

يعانق أرجاء المكان بعينيه ويتأكد من وجود جواز السفر وتذكرة الطيران بحوزته ..يودعنا للمرة الأخيرة ويرحل ..تتبعه سهام وتتعلق بالنافذة وهى ترقب ابتعاده.

استرجع مكالمته الأخيرة وفرحته وهويخبرني بقدومه فى إجازة أخيرا بعد ثلاث أعواما متصلة دون أن أراه ..لم يتبق على عودته سوى شهور قليلة أنتظرها بفارغ الصبر ..نبرة صوته المبتهجة فى هاتف جارتنا أنستني دموعي وألامي فأقوم على قدمي من جديد أعيد تنظيف مرآة الحمام والمح النظرة المشمئزة لأحدى الزائرات لي فى المرأة وهى تراني أقترب منها اثناء تنظيفى للمرأة ..استمر على تقدمي فتسحب حقيبتها وتبتعد بامتعاض واضح.. أتراجع إلى مكاني حتى تنتهى مما تقوم به كيلا يضايقها وجودي أكثر من ذلك ..ترحل دون كلمة واحدة كغيرها ممكن تأتين وترحلن دون حتى أن تقع عيناهن على أو يشعرن بوجودي.

..تمر الدقائق دون أن تأتى "أمل" ..أشعر بالملل الشديد وقد تصفحت الجرائد للمرة الثانية ..أحاول أن احتفظ برأسي فى وضع عمودي لكن رقبتي تؤلمني للغاية ..أتابع حديث صديقتين كي أقتل الملل.

-» حنسافر فى العيد شارم ..بس أنا كنت عاوزة أروح مكان جديد»

تقولها وهى ترفع شعرها لأعلى ثم تعيد ربط حذائها ..ترد عليها صديقتها وهى تستند إلى أحد الأحواض وتنظر للجانب الآخر

- « شارم أحلى خصوصا فى الشتا»

أنظر للساعة فأدرك أن «أمل» لن تأتى اليوم.

تجري "سهام" ويتبعها "محمد" على رمال شاطئ «بلطيم» ويعود "سيد" بعد السباحة ليرتاح قليلا ..أناوله منشفة فيجلس بجوارى لنتابع برنامج المنوعات

«الغلط فين» فى الراديو الترانزستور الذي أبتاعه الشهر الماضي.

أمسك بإحدى الصحف للمرة الثالثة فأضحك حين أرى الإختلاف الشاسع بين الجرائد الحكومية والمستقلة وكأن الأولي تأتى بأخبار شعب آخر فى بلد آخر.

أتجنب الصفحة الأولى كى لا تطالعني ذات الأخبار عن ذات الوجوه الأبدية التي لم تفارق صورها الصفحة الأولى والدرجة الأولى لسنوات تفوق عمر ابني "محمد"

أعيد قراءة بعض الأجزاء لعل الوقت يمر قليلا إذ يبدو وكأنه قد أقسم أن يصيبه الشلل فلا يتحرك قيد أنملة اثناء العمل.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أسمع طرقات كعب ليست غريبة على أذني؛ أرفع عيناي فأتوقع الوجه الذي سأراه ..كالعادة نفس الفتاة ..بنفس الملابس المثيرة تدلف إلى داخل الحمام لتعيد تمشيط شعرها ..مضت فترة لم أرها فيها حتى شككت فى الأمر برمته ..لكنها ها هى ذي تعود لتؤكد سوء الظن بداخلى ..ألمح علامات الغضب على وجهها هذه المرة ..فقد اعتدت ملامح الحزن الدفين التي أراها تصرخ من داخل عينيها لكن اليوم ألمح علامات الغضب تختلط على وجهها الجميل ..تري ما السبب؟ ..تنتهى من تمشيط

شعرها فأتابع حركات يدها ولا ألمح أي اهتمام بما تقوم به ..فتبدو وكأنها تزين وجه شخص آخر ..تتلاقي الأعين فأتعمد إطالة النظر هذه المرة لعلها تتخلي عن صمتها ويدفعها الحزن العميق بداخلها للحديث ..تضع أحمر الشفاة فى حقيبتها وتستند إلى أحد الأحواض وهى مازالت تنظر إلى فى المرأة لكنها لا تلتفت إليّ.

تمر بها لحظة أشعر فيها بشفتيها تتأهبان للحركة لكن ما تلبثان أن تعودا لوضعهما الأصلي اللامبالي ..تنحني لتحكم من وضع الرباط الطويل لحذائها الذي يلتف حول ساقها ..ألمح نظرتها إلى وهى منحنية بينما تحاول إخفاء وجهها بشعرها المنسدل ..تقف فجأة ثم تتأهب للرحيل.. تميل علي لتلقي التحية للمرة الأولي ..فيأتيني صوتا رقيقا ناعما ..أنتظر منها مزيدا أعرف أنه لن يأتى .. أسمع صوت انغلاق الباب خلفها ..تري من منا كان بحاجة للحديث مع الآخر؟

مازال الوقت مبكرا على موعد الرحيل ..أضغط بأصابعي على وجهى كي أفيق قليلا؛ أضع الجرائد فوق الصفيحة كي تخفف من آلام اختراق معدنها لجسدي ..أبدأ فى تأمل الخطوط فى رخام الأرضية وأتسلي بمتابعة الأحاديث الجانبية لرواد المول حتى يصيبني الملل والإعياء الشديدان ..ألمح قدم إحدى الزائرات تقف بجانبي فأمد لها يدي بحركة آلية بأحد المناديل الورقية؛ تتناوله مني لكنها لا ترحل ..أرفع رأسي فأجد نفسي أحملق فى وجه "سهام" ابنتي!

- « كنتي فاكرة إني مش حاعرف؟»

على «٥»

يشتد الصداع ويزداد ألمه ..أسند رأسي على الحائط وأضغط على جانبي جمجمتي لعله يخفت قليلا ..ما إن أرخي يديّ حتى يعود الألم أكثر شراسة ..أتحامل وأتابع عملي فأحمل العربة لأتأكد من تواريخ الصلاحية لبعض المنتجات وأخرج العبوات التالفة من أماكنها بالرفوف.. أعيد العربة فتلمحني "ميرفت" أحاول أن أسرع قليلا فى سيري إلا أنها تهتف:

- «علي..فاضي؟..خلصت إللى وراك؟»

أومئ برأسي وأنا أقترب

«طب تعالى كيّس»

أمر للخلف وأبدأ فى التعبئة وأنا أشعر بآلاف المطارق تدق داخل رأسي ..أصبحت أذني حساسة لأدق الأصوات فأكاد أجن من قرعات يد "ميرفت" المتكررة على لوح الكتابة وهى تضغط بقوة وتحدث أصواتا مستفزة ..أمسك برأسي وأضغط عليها قليلا ثم أعود للتعبئة من جديد ..يأتى دور إحدى الزبائن والتي تضع طفلا صغيرا داخل العربة ومعها فتاة شابة؛ تخرج الفتاة لتمسك بالطفل خارجا فيأتى "صفوت" حارس الأمن بالهايبر ليقف إلى جوارى كعادته كلما رأي زبونة جميلة ..يسأل والدة الفتاة ممازحا:

«حضرتك حاسبتي على الولد الصغير؟»

تبتسم له الأم مجاملة وينظر "صفوت" إلى الفتاة ليري وقع دعابته عليها.. لا تبدي الفتاة أي إهتمام وتظهر لامبالاة واضحة عليها ..أضحك فيزداد ألم الصداع ..أحاول إدخال كيس كبير من البطاطس فأعجز فى المرة الأولي فيدفعني "صفوت" بجسده الهزيل ويمد يده ليكشف عن ذراعه الناحلة وهويردد:

-» هات أشيله أنا.. مش حتقدر عليه»

يقولها وهويرفع عينيه مرة أخرى للفتاة التي تتابع ما يدور فى عدم اكتراث ..أعرف أنه لن يقدر على حمل الكيس فوزنه ثقيل بحق ..أشكره فيصر على مساعدتي ..أفسح له المجال ليحاول دون جدوي إدخال الكيس الذي لا يقوى حتى على رفعه ..أرى إحمرار وجهه من الخجل وقطرات العرق التي بدأت فى الإحتشاد على جبينه وهومازال مصرا على رفع الكيس رغم عجزه .. يسقط الكيس أرضاً فيكف عن المحاولة ..أنحني لحمله وأشكره فيبتعد فى صمت حين يري ابتسامة الفتاة التي تحاول أن تخفيها وهى تداعب أخاها الصغير.

تنتهى "ميرفت" من هذه الزبونة فتهرع لغلق باب الكاشيرة الصغير وتشير للزبائن الآخرين إلى الماكينات الأخرى

- « المكنة مش شغالة»

تقولها كذبا حين يشتد الإرهاق عليها وترغب فى الراحة وتستند إلى المقعد الصغير وتخرج قطعة جديدة من اللادن تلوكها بعصبية.

تتساءل عن الساعة وهى تجرع بعض الماء ..أتناول منها الزجاجة

وأجيبها

«تسعة إلا ربع»

ترفع حاجبيها فى ذعر « لسه تسعة ؟..فاضل كمان تلات ساعات والله حرام»

أمسك برأسي من جديد فى محاولة لا معني لها لدفع الألم فتمد لي بشريط من المسكن

الذي تحمله دائما معها.

اعود للداخل كي أنهى عملي فيأتى صوت أحدهم فى مكبر الصوت

«اعزاؤنا الزوار عند شرائك ب١٠٠جنية تحصل على ساعة انتظار مجانا فى جراج المول وعند شرائك ب٥٠٠جنيه تحصل على ثلاث ساعات انتظار ..اشتري أكثر لتربح ساعات أكثر .. واستمتعوا بالتسوق معنا»

الغريب أن هناك من يستجيب لمثل تلك النداءات فيشتري أشياء لا حاجة له بها فقط كي يحصل على تلك الساعات من الانتظار المجانية ..

أبدأ فى إخراج علب الشكولاتة من الداخل لأتأكد من سلامتها وأرص العلب الجديدة ذات العرض الخاص وكالعادة « كل ماتشتري أكثر فرصتك فى الفوز تكتر» المضحك أن الجوائز المعلن عنها ليست قيمة « علبة أخرى..تي شيرت..طقم اكواب»

أرى بجانبي بعض الزبائن تتفحصن العبوات الجديدة ثم تأخذ إحداهن ثلاث عبوات ..تلمحها واحدة أخرى فتأتى لتأخذ علبتين بدورها ..استمر فى عملي حتى أسمع صوت رجولي وقور ويسألني عن الجوائز.

أرفع رأسي فأجد كهلا فى أوآخر الخمسينات يرتدي بذلة كاملة وعليه سمات الوقار.

أخبره بالجوائز فيرد بغضب لا أدري سببه

- « طقم كوبايات إيه ؟..هو أنا حتجوز!»

أخبره بباقي الجوائز فتزداد غضبته ويصب ثورته عليّ

- « تي شيرت ..أنا حالبس تي شيرت؟»

لا أجد ردا ولا أعرف ما ذنبي فى هذه الثورة وفى كون الجوائز لا تعجبه..أتجاهل الأمر وأعود لعملي ..يتفحص العبوات من جديد. ثم يتناول علبتين رغم ثورته السابقة!

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

نجتمع بعد انتهاء ساعات العمل فى جراج المول وقد اقتربت عقارب الساعة من الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ..يأتى المشرف ليتأكد من حضورنا ويشرف على ما قام به كل فرد منا يتناقش معنا قليلا ثم يصرفنا.. ألمح بعض الطهاة الذين يعملون بالمطعم اللبناني يحملان أكياسا بها بقايا الطعام الذي عزف عنه الزبائن ليعودوا به إلى أبنائهم ..محظوظ حقا من يعمل فى مطعم.

.. استبدل ملابسي وأتبادل حديثا قصيرا مع "كامل" يسألني إن كنت وجدت عملا أم مازلت فى بحثي؛ أنحني لأربط حذائي فلا تصل يداي إلى الرباط ..أحاول الضغط على طبقات الشحم والدهون المتراكمة لكن يداي لا تصل للرباط برغم ذلك ..أجلس على أحد المقاعد وأرفع قدمي قليلا ثم أنزلها بسرعة وقد استبد بي التعب الشديد

« تالت مقابلة عمل ومفيش برضه رد.. "أبراهيم" من ساعتها وإختفى.. مش عاوز حتى يقابلني».

يضربني كعادته على ظهري ضربة قوية أسمع لها صدي بداخلى ثم يتمتم ببعض العبارات المشجعة:

« أدينا قاعدين مع بعض»

نمضي معا حتى نهاية الشارع ثم يرحل كل منا فى طريقه.

أمر على محل شطائر الفول الذي يوشك على غلق أبوابه ..أبتاع بعض جرائد الغد وأمر على بيت "سهام" ألمح ضوءاً خافتاً يمر من بين خصاص النافذة ..لم أر الست "عفاف" أو" سهام " منذ فترة ..أطيل من وقفتي تحت النافذة ..تري ماذا تفعل "سهام" الآن وفيم تفكر ..هل وافقت الست"عفاف" على زواجي منها أم رفضها هوالسبب فى توقفها عن الذهاب معي للمول؟ ..أطرد الأفكار السيئة « يمكن حتوافق ..إنشاءالله حتوافق..هى أكيد مشغولة».

يمر أحد الكلاب الضالة ويلتصق بساقي يشم الكيس الذي أحمله.. يعزف عنه حينما تدرك أنفه رائحة الفول فيمضي مبتعدا باحثا عن شيء آخر ..أرفع الكيس لأشم رائحته ..هى نفس رائحة الفول التي أحبها وأدمنها لكن يبدوا أن الكلب له رأي آخر!

أمر على قهوة المعلم "حافظ" لألمح جارى الأستاذ"فتحي" الذي يعمل معلما بإحدى المدارس القريبة ..يجلس وقد انزلقت النظارة «قعر الكوب» عن قصبة أنفه وقد انحني رأسه وبدأ يغط فى النوم رغم كل الصخب الدائر بالمقهى.

أتحسس طريقي حتى أجلس بجواره فيئن المقعد تحت وزني العملاق ليصدر أهات وصراخ يسمعها الأستاذ "فتحي" فيستيقظ ..يرانى فألمح نظرة عداء أولية ..أبتسم له فيعدل من وضع العيونات ..يتهلل وجهه حين يتعرفني وحين يدرك أن القدر قد أرسل له فريسة فى الليل سيمطرها بوابل من الكلام والشكوى الليلية حتى يهده التعب.

.أبتسم وأشاركه طعامي «بسم الله»

يبتسم فألمح أسنانه النخرة التي تساقط أحد أنيابها حديثا ..أسأله عن السبب فيضحك ويجيب وهويلوك الشطيرة بصعوبة رغم أعوامه الأربعين:

- «خلاص حتى الصحة ضاعت « يتبعها بضحكته المعهودة ويشكوكالمعتاد من حال المدرسة والطلبة الذين تبدلوا عن الماضي.

-»فين طلبة زمان ؟..كان المدرس يدخل الفصل يترعشوا منه»

..اتأمل جسده الضامر وألمح الرعشة فى قدمه اليسري التي تنحشر فى حذاء بليت أطرافه فأجيبه بلا اقتناع

- « أنت برضه شكلك يرهب الطلبة يا أستاذ "فتحي"»

ينظر إليّ ليتأكد إذا كنت أسخر منه أم لا فأرتدي قناع الجديّة كى لا أثير غضبه ..يرى ملامح وجهى المتعادلة فيزدرد قطعة أخرى من الفول ويكمل

- « لا ..لا زمان كان الطالب يجي المدرسة عشان يتعلم فعلا ..وكان بيحترم المدرس ..دلوقتي كرامة المدرس بقت من كرامة أي واحد مصرى..يعني مالهوش كرامة هههههه»

أضحك معه بمرارة فأدرك أن حديثي هذا سينعشه لمزيد من الشكوي.

- «لوكانت الحكومة تحترم المدرس وتقدر أنه كاد أن يكون رسولا كان الحال اختلف ..لكن مرتب ميكفيش قطة..طبيعي إن المدرسين يدوا دروس أو اللى حظه واقع زي حالاتى يشتغل بعد الظهر».

يتنهد طويلا ثم يكمل:

- «يشتغل أي حاجة بقي ..فران ..بقال ..سباك..طبيعي الطلبة ما يحترمهوش بعد كدة»

تنزلق النظارة العتيقة من جديد؛ فى لحظة خاطفة ألمح فيها لون عينيه الحقيقي ..لون أخضر جميل كلون حقول البرسيم ..يعيد رفع النظارة فتختفى عيناه خلف زجاجها المشوه من جديد..يحاول أن يمضغ قطعة جزر مخلل مع الشطيرة فأجده يقضمها بصعوبة بالغة ..أسأله عن حال الأبناء فألمح ملامح الألم على وجهه..

- «كويسين ..طلباتهم مبتنتهيش ..أمّال أنا قاعد هنا فى عز البرد ليه؟.. طفشان من كتر الزن»

أتأمل حديثه عن البرد الذي يتحدث عنه والشتاء مازال يحبواولي خطواته ..أسأله عن سبب عودته مبكرا من عمله الليلي فيتوقف عن المضغ قليلا ليزدرد كوبا من الماء..

- «انت مش عايش فى الدنيا ..أنا سبت الشغل من شهر تقريبا أوهم إللى سابوني الصراحة»

يقولها ويضحك من جديد أسأله عن السبب..

- « عاوزين شباب ليهم فى الكمبيوتر والكلام بتاعكم دة ..راحت علينا خلاص « أضحك بشدة فألمح حاجبيه قد اقتربا من بعضها البعض فى إشارة واضحة لقرب غضبه ..أتمالك نفسي كى لا أثير غيظه ..وأوضح له سبب ضحكي:

- «الغريب أن فى كل شغل أقدمله يقولولي لازم خبرة لا تقل عن خمس سنين ..خبرة منين وأنا مشتغلتش أصلا ؟..الشباب كمان راحت عليهم الظاهر!»

يضحك ويكمل:

- « البلد كلها راحت عليها ..إلا هو ..على الموضة دايما «!

يعلوصوت ضحكاتنا ليجذب انتباه الزبائن القلائل الساهرين

- « اللهم اجعله خير..»

يقولها وهويمد يده ليدفع الحساب فأمنعه بإشارة من يدي ..»تعيش « ينهض ويعدل ملابسه

- « ربنا يستر حنرجع تاني للخناق مع أم العيال على مصروف البيت»

أبتسم فيضربني على كتفى ضربه أشعر فيها برعشة يده .يحيني ويمضي وهويعرج قليلا ..ألف باقي الشطائر وأمضي أنا الآخر إذ أشعر بالتعب الشديد.

أمي نائمة فى غرفتها بجوارها علب الدواء العديدة ..أتأمل ورقة الملاحظات التي كتبتها لنا جارتنا "أم هند" تخبرني فيها أنهما تناولتا العشاء معا ثم تناولت الدواء قبل أن تخلد للنوم ..أجلس بجانبها واتأمل وجهها الطيب وملامحها الجميلة التي شقت الشيخوخة لها طريقا وأحمد

الله أنها لم تنس وجودي من ضمن ما نسيته من جرّاء داء الزهايمر الذي أصابها.

أعاود طلب رقم أبي للمرة الثالثة فى السنترال حتى أوشك على فقدان الأمل وأظن أنه قد قام بتغييره..أضغط على الورقة الصفراء التي تحمل الرقم ..وأوشك على إعادة السماعة لمكانها حتى أسمع صوت أحد الصبية يرد ..أسأله عن أبي فيهتف بقوة وهو يبعد السماعة «بابا تلفون عشانك».

أسمع ضربات قلبي تتسارع وأنا استعد لسماع الصوت الذي اختفى من عالمي منذ سنوات .. يأتيني صوته عبر الاثير؛ كما هو بطبقاته وسكناته لم يتغير فيه شيء..أخبره فى عجالة بمرض أمي وعجزها عن الذهاب للعمل..

- «أنا لسه مخلصتش كلية ومش لاقي شغل ..وهى تعبت وعاوزة ترتاح»

تمر لحظة صمت فأناديه لأتأكد أنه لم يغلق الخط ..يرد بعصبية «أنا إيه المطلوب مني يعني ؟..هى مش عندها مكنة خياطة..تشتغل عليها زي زمان» ..أتلعثم قليلا فى حديثي فيزداد عصبية ..

«بس هى مش حمل تعب» يرد بغضب «أنا إللى مرتاح يعني ..» يعود الصمت من جديد فأشكره على اللاشيء الذي قدمه فلا يأتيني رداً وأسمع صوت الخط إذ أنهى المكالمة ..

أنقد العامل ثمن المكالمة وأقذف بالورقة التي تحمل الرقم على درجات سلم السنترال.

تتقلب فى نومها فألثم جبينها واستلقي على فراشي ..استرجع كلام "أسامة" الذي سافر إلى الكويت منذ شهرين ..لعله وفق فى حياته هناك

ووجد الاستقرار الذي أحلم به ..أسمع صوت سعال أمي فأدرك استحالة السفر واستحالة الاستقرار..أتقلب قليلا ثم أخلد للنوم بدوري.

عفاف«٦»

تتلاقي أعيننا للحظة لا تستوعب فيها عيناي ملامحها التي تقف على بعد نصف متر مني ..تطول لحظة الصمت وأسمع ضربات قلبي تتسارع لتختلط ببعضها البعض لم أحسب يوما أن مرأى ابنتي سيحدث بي هذا القدر من الخوف والاضطراب ..يشملنا الصمت طويلا وقد توقف الوجود من حولي فلم أعد أسمع الصخب داخل الحمام ولم أعد أرى سوى وجه "سهام" واضحاً على خلفية مشوهة من الحمام ..تطيل من نظراتها إليّ وتطيل من صمتها ..أتمني لوتنبس بحرف واحد حتى لوكان لوم أوصراخ ..لا أجرؤ على رفع نظري أكثر من ذلك فأخفض وجهى ..تجلس أمامي على الأرض وتحتضن وجهى بين ذراعيها بقوة فأطلق لدموعي العنان بعد حبس طال أمده طويلا ..تمر لحظات اتمني لوتطول أبد الدهر.

أرفع رأسي لألمح ابتسامتها الجميلة التي أفتقدها تضيء وجهها؛ تمسح دموعي وتجلس بجوارى وقد اسندت رأسها إلى الحائط:

- «من أمتي ؟»

أسمعها تنطق بهذا السؤال فأفشل فى معرفة الإجابة ..أهز رأسي وأجاهد كي أحاول التذكر ..تصمت من جديد وهى تمسك بيدي وتعتصرها باليد الأخرى الخالية تسألني عن سبب إخفائي للأمر فأصمت

أنا الأخرى.

- «كنت فاكرة أني مش حاسة بيكي ؟»

تتنهد بقوة وتزداد إلتصاقا بي ..تعود لصمتها من جديد وتضع رأسها على كتفي وتزيد من ضغطها على يدي ..لويتوقف الزمن عن الدوران عند هذه اللحظة التي لم أعشها منذ سنوات ..تغلق عينيها فألمح خيطا رفيعا من الدموع يسيل بين جفونها المغلقة تمسحها بيدها الأخرى كعادتها كيلا ألحظ دموعها ..تعتدل قليلا وتثني إحدى قدميها بجوارها.

- «لوكان حد فينا لازم يشتغل الشغلانة دي يبقي أكيد مش انتي»

تتحسس قدمي بيدها الرقيقة وهى تهز رأسها وتضع يدها على فمها وتهمس وهى تمنع نفسها من البكاء:

- «أكيد الشغل دة هوالى زودها كدة».

أضع يدي على كتفها كي تهدأ قليلا.

..تدلف " أمل" إلى الحمام فى موعدها لترى هذا المشهد فتتوقف بعيدا وتتأهب للرحيل؛ أشير لها بيدي فتقترب وتضحك فى سعادة.. تتنحنح فتفتح "سهام " عينيها

- «"سهام " مش كدة؟..أنا " أمل"»

تندهش "سهام " فى البداية ثم تتذكر الاسم تنظر إليّ فى لوم واضح فأخفض رأسي حرجا ..تخبرها أني رويت لها الكثير عنها وتبدأ " أمل " فى الحديث معها فأتأمل "سهام" وكأني أراها للمرة الأولي؛ لا أنتبه لما تقولان ولا أعي منه حرفا واحدا إلا أنني احمد الله أن " سهام " قد علمت بالأمر أخيرا فلقد كان أخفاؤه يؤلمني لدرجة عجزت نفسي عن تحملها

فظهرت آلامه على جسدي ..رغم خوفى وحرصي ألا تكتشف عملي ك «دادة حمام» إلا أن كل الخوف والخجل والإحساس بالعار قد ذهب إلى حيث لا رجعة عند أول ابتسامة على وجهها الحبيب ورغم كل شيء إلا أنني أشعر براحة شديدة الآن افتقدها منذ وفاة "أبومحمد".

لم أكن أتوقع تقبل " سهام" للأمر ولا تعاطفها معي بهذه الصورة فلقد كانت تروادني الكوابيس يتخللها صراخها ولومها إذا ما علمت بالأمر ..يبدو أني لم أعرف ابنتي ولم أفهمها بصورة كاملة ..لكن لن يكون هناك أسرارا بعد اليوم يكفى ما مضى من وقت ضاع فى إخفاء ذاتى عنها والتهرب من الحديث معها كيلا ينزلق لساني بالسر.

اتأملها من جديد وأنا أحاول أن ألتهم ملامحها بعيني ..سيكون أمامنا الكثير من الوقت لنتحدث فى كل الأمور فلن يكون هناك مكانا بعد اليوم لخوف أوخجل؛ أفيق على صوت "أمل" إذ تخبرني بالشبه الكبير بيننا؛ أهز رأسي:

«لا " سهام " أحلي أصلها واخدة من والدة أبومحمد»

تضحك " سهام" وتكمل حديثها مع "أمل " تسألها عن أحوالها وتعرف منها عملها كبائعة فى المحل المجاور؛ تلتفت إليّ من جديد وهى تغالب ضحكتها موضحة أنني أخبرتها بعملها معي؛ أشعر بالحرج لاضطرارى الكذب عليها لكنها تضحك وتضع يدها حول كتفى؛ تسألها "أمل" عن عملها الجديد فتبتسم "سهام" وتجيبها أنه رغم أنه ثاني يوم لها بالعمل الجديد إلا أنها تفضله كثيرا عن سابقه فلقد رحمها من ضجيج الأطفال وصخبهم فى الحضانة ..تهز " أمل " رأسها وتضيف:

- «مدام "عايدة" طيبة أوي «

تندهش " سهام" وتتساءل إن كانت تعرفها فتخبرها أنها صاحبة المحل فى آخر الرواق..تطرق " سهام" برأسها للأرض وتحدث نفسها دون انتظار إجابة:

- «هى كمان شغالة هنا؟»

تلحظ "أمل" جهل "سهام" بالأمر فتتدارك كلامها سريعا وتعتذر لتأخرها عن العمل

تصمت "سهام" قليلا بعد رحيل "أمل" وتتأمل أرجاء الحمام

- «ليه خبيتي عليّ ؟»

تقولها بنبرة لوم فلا أدري أهى موجهة لي أم لها ..تنتظر معي حتى أنتهاء ساعات العمل ونرحل معا بعد أن تتولي هى تنظيف الحمام ..تتأبط ذراعي وتخبرني فى عبارة اقرب لتقرير:

- «حنعدي بكرة بليل على الدكتور ..بتاع مدام عايدة زبونة محل التفصيل!»

تقولها ثم تبتسم ابتسامتها الجميلة؛ أضحك لأول مرة وننتظر سويا قدوم إحدى المواصلات..نركب أحد الميكروباصات وأسند رأسي على النافذة وأسبح فى نعاس خفيف وقد خف الألم فى قدمي فلم أعد اشعر بأي ألم ولم أعد أخشي أي شئ .. أغوص فى المقعد وأنا أشعر بالامتنان لله وللكون بكل تفاصيله.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

استيقظ على صوت شجار جارتنا "فوزية" مع محصل الكهرباء فلقد رحل ابنها العاطل عنها ولم تعد تجد من تتشاجر معه كل صباح ..يبدو أنها

وجدت هذا المحصل فريسة ضن بها الزمن عليها طويلا ..أنهض مسرعة من فوق الفراش وقد تنبهت إلى أنني تأخرت عن عملي ساعة كاملة؛ أهرع لاستبدال ملابسي مسرعة ..أبحث طويلا عن ملابس العمل فلا أجدها.. تدخل "سهام" وتراني فى بحثي المحموم فتقترب وهى تبتسم ابتسامة ماكرة:

- «مش حتلاقيها عندك»

أنظر لها فى حيرة فأجدها تقترب لتفتح أعلى خزانة الملابس حيث وضعت ملابس العمل بعيدا.

- «معادش ليها لازمة إحنا اتفقنا أنك حترتاحي» .

تتلاقي أعيننا للحظة تتصادم فيها الإرادتان ثم أعود لأتكئ على الفراش وقد أذعنت لطلبها ..تلثم جبيني وتخرج لتعد الإفطار .

أتنهد بعمق وأحتجز الهواء بداخلى طويلا حتى تؤلمني ضلوعي فأترك سراحه وأشعر براحة حقيقية لم أشعر بها منذ أمد بعيد ..ترى لما استسلمت لرغبة "سهام" سريعا هكذا وكأنني كنت أنتظر أن تبادر هى بقولها هذا كي أخضع له وأتشبث به دون أي مقاومة؟

أأردت أن أزيح بذلك عن كاهلي عبء حملته طويلا وودت لوأن غيري يزيحه عني كيلا أشعر بالذنب؟ ..أتأمل ملابس العمل التي يظهر طرفها من الخزانة ؛ أبتسم حين أدرك أني لن أعود لإرتدائها مرة أخرى ولن أنحني لأنظف حماما مرة أخرى ..استلقي على الفراش من جديد وأغمض عينيّ كي أمسك بتلابيب تلك اللحظات السعيدة المريحة التي لم أعشها منذ سنوات ..أشعر بقليل من الندم لأني لم أخبر "سهام" منذ البداية وأضعت فترة طويلة فى صراع نفسي أعانيه فى وحدة وقسوة وأضعت فرصة إعادة

اكتشاف ابنتي من جديد لأدرك أني لم أكن أفهمها بقدر كاف.

أتنفس بعمق مرة أخرى كي استرجع شعور السعادة الذي بدأ يحزم أمتعته من جديد للرحيل؛ استدير على جانبي فتؤلمني ساقي لكني أتجاهل ألمها فلا أريد لأي شيء أن يفسد تلك اللحظة الجميلة.

أطيل من النظر إلى صورة "سيد" أكاد ألمح ثغره يبتسم هو الآخر..أسند رأسي على الوسادة القطن التي تحتاج إلى تنجيد بعد أن اصبحت متخشبة ومؤلمة ..تعاودني التساؤلات مرة أخرى ..تري كيف سأوفر احتياجات "أميرة "و "عبده" ومصاريف الدراسة إذا ما انقطعت عن العمل وانقطع راتبي .."سهام" راتبها لا يكاد يكفى مصاريف المواصلات واحتياجاتها الشخصية فلا أستطيع أن أحملها فوق طاقتها وأنا أعرف أنها ستكبّد نفسها مشاق جديدة كي تحول دون عملي مرة أخرى لإراحتى ..و"محمد" فى غربته يبذل ما فى وسعه لكن رغم ما يلاقيه من مشقة إلا أن الأموال التي يرسلها لا تصل بإنتظام كما أنها لا تكفى كافة المصاريف وهوشاب وعليه أن يدخر من راتبه كي يعمل على تكوين مستقبله وحياته المقبلة وليس لإعالة إخوته فمتي سيعمل لنفسه إذن ؟

..تزداد الاسئلة بداخلى فأعاود النظر إلى ملابس العمل من جديد لعلّها هى التي تبتسم ظافرة هذه المرة ..استدير لأجعل وجهى للحائط وكأني أضن على نفسي بلحظة هانئة أريح فيها عقلي وجسدي حتى أتلهف على استرجاع مشاعر الخوف من جديد..أرجئ التفكير فى هذه المسألة للغد تاركة الأمر لله يدبرها بحكمته وفضله..ولنحاول تحمل هذه الفترة القصيرة فلم يتبق على عودة "محمد" سوى شهر ونصف الشهر فى فبراير القادم وعندها سنجد بأذن الله لكل مشاكلنا حلولا.

أفيق من شرود ذهني على صوت صراخ جارتنا من جديد وهى تتشاجر هذه المرة مع الجارة التي تعلوها لانها ألقت بماء على غسيلها؛ تعتذر لها فتزيد من صراخها؛ يتدخل عم "عوض" الكهربائي لتهدئتها فتصب عليه هوالآخر لعناتها وتنتقل للشجار معه ..مسكينة حقا لعلها تحاول عكس غضبها من ظروفها على الآخرين..رغما عني أضحك حين أسمعها تشتبك فى الشجار مع طرف ثالث ..أسمع نداء" سهام" فأخرج لتناول الإفطار معا.

تقترب مني " سهام" وتهرس لي بعض الفول وتضع عليه الكمون كما أحبه؛ مازالت تتذكر كيف أحب تناول الفول ..أحاول منع الدمعة التي تتلهف للخروج من مقلتي ..رباه كم من الوقت أضعت بعيدا عنهم.. يرحل " عبده" ويأخذ بيد أخته معه للمدرسة تغسل "سهام " الأطباق فى المطبخ الصغير وتستعد بدورها للذهاب لعملها .. تعقص شعرها المنسدل وتمسكه بدبوس شعر وتخبرني بموعدنا مع الطبيب.

أومئ برأسي فتكمل ارتداء حذائها وهى على الباب تحيني وترحل مسرعة كى لا تتأخر ..أنظر لأرجاء الشقة المتقاربة والتي أراها للمرة الأولي صباحا منذ فترة ..أفتح النافذة لتدخل الرياح المثلجة لآخر ديسمبر؛ أشعر بمشاعر متداخلة وأنا اتأمل الأثاث واستمع للصمت الذي يبادلني حديثا خاصا.

أجلس بجوار النافذة وأبدأ فى تأمل المارة وتأمل شارعنا الذي لم أعتده رغم مرور خمس سنوات على انتقالنا إليه.

أعد الشاي بمطبخ منزلنا القديم للعمال ..يدخل "سيد" وهويضرب كفا بكف

- «أقوله يدهن الأودة حيطة لبني والباقي أبيض يعملها كلها لبني»

يتناول مني الشاي وتهرع وراءه "سهام"

- «أنا مبحبش اللبني يا بابا خليه يغيره»

يجذبها "محمد" من ضفيرتها الصغيرة وهو يقلد صوتها ويردد بإيقاع ليغيظها

«لبني ..لبني »

تهرع وراءه فأعود إلى غرفتنا حتى ينتهى العمال من عملهم اليوم.

يبدأ ضوء الشمس فى الخفوت وأشعر بقطرة ماء على وجهى؛ أرفع نظري لأعلى وأرى قطرات المطر تبدأ فى الانهمار ..يهرع المارة وهم يغطون رؤوسهم ..أنظر للسماء الغائمة وأدعوالله بما يجيش بداخلى.

أسمع من جديد صوت صراخ " فوزية"وهى تجمع الثياب من على الحبل بشرفتها الصغيرة ..لعلها ستصب غضبها على السحاب هذه المرة!

زين «٤»

توطدت الصداقة أكثر مع « محمود»..أصبحت أتبادل معه حديثا مطولا كلّما سمح ضغط العمل بذلك.. لا أزعم أنه صار صديقي فهو لا يحبذ الكلام عن نفسه وحياته كثيرا؛ بل يقتصر الأمر على الحديث عما نراه فى المول وعن الحياة عامة ..بينما لا أنقطع فى حديثي أبدا عن الثرثرة عن كل تفصيلة من حياتى!..أحيانا ألقي دعابات كثيرة لكنه لا يفهمها.. أبتسم بعد كل دعابة كي يفهم أنه مزاح فيبدأ فى الضحك حينها ..مرة واحدة انطلق فى الحديث إلى آفاق أرحب بعض الشيء ..حدثته طويلا عن أحلامي وما كنت أريد أن أفعل فى حياتى ..ولمحت شروداً فى عينيه فتشجعت لأسأله عن حياته قبل المول ..عرفت أنه من الصعيد ..سألته فى حماسة عن عمله السابق فشرد قليلا ثم فاجأني بإجابته:

- «مكنتش بأشتغل ..كنت فى السجن»

وقعت على الجملة شديدة فظللت لوهلة صامتا لأستوعبها ..ابتسمت حرجا وسألته بصوت متهدج عن السبب فعبس وجهه قليلا ..أخبرني فى سرعة أنها كانت فترة قصيرة للغاية بضع شهور حيث كانت جنحة ضرب وتعدي ولم تكتب فى صحيفته الجنائية لحسن حظه ..حاولت إضحاكه فسألته إن كانت لم تكتب لأنه هومن تعرّض للضرب ..لكن ملامح الغضب شقت طريقها إلى وجهه وعاد للصمت مجددا..حاولت عبثا

الإعتذار لكنه ظل شاردا ويبدو أنه ندم على انزلاق لسانه إلى هذا المدى.

تطرقت إلى موضوع آخر وأخذت على عاتقي إطلاق الأسئلة والإجابة عنها بدلا منه كي أعيده إلى سابق عهده..

مرت أمامنا نفس الفتاة ترتدي ذات الثياب لكنها جميلة كما هى دائما..تدق بقدميها فأسمع صوت كعبها المرتفع يرن ..تستمر على سيرها شاردة دائما تتابع واجهات المحلات ..تتجه للناحية الأخرى.. أتبادل مع «محمود» نظره فأجده يتابعها مثلي وينظر لي نظرة خبيثة ويلقي بمعاكسة أجدها فجة للغاية فأكتم ضيقي..أسأله إن كان رآها قبل ذلك فلا يبدوعليه الفهم ..يبدو أنني فقط من يتابعها بإهتمام..يعود كل منا إلى عمله وأندم على سؤالى ل«محمود» فربما يبدأ فى ملاحظتها فيما بعد وأنا لا أريد ذلك.

استدعي ملامح وجهه من جديد وكلامه الذي وأده سريعا عن سجنه.. لم استطع أن أحبه قط.. لكنه يساعدني فى القضاء على ملل العمل ولا أريد أن أفقد كل الجهد الذي بذلته كي أجعله يتبادل معي بضع كلمات.

يستقل المصعد معي فتاتان وشاب ..يطلب الشاب مني أن ألتقط لهم صورة داخل المصعد فأضحك ثم أجده يناولني هاتفه ويشرح لي كيف ألتقط الصورة ثم يصطفون معا ويقوم الفتي بوضع اصبعين خلف رأس إحدى الفتيات الغافلات..يرحلون ويرحل معهم الصخب والمرح.. أتوقف بالمصعد قليلا ثم يأتى الأستاذ«فادي» اللبناني المرح..يستقل المصعد ويطلب الهبوط للطابق الأرضي ..يتبادل حديثه معي باللهجة الشامية المرحة ويسأل عن أحوالى ..أحييه بحماس وأطلق بعض الدعابات التي يضحك لها فى قوة ثم ينهى كل عبارة « يجازي شيطانك يا

لعين» ..يضرب كتفى فى مرح ويرحل ليأتى بشئ ما من سيارته ..أتابعه وهويمضي مبتعدا بقامته الضخمة ووجهه العريض وشعره الرمادي المنسدل الذي يتموج مع كل حركة من حركاته ..أحب شخصيته وطيبته معي وأحب فيه ميله للحديث معي ..يتقن اللهجة المصرية أفضل مني لكنه يدخل بعض المصطلحات اللبنانية بين الحين والآخر ..عاش حياته كلها فى مصر حيث رحل وعائلته بعد اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان وبعد أن دمر منزلهم وضاعت أملاكهم كلها.

يتحدث معي عن المستقبل وكيف أراه ..يحزن لرؤيتي المتشائمة له رغم تهكمي منها ويحثني على التفاؤل وعدم الركون إلى اليأس ..يشير إلى محل ملابس الأطفال الذي يملكه ويخبرني أنه عاني كثيرا حتى استطاع أن يصل لما هو فيه الآن .يروي لي كيف هُدم منزلهم وتوفيت أخته الصغري التي كان عمرها عشرة أعوام ..وفقدانهم لكل أموالهم ثم رحيلهم إلى مصر.

- «والدي كان يعرف صديقا له فى مصر .. فرحلنا وجينا على هون.. الله يكرمه ساعدنا كتير» ..يروي لي ذهابه للعمل بعد ساعات الدراسة فى أحد محلات البقالة وتنقله من عمل لآخر حتى استطاع أن يجمع مبلغا لا بأس به ..استطاع أن يدخل فى شركة مع رجل أعمال مصري يعرفونه وتخصص فى بيع الملابس..ويروي كيف استطاعا أن يحولا المشغل الصغير إلى مصنع ثم إلى سلسلة محلات شهيرة.

- «أنا بدأت من تحت الصفر.. لكن عمري ما يأست كنت بأقع كتير وبأتعب كتير لكن الأهم أني كان عندي إيمان».

يعجبني حديثه وأجده كحوار الأفلام حين يروي رجل ناجح قصة

نجاحه؛ لكن أشعر أنه أمر صعب التحقيق.. فهذا الزمن الذي كان يعمل فيه الإنسان ليدخر ما يأخذه من عمله قد ولى ..فلوعملت فى ثلاث وظائف لن استطيع أن أدخر ما يصلح للزواج حتى وليس إقامة مشروع.. لكني أحب كلامه فهو ينتشلني من الكآبة أحيانا كثيرة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أنتهى من كتابة سيرتي الذاتية وأتوجه إلى أحد «السايبر كافيه» كي أقوم بكتابتها على الحاسب الإلى وطباعتها ..بيدي قصاصات الصحف التي تحوي عناوين الشركات التي تطلب وظائف سكرتارية ..أخذت إجازة من العمل ستخصم من راتبي كي أمر على الشركات لعلّى أتخلص من المصعد وأجد وظيفة أخرى أفضل ..أقدم أوراقي فى ثلاث شركات وأقوم بمقابلة عمل فى مكتب رابع ..يسألونني عن إجادتي للإنجليزية والحاسب الآلى ..أرد عليهم بما أعرف من إنجليزيتي على أسئلة وجهها لي الممتحن ثم يخبرونني أنهم سيعاودون الاتصال بي لاحقا..ينصحني أحد الأصدقاء أن أنتظم فى «كورس» لتدريبي على استخدام الحاسب الألى ..حاولت ذلك لكن المشكلة تكمن فى مواعيد العمل التي تتعارض مع مواعيد التدريب ..نجحت أخيرا فى إيجاد كورس مكثف يوم العطلة لعل ذلك يساهم فى تحسين سيرتي الذاتية عند التقدم لأية وظيفة جديدة.. ينتابني ضيق بعض الشئ عندما أعرف المبلغ الذي ستتكلفه الحصص.. فذلك سيقتطع جزءا لا بأس به من راتبي وينهى أي احتمال لإدخار ما يصلح للزواج أوغيره.. أترك الأمور تسير كيف ما أتفق وأدعو الله أن ييسرها عليّ..فلابد من التضحية قليلا فلا يمكنني البقاء فى هذه الوظيفة فهى لا تعد بأي تحسن للحياة مستقبلا ولا تعد بأي تقدم لي من أي نوع

ويكفى أن أشعر بالخجل كلما سألني أحد عن طبيعة وظيفتي ..كما أني أعاني الأمرّين كل يوم متحاملا على نفسي عند هبوط المصعد وصعوده ومحاولات السيطرة على الانفعال والخوف الذي ينتهز أي فرصة للتغوّل داخلى.

أتصل بأحد الأصدقاء لم أره منذ مدة طويلة ..ترد على والدته وتخبرني أنه بحالة سيئة للغاية ولا يتحدث ويأبى الطعام ويجلس بمفرده دائما..أقر أن أمر عليه بعد ساعات العمل.

يفتح لي باب غرفته بعد توسل وإلحاح وأجده فى حالة مزرية للغاية ..ترك ذقنه دون حلاقة فاستطالت وأصبح شعره مبعثرا مشعثا كالمتشردين..جلس على حافة الفراش وهويتأمل يده فى صمت فبدأت أحاول التحدث فى أمور مختلفة حتى بدأ يستجيب لي..أتت والدته ببعض الطعام ورجتني أن اجعله يتناول القليل منه ..أغلقت الباب فور رحيلها وقمت لأفتح النافذة فلم يمانع فقررت أن استمر ..القيت عليه الدعابات الواحدة تلوالأخرى فبدات الابتسامة تشق طريقها إلى شفتيه وبدأنا نتحدث سويا ..سألته عما ألمّ به وأنه أفزعني لدرجة أني تصورت أنه مريض ..تنهد ثم عاد للصمت من جديد..عاودت سؤاله فأخبرني أنه فُصل من عمله مؤخرا.

«دي تالت وظيفة يمشوني منها بعد ما أنظم حياتى على مرتبها»

أشعر بالأسى الشديد فلقد كانت فرحته غامرة عندما ظفر بالوظيفة فى ذلك البنك كمحاسب مالى بعد أن عانى الكثير فى وظائف مختلفة لا تلائمه..لم يتم تعيينه فى البنك إنما كان العمل بنظام العقد وفور انتهائه كان عهده بالعمل قد أنتهى واستغنوا عن خدماته ..أهوّن عليه وأخبره أنه

سيجد غدا وظيفة أفضل لكنه ينظر لي بتهكم فأخفض بصري ..فأنا أعلم جيدا ما يريد قوله وأدرك قبله المعاناة حين يجد أحدنا وظيفة جيدة ففور أن يجدها تفر هى منه..يمد يده اليمنى إليّ لأنظر إلى أصابعه فألحظ عدم وجود خاتم خطبته.

«فسخت الخطوبة..أهلها ضغطوا عليها ..قالوا بقالنا تلات سنين مخطوبين ومفيش أية خطوة تمت ..أول ما عرفوا أني اتفصلت قرروا يفسخوا الخطوبة».

أغرق فى صمت حزين لا أعلم بما أرد عليه فلا استطيع أن أخبره أنه سيجد أخرى أفضل..فقصة حبهما دامت لسنوات الجامعة وكانت محط حسد الكثيرين ..أربّت على كتفه فأجده يجهش فى البكاء؛ لأول مرة أراه على هذه الحالة ..أتركه ليبكي كي يتخلص من كل ما فى قلبه من أوجاع.. ينهنه بين دموعه:

«دينا ضاعت مني ..والشغل ضاع ..مبقاش فيه حاجة».

أردد كلاما مثيرا لا أدري معناه لكني أحاول أن أواسيه قدر الإمكان.. أتحدث طويلا عن القسمة والنصيب والرضا بقضاء الله فيبدأ فى الهدوء ويتنفس فى عمق. نصمت قليلا ثم أحمسه للبحث عن وظيفة أخرى وأخبره بالشركات التي تقدمت لشغل وظيفة بها وأحاول أن أجعله يتشبث بالأمل فقد يظفر بوظيفة قريبا وربما يحاول مع أهل خطيبته من جديد.. يلوح لي بيده أن أكف عما أقول لكني أصرّ على جعله يتفاءل ويخرج من هذه الحالة ..أردد عليه فى نهاية كل جملة «خلي عندك أمل» ينظر لي ويبتسم باستنكار:

« أمل؟..أنا خفيت من الأمل خلاص ..ومعدش له مكان عندنا»

أنهره بشدة وأجبره على تناول الطعام ..لا أجد ما أقدمه له أكثر من هذا فأودعه بعد أن يعدني أنه سيبحث غدا عن عمل آخر وسيعود إلى حالته السابقة ..أحتضنه بقوة وأعود للمنزل ..أعرج على طريق الكورنيش وأسير قليلا..لا أصدق أني رأيت أكثرنا تفاؤلا وقت الدراسة وهوعلى هذه الحالة من اليأس الشديد ..تصدمني عبارته فأحاول أن ادفعها بعيدا عن تفكيري ..

كنت أخشى أن أسمعها لأني أعلم أنها كانت بداخلى وكنت أجاهد كي أدفنها كى لا يظهر لها طرف..أعلم أني لا أمتاز عن حاله الآن إلا بالقليل لكني كنت دائم التحايل على واقعي بالدعابة والمزاح لأنه لا يوجد ما استطيع فعله سوى هذا..أرى والدتي تكافح وهى متعبة فى تربية الأبناء الثمانية بعد وفاة الزوج ..وأرى إخوتي أبعدتنا الحياة بمشاغلها عن لحظة لقاء صافية بعد أن غرق كل منا فى همه الخاص.

جيلنا كله قد شفى من الأمل ومن الحلم ومن الكرامة..ومن يتشبث بهم فى ذلك الزمن يصير كالأبله الساذج الذي يصر على التمسك بما لا وجود له ..أشعر بغصة فى حلقي فأتوجه إلى محل للعصير وأجرع كوبين من عصير القصب لعلّى أسكت كم العبارات الخانقة التي تسعي للفرار من جوفى.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

اليوم يوم العطلة..استيقظ مبكرا رغم تعبي كي استعد للذهاب للكورس..أقف فى محطة المكروباص أمام الملجأ الحكومى ..أنتظر طويلا فأتسلي بمشاهدة أسواره ..يتبع إحدى الجهات الحكومية ويظه ذلك واضحا جليا عليه ..بعض أجزاء السور هدمت والحديقة أصبحت

خرابة كبيرة لا يعتني بها أحد ..أرى بعض الأطفال يجرون فى ركن الحديقة والمشرفة تمسك بأحدهم لتوبخه ..تأتى فتاة من داخل الملجأ ومعها طفلة صغيرة تجلسها على قدميها وتضحك معها ..أدرك بالتأكيد أنها ليست مشرفة بالدار بل لعلها إحدى الزائرات اللاتى يعطفن على أيتام الدار ..أقترب أكثر لاتأمل وجهها فتصيبني الصدمة..أجد نفس وجه الفتاة التي أراها بالمول..نفس الملامح والأنف الطويل لكن بلا مساحيق تجميل وترتدي الحجاب..أفرك عيني وأعاود النظر فأتأكد من ملامحها؛ لا يمكن أن أكون قد أصبت بالجنون حتى بت أراها فى كل مكان ..إذن فهى حقا وأنا لا تخدعني عيناي؛ يأتى الميكروباص فلا استقله وأنتظر على المحطة حتى ألمحها تهم بالرحيل بعد أن تودع الطفلة..أهرع إلى بوابة الملجأ وبلا أي تعقل أقف أمامها ..ترفع رأسها فى دهشة فأضحك فى بلاهة ..تحاول أن تمر من خلفى فأبادر بالسؤال:

«مش انتي إللى بتيجي المول؟»

تقف فجأة وآثار المفاجأة على وجهها وتلتفت إليّ بملامح تبدلت لتتحول من الفزع إلى الغضب ..أخبرها أنني أعمل هناك وأراها كثيرا؛ تهرب مني مسرعة دون أن كلمة وتوقف إحدى سيارات الأجرة وتهرع بها مسرعة..أقف فى حيرة من أمرى وقد ازدادت الأمورغرابة وغموضا.. إذن فشكوكي فى محلها وإلا فما تفسير رد فعلها المرتعب هذا ..ألوم نفسي على ما فعلت فلن أراها مرة أخرى بهذه الطريقة ..يأتى ميكروباصا ثانيا استقله فى غم شديد.

أمل «٥»

أنتهى من إعداد العشاء ليلا وأغلق زجاج غرفة المعيشة الذي تأتى منه رياح ثلجية ..فشهر ديسمبر يلفظ أنفاسه الأخيرة وبدأ الشتاء ببرده ووحشته الرقيقة ..أنظر من خلف الزجاج فأرى الطريق مازال يؤمه بعض السارين القلائل يحثون الخطى ويحنون قاماتهم اتقاءا للهواء المثلج.

يمضي أحد الكلاب الضالة مبصبصا بذيله ويلهث من البرودة ..يبحث عن إحدى السيارات كي يختفى أسفلها ..الشتاء القاهري الكئيب الذي يشعرني بمزيد من الوحدة عكس شتاء قريتنا الحبيبة.

نلتف حول النار التي أوقدها أبي فى حديقة الدار ونتراص على المقاعد العالية نتدثر بالبطاطين وتلتصق أختي بي وتمسك بيدي..أبي يرشف الشاي الساخن ..أتوق إلى أحد الأكواب لكني لا أقدر على إخراج يدي من البرد وحتى لا أوقظ أختي التي راحت فى سبات عميق..يستمر أبي فى سرد مغامراته وحكاويه التي تثير شغفى لجمهور نام معظمه ولم يبق منه سوى مستمع وحيد ..يرشف رشفة أخرى ويمد بصره بعيدا ليكمل السرد.

أبتعد عن النافذة وأبدأ فى تناول العشاء بمفردى أثناء متابعة أحد البرامج المملة ..أغلق التلفاز وأتطلع إلى الأقفال المعلقة على كل أبواب الغرفات التي رحل عنها أصحابها ..لم يتبق فى الدار سواي ..فقد أنهت الطالبات آخر سنوات دراستهن وانتقلت "مي " إلى دار أخرى لا يمر

بجوارها كوبري!

"فاطمة" تزوجت كما أرادت وهى تحيا لتقنع نفسها بالسعادة والشقة المستقلة ..

الأقفال مازالت معلقة على أبواب غرف خلت من أصحابها والصمت والسكون يغلفان ارجاء الشقة ..أنتهى من عشائي فأرفع الأطباق لأغسلها..يتناهى إلى سمعي صوت غريب بأحد الغرف المغلقة ..أرهف السمع فيزداد الصوت ارتفاعا ..أخرج من المطبخ لأتلصص على الغرفة فأجد بابها كما هو والقفل كما هومغلق..أتعلق بحافة الحائط حين يزداد الصوت حدة فجأة ..أهرع إلى غرفتي وأوصدها وأنا اتلو المعوذتين ..رغم الصخب الدائر دائما بغرفتي لمرور السيارات الواحدة تلو الأخرى إلا أني مازلت أسمع الصوت يزداد ارتفاعا وثقة وقربا.

..أضع أحد المقاعد خلف باب غرفتي وأنتقي سورة "مريم" فى جهاز التسجيل فيسري صوت قارئها فى أرجاء الغرفة ..أتدثر بالبطانية وأنكمش داخل الفراش فتدخل الطمانينة قليلا إلى قلبي.

تغلق أختي أذنيها وتتوسل إلى جدتي أن تتوقف عن سرد قصص الغول الذي إلتهم الأطفال ثم تنهض وتهرع خائفة وترتمي فى حضن والدتي التي تبتسم لجدتي ..تهم جدتي بالقيام فأتشبث بثوبها الأسود لتجلس من جديد بجانب الفرن البلدي الذي يمدنا بالدفء والحرارة ..

تندهش من جرأتى فتعيد السرد من جديد بعد أن تضحك قائلة «شجاعة زي أبوك» ..تنتهى جدتي من القصة فلا أطالبها بالمزيد.. تستلقي لتنام فوق الحصيرة بجوار الفرن .

أصعد درجات السلم بحذر وقد خلد الجميع إلى النوم ..أمر بجوار

غرفة أبي وأرى المسافة الطويلة المظلمة التي مازالت تفصلني عن غرفتي ..ألتفت حولي عند سماع أحد الأصوات الغريبة ..أعود بسرعة البرق إلى جدتي وأنام بجوارها ..أسمع ضحكتها وهى تحتضنني ثم ننام سويا.

يستمر صوت المقرئ فى التلاوة وتبدأ الطمأنينة تستقر فى قلبي وبدأ النعاس يتسلل إلى جفوني ..أشرد بذهني قليلا إلى الجامعة والدراسة التي بدأت من جديد ولم أحصّل منها شيئا بعد ..أتحسس هاتفى وأأمل أن تتصل أختي فلقد عادت لتأخرها عن الاتصال من جديد ..لكن هذه المرة طالت الفترة.

«معلش يا "أمل" مقدرتش أوصل للتليفون ..كلنا بخير وأمي بتسلم عليك ووحشاها»

تصمت قليلا ثم أسمع صوت زوجها وقد عاد مبكرا « سلام يا "أمل" حأكلمك بعدين».

أسمع صوت جلبة وينغلق الخط ..أنتظر لثوان أسمع فيها صوت انتهاء المكالمة.

استلقي على جانبي الأيمن واستعد للنوم ..فجأة ينقطع التيار الكهربي ويسود الظلام والصمت الغرفة ..أقف مفزوعة بجوار الفراش وقد توقف القارئ عن الترتيل وأصبح الظلام دامسا.. يعود الصوت أكثر قوة من جديد فأعتصر البطانية وأكتم أنفاسي فى رعب بانتظار قدوم الفجر الشتوي المتأخر.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أمر على الحمام فى طريقي للعمل ..مازالت دادة "عفاف" غائبة عن

العمل ..فآخر مرة رأيتها كانت مع إحدى الفتيات أخبرتني أنها ابنتها.. «سهام»..تماما كما تخيلت ملامحها ..ومن وقتها وانقطعت عني كل أخبارها لم تعد تأتى للمول ولا أعرف عنوانا لها.

أنتظر فى الحمام قليلا ..تدلف إحدى العاملات لم أرها من قبل تخبرني أنها العاملة الجديدة بدلا من أخرى كانت تدعي "عفاف" توقفت عن العمل كما أخبروها!

أبتسم فى مرارة وأسألها عن اسمها ..تتفحصني جيدا

- «عاوزة تعرفى اسمي ليه ؟ حاتناسبيني؟»

تقولها ثم تهرع لتجلس على مقعد جديد جلبته معها ..تشيح بنظرهها عني فأمضي خارجة من الحمام.

أمنع دموعي من الانهمار وقد أدركت أن سلواي الوحيدة التي كنت أبثها أحزاني وآلامي واسرارى قد إختفت إلى حيث لا رجعة ..تماما ككل شيء جميل فى حياتى مضى بعيدا.

..ترى ما بها وما أصابها؟..كانت قد أخبرتني ذات مرة أنها تعود لبيتها مع أحد جيرانها العاملين بالماركت كان يدعي غالبا «على أوعادل» ..لكن كيف استطيع العثور عليه وسط كل هذه الأعداد من العاملين ..أمسح دموعي التي انهمرت وأنا اتذكر صوتها العميق ونصائحها وأحاديثها معي وهى تهبط على قلبي كالبلسم فيشفى جروحه حتى لوكانت تشكو إليّ هى الأخرى همومها.

أحاول استرجاع ملامحها الطيبة الودودة ..تظل عالقة بذاكرتي قليلا ثم تستبدلها ملامح الأخرى بغضبها ونظراتها المقتحمة..أهز رأسي كي

أفيق قليلا واستمر فى سيري ..أضواء المحال التجارية تسطع ويبدو أن كل محل قد تنافس كي تكون إضاءته أكثر إبهارا وقوة تتداخل الألوان فى نظري ..تماما كأول يوم لدخولي المول

..لم يتغير شيء بداخلى منذ ذلك اليوم..نفس الذهول الذي يصيبني عند سطوع الأضواء بقوة هكذا ..تمر بي حالة من انعدام التوازن لا أحبها حيث تداخل فيها الأفكار وتختلط المشاعر بداخلى ..وأحس حينها بالتيه والضلال وسط عالم مادي مضيئ.

.أمر بالسلالم المتحركة التي رأيتها لأول مرة وأصابني الخجل حيث كنت أخشى السقوط وأنا أمد قدماً وأرجع الأخرى ثم توصلت إلى حل وهو أن أثب على درجة السلم الثانية.

أمر على مزيد من المحال وكأني أراها للمرة الأولى ..بأناسها بالداخل البعيدين تماما عن عالمي والذين لا أراهم سوى بالمول ..حيث كوكبهم الأصلى..كل مطعم أو مقهى يبدو وكأنه عالم مستقل بذاته منفردا بألوانه وطرز مقاعده وجوه الداخلى ..رغم فخامة كل عالم منهم إلا أنني لم استسغ ذلك المشهد قط..فهويحمل من البهرجة أكثر مما ينطوي على الاناقة ..أشعر بتنافر الأذواق أحيانا فى الألوان المنتقاة رغم ما بها من فخامة..يبدو الوضع أشبه بمهرج يرتدي ثياباً من أغلى الأنواع لكنها متنافرة الألوان.

أدفع الباب الزجاجي وأعيد وضع لافتة "مفتوح" وأعود لمقعدي من جديد ..أعبث بهاتفى المحمول فأجد رقم أختي فى المكالمات التي لم يتم الرد عليها ..يكاد قلبي يتوقف عن النبض وقد أيقنت أني أضعت لحظة ثمينة بتجولي خارجا ..تري هل ستعاود الإتصال ..أنتظر قليلا ثم ما يلبث

أن ينهش القلق أحشائي ..أكتب رقم هاتفها على لوحة المفاتيح وأتردد فى الضغط على زر الاتصال.

رباه لوفقط استطيع الإتصال بها؛ لكني أخشى أن أسبب لها أي مشاكل كما طلبت مني مرارا..أحاول تناسي الأمر وأعيد ترتيب الملابس وأتشاغل بالزبائن ..لكن تخونني عيناي متطلعة إلى شاشة الهاتف بين لحظة وأخرى..لم كل هذا القلق والتوجس الذي يمر بي؟ فليست هذه هى المرة الأولى التي تتأخر فيها عن الإتصال..ربما لا تجد فرصة سانحة بعيدا عن عين زوجها المتربصة.

أطمئن نفسي بهذه الخاطر لكن ما يلبث أن يعود الشك والخوف فى صورة أكثر توحشا ..أستعيذ بالله من الشيطان وانتظر مرور الوقت فى توتر بالغ.

يدلف أحد الزبائن بزي غريب وألمح العلامة الحمراء على وجه المرأة فأدرك أنهم من الهنود الذين كنت أراهم على شاشة التلفاز قديما عندما كنا نلتف حول الفيلم الهندي فى المرات القليلة التي يكون فيها الإرسال جيدا بلا تشويش بقريتنا النائية. تتفحص المعروضات ثم تنظر إليّ وتسألني عن شيء تبغيه لكني لا أفهم حرفا مما تتفوه به..أشير بيدي فى عدم فهم واحاول أن اتحدث معها بالإنجليزية التي لازلت أجيدها بفضل مدرستي.. لكنها لا يظهرعليها معرفتها للإنجليزية وتكرر طلبها بلغتها التي لا أفهم ما تطلبه أهو سؤال أم فعل أم اسم!..تمر لحظات نتبادل فيها الحديث بالاشارات وتحاول افهامي ما تريد دون جدوي ..يصيبها الملل فتخرج مع زوجها وهى تتفوه بألفاظ غريبة على مسمعي لكنها بنبرة أحد صوتا!

IIIIIIIIIIIIIIIIIIII

محمود «١»

أصل للعمل مبكرا كالمعتاد..ينبغي أن نكون أول من يحضر إلى مكان العمل..أحب العمل بالمول وأحب زي العمل كثيرا فهو يعطيني إحساساً بالأهمية واشعر بالفخر وانا أرى أنعكاسي فى واجهات المحلات وألمح ياقة القميص وعليها الشارتين الزرقاوتين والحزام الذهبي المضفر الذي يعبر القميص الأبيض

أعدل من وضع الياقة والحزام الجلدي وأفتل شاربي جيدا ..أبتسم لانعكاس وجهى وأشعر بالرضا..لا أكاد أتخيل أنني حصلت على وظيفة رجل الأمن بالمول فكان هذا أشبه بحلم جميل تحقق فجأة؛ أصبحت أعشق ساعات العمل لما تعطيه لي من إحساس الهيبة ونظرات الإحترام التي أشعر بها فى عيون زوار المول عندما يروننى أسير أمام المحلات أحبه كذلك لأنه يبعدني عن المنزل قدر الإمكان ويبعدني عن «زينب» زوجتي التي صار وجودها يستفزني فى الآونة الأخيرة وفى كل يوم تنجخ فى أن تستحق ركلاتى ولكماتى قبل أن تنام؛ لابد من تأديبها من حين لآخر حتى تدرك قيمة زوجها رجل الأمن ولا تصدع رأسي بطلبات المنزل.

يبدأ الزوار فى ارتياد المول فأبدأ فى التسكع بين طرقات المول؛ أتابع حركاتهم وأرقب مرتادي المطاعم والمقاهى ذات الأسامي الأجنبية التي أعجز عن قرائتها ..استند إلى أحد الأعمدة الكبيرة وأراقب إحدى البائعات فى محل ملابس الأطفال وهى تقوم برص بعض الفساتين..

ألحظ أن لديها إعاقة ما فى يدها؛ الإصبع الصغير ذوعقلتين فقط ..أتأمل وجهها فأجد ملامح عادية لفتاة سمراء ممن ألمحهن كل يوم فى الحافلة وفى حارتنا .

زوجتي ستضع طفلنا الأول..الذي لابد أن يكون ذكراً كي يحمل اسم جده..يأتينا خبر التهنئة من الممرضة داخل الغرفة أن المولود ذكر فأشعر بالسعادة البالغة؟..لابد أن «زينب» تنفست الصعداء بعد التهديدات بالطلاق إن لم تلد ذكرا ..لابد من تهديدها كى لا تفكر يوما فى التمرد وتكون تحت طوعي دائما .

مر شهران على مولد «سليمان» الصغير وطبيب المركز يخبرنا أنه سيصبح معاقا لأنه مصاب بمرض لا أتذكر اسمه لكن ملامح وجهه كاليابانيين ..طفل مغولي كما قالت جارتنا التي شمت زوجها فيَ بالطبع..أشعر بالغضب الشديد وأنهال ضربا وصفعا على «زينب» تلك المرأة التي لا نفع لها والتي لا تستطيع أن تنجب طفلا سليما.

أتجه إلى المصعد الزجاجي واتأمل الزوار الذين ينتظرونه..ينفتح الباب فألمح «زين» عامل المصعد الذي يحييني بإشارة من يده ثم يهبط.. يحاول أن يتقرب مني أكثر من مرة وأراه يحاول فتح باب الحوار معي لتزجية وقتنا الطويل معا..أخشي أن اتحدث معه كى لا يلحظ لعثمتي الواضحة ولا أريد أن يفسد ذلك الصورة التي أريد أن تنطبع فى ذهنه عني..أحاول أن أتغلب على هذا العيب الخطير لكن كلما حاولت الكلام أبدأ فى التلعثم وتبدأ قطرات العرق فى الإحتشاد أعلى جبيني ..يضايقني الأمر كثيرا فأحاول قدر الإمكان تجنب الحديث مع من لا اعرفهم كي تظل صورتي القوية والتي يساعدني فيها بينة جسدي الطويلة ..لابد أن يظل الجميع يخشاني ولابد أن يحسبوا لي ألف حساب.

أتأمل بعض الزائرين يحملون حقائب بلاستيكية تحمل أسامي المحلات التي ابتاعوا ما بها من مشتروات..لم أكن قد رأيت أبناء تلك الطبقة العليا من قبل سوى من خلف زجاجات سياراتهم ..كانت المرة الأولي التي أرى فيها هذه الأناقة والثراء الذي يشع من ملابسهم وملامحهم التي تنطق أنهم أولاد الذوات الذين يصرفون أموالهم بلا حساب ..من المؤكد أن كل واحد منهم لديه أكثر من سيارة فخمة بينما انحشر أنا كل صباح داخل تلك الحافلة اللعينة ..أتابع إحدى الفتيات التي ترتدي بنطالا قصيرا يعلوه بلوزة قصيرة الأكمام ..جسدها رشيق يتمايل فى خفة مع كل خطوة تخطوها..أفتل شاربي وأتابعها من جديد وهى تمر أمامي ..تلحظ نظرتي فأخفض عيني ثم أعيد تأمل جسدها عندما تنحرف يمينا.

ألمح عم «حسني» وهو يركب تلك السيارة الصغيرة لتنظيف أرضية المول اللامعة وجعلها أكثر لمعانا ..يسير فى خطوط طولية ثم ينحرف ويعاود سيره فى خط مواز وأرى الفرشات الكبيرات وهى تدور لتمسح سيراميك المول كسيارات تنظيف الشوارع التي كانت تنظف الطرقات الرئيسية فيما مضي لكن على حجم أصغر. أسير بجواره وأتابعه فيدير رأسه ويلقي السلام ..أحييه بتحية رأس عابرة ثم ألقي عليه نظرة أخيرة وأسير فى الناحية الأخرى..لا أريد أن يبدأ بالحوار معي هوالآخر ..فلابد أن يدرك أني رجل أمن وهومجرد عامل نظافة ..لابد أن يظل يخشاني هو الآخر ولا يحدثني كلما أراد؛ بل أكون أنا الذي يبدأ الحديث وينهيه فالجميع ينبغي أن يدرك حدوده ومكانته.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

تنتهى ساعات العمل فى سرعة ..أعود للمنزل فى ضجر؛ لم أعد أطيق

رؤية»زينب» ولا طفلها المعاق الأبله ..أفتح باب المنزل فأجد والدتي تجلس على مقعدها تستمع إلى المذياع و»زينب» تعد طعام العشاء..ألمح «سليمان» يحبو ويقترب مني ليتشبث بطرف سروالى فأدفعه فى غلظة.. لا أطيق النظر إلى وجهه بهذه العيون المسحوبة والغباء المرسوم على وجهه..تحمله والدتي وهى تلومني وتقوم بتهدئته كي يتوقف عن البكاء.. أنتهى من استبدال ملابسي وأجد « زينب» لم تنتهِ من إعداد الطعام بعد.. لا يمكن أن يمر يوم دون أن تستفزني تلك المرأة ولا بد من وصلة الشجار والسباب كي تنهى الطعام بسرعة..أجدها تسرع فى حمل الأطباق وتضعها أمامي على الطبلية الصغيرة..تأتى بطبق الفول وتأنّ وتمسك ببطنها المنتفخ ..دائما ما تتصنع التعب..تثيرني تلك الحركات فأقوم بزجرها كي تتوقف عن هذا التمثيل: «بلاش دلع يا ولية قومي فزي هاتى الملح»..تهرع إلى المطبخ فى سرعة خوفا من أن تأتيها صفعة أخرى.. حقا لابد من تأديبها كل فترة حتى «تمشي على عجين مطلخبطوش».

أجرع الماء من القلة ثم أتحسس بطني فى ارتواء ..مازال الوقت مبكرا فأقرر أن أمر على قسم الشرطة بجوارنا كما اتفقت مع الصول «فتحي».. أسير فى حارتنا الضيقة فأقابل الحاج «كامل» ينظر لي طويلا ويحدجني بنظرات غاضبة..أقابله بنظرات مثلها فأسمعه يتمم بكلام وأدعية وأسمع بوضوح حسبنته عليّ..أبتسم فى سخرية وأتعمد أن يري تلك الابتسامة ثم أخرج إلى الشارع المؤدي للقسم ..أدلف من باب القسم وألقي التحية على أمناء الشرطة الذين صاروا يحفظون وجهى لكثرة ترددي عليهم.. استرجع حوار «زين» معي حين بدأت فى التقرب منه عندما أفلت لساني وأخبرته أنني سجنت لفترة.

يدفعني أحد الأشخاص فى الحافلة بعنف ثم يسبني كي افسح الطريق..أدفعه بعيدا عني وقد بدأ الغضب يحتشد بداخلى ..يستمر فى سبابه البذيء ويسب والدتي بألفاظ نابية فأنهال عليه ضربا ونستمر فى شجارنا حتى نصل إلى قسم الشرطة..لم أفهم سر هذا الغضب مني داخل القسم مع أنه من بدأ بالشجار إطمأننت حين رأيت بعض الشهود جاءوا ليساندوني كي آخذ حقي منه لكن إذ فجأة أجد صفعة قوية على قفاي من الرجل والضابط لا يأتى بأي رد فعل بل يسبني هو أيضا بأقذع الألفاظ «تضرب أمين شرطة يا روح أمك؟» يقولها فأشعر بالخوف الشديد .

تنتهى حفلة الضرب أخيرا ويجعلني أحد العسكر أقبل قدم الرجل فيضحك الجميع إنسحب كل الشهود فور أن عرفوا أن الرجل أمين شرطة..يهددني صول القسم أنه سيحرر محضرا وسيكون لي ملفا يمنعني من العمل فى أي عمل محترم بعد الآن إلا لوتعاونت معهم.. أمسح الدم الذي سال من أنفى ومن أسناني وأهز رأسي فى استسلام.

قررت منذ هذا اليوم أني لن أضرب مرة أخرى ولن أسمح لأحد أن يهينني بعد الآن..كان التعاون معهم سهلا بعض الشئ..فقط يطلبون مني استراق السمع فى كل تجمع وأتحرّى عن كل فرد فى منطقتي له نشاط سياسي أو يتحدث فى السياسة أو يأتى بسيرة الرئيس أو أحد كبارات البلد بأي سوء..وفى المقابل كان الرضا التام عني وبعض النفحات المالية والعينية بين الحين والآخر ..كالبضائع التي يصادرونها من الباعة الجائلين ..إلى جانب أن الجميع أصبح يخشاني فى المنطقة ويحسب لي ألف حساب بعد أن كانوا يسخرون من لعثمتي فى الكلام ..ألقي التحية على الصول ويسألني عما لدي من جديد.

أمل «٦»

اتكئ على حافة الباب الزجاجي وأتسلّى بمشاهدة العابرين كي يمر الوقت فتخفت حدة قلقي وتوتري ..ألمح فى آخر الرواق بعض الشباب لا يتعدي عمر أكبرهم العشرين بأي حال من الأحوال يتسكعون ويدورون برؤوسهم فى كل اتجاه على غير هدى ..تعرفهم فور أن تقع عيناك عليهم..تمر بجوارهم فتاة فيبدأون فى المرور أمامها ومقاطعتها أثناء سيرها أولا كي يختبروا الطلقة قبل إطلاقها ..لا يلمحون غضب أوضيق على ملامح وجهها فيزيدون من جرعة المعاكسة.. يبدأ أحدهم فى إلقاء بعض المعاكسات اللفظية ..تستمر الفتاة فى سيرها دون أن تبدي غضباً فيزيدون من العبث ..تمر الفتاة بجوارى فألمح ابتسامة خفيفة على شفتيها ..أندهش فهذا كان آخر شئ أتوقعه..غريب أمر تلك الابتسامة الواثقة ..أزادها ذلك ثقة فى جمالها؟..أتبعهم بنظري لأرى ما سيفعلونه من جديد ..فيبدو أن هذه هى متعتهم التي أتوا من أجلها المول. يستمر الشباب فى المعاكسة وتستمر الفتاة فى السير أمامهم دون أن تسلك طريقا آخر بعيدا عنهم حتى يملونها ويبحثون عن واحدة أخرى..ليعيدوا الكرّة معها كمشهد مرسوم بدقة لا يحيدون عن أي تفصيلة فى هذا السيناريو.. أدلف لداخل المحل حين ألمح اقترابهم.

أتحسس هاتفى من جديد ثم أعود للجلوس خلف المكتب .. أعيده إلى حقيبتي وأترك الساحة خالية للقلق يمضغ قلبي ويعتصره ويشارك

عقلي فى عذابي بمزيد من الخيالات والظنون السيئة ليملأ نفسي بهواجس تزيدني توجسا وتجعل نفسي أكثر إظلاما ..تري هل الجميع بخير؟ ..هل أصاب أحدهم مكروها أم فقط هى تخشي غضبة زوجها إذا ما عرف بأمر تواصلها معي؟ ..ربي كم أتمني إقتلاع رأسى لأتوقف عن التفكير ..أدور فى المحل كي أنشغل بعمل وهمي فيتناهى إلى سمعي صوت أغنية تنبعث من المحل المجاور يقوم فيها المطرب بتقليد اللهجة الصعيدية بأسلوب مبتذل وعبارات بالية معطيا صورة كاريكاتورية عن الصعيد..ماذا يعرف المغني أوالمؤلف عن الصعيد كي يتغنى بلهجته بتلك الطريقة المتهكمة السمجة؟..هل ذاق مرة طعم الاستيقاظ باكرا ليري شروق الشمس وهى تلقي أشعتها على الحقول التي يحتضنها الجبل الصحراوي المهيب فى تضاد جميل ونادر يجمع بين الأرض الخصبة والصحراء جنبا إلى جنب.. أفيق من ثورتي الداخلية التي وجدت لها متنفسا على قرعات متتالية على الباب الزجاجي ألتفت لأجد " سمر" التي تعمل بالمحل المقابل تقف مبتسمة ..أشعر بالامتنان داخلى فقد بُعث إليّ من يلهيني قليلا ليمضي الوقت دون أن يأتى القلق على البقية الباقية من اتزاني العقلي.

تلثمني على خدي ثلاث قبلات كعادتها وكما فى كل مرة أنسى وأتراجع بعد القبلة الثانية بعدما تعودت من عادة القاهريين ثم أتذكر وأكمل الثالثة التي تكون دائما غارقة فى الخجل ..تبدأ فى الحديث فأسحب المقعد حيث أنها ستكون جلسة طويلة من الثرثرة ..تمسح شفتيها بإصبعها بين الحين والآخر فى عادة أجاهد كى لا يظهر نفوري منها.

تبدأ كلاما كثيرا مختلطا لا تدري فيه ما علاقة الجملة الحالية بما يليها ولا ما سبقها لكني أفضل صحبتها عن "منى" رغم أنها أحيانا تبدي غرابة

فى الأطوار والتصرفات لا أفهمها وتزداد بها صورتها غموضا ..تتحدث عن إحدى الزبائن التي كانت تبحث عن ثوب للسهرة لحضور أحد الأفراح تري عدم ظهور أي انفعال على وجهى فتكمل روايتها عن الزبونة التي كانت تتحدث مع أختها عن الأثواب المعروضة وهما تتحدثان عن الفرح الذي سيقام بفندق خمس نجوم.

- «قال خمس نجوم قال؟!»

تقولها وهى تدق بإصبعها على المكتب ..أفكر فيما قالت فلا أجد سببا لعصبيتها ولا أرى فيما روت جريمة ارتكتبتها الزبونة ليغضبها الأمر إلى هذه الدرجة ..تكمل قصتها موضحة كيف رحلت فى النهاية دون أن تبتاع أي ثوب.

- «طب إيه المشكلة ؟»

تخرج مني الجملة دون وعي فأندم عليها حين ألمح الغضب فى عين "سمر"

- «إيه المشكلة؟!..زباين آخر زمن صحيح ..طالعين فيها على إيه مش عارفة ونص كلامها بالإنجليزي مع أختها مفهمتش منه حاجة».

أضحك بداخلى وأجاهد كى لا تفلت مني الابتسامة فينعكس غضبها على أنا الأخرى ..وأشاركها التعجب من الانفلات الأخلاقي الذي أصبح عليه الزبائن! تنهض لتلقي بنظرة على المحل الذي تعمل به؛ لا تلمح أي زبائن فتعود لجلستها وتكمل حديثها ..تمسح شفتيها من جديد فأغمض عينيّ حتى تبدأ فى الكلام ..تروي المزيد من جرائم زبائن المول فأتابعها دون انتباه حقيقي ..يصيبني الملل فأستوقفها قليلا فى هدنة كي أسألها عن نفسها ولماذا لم تحدثني عن حياتها الشخصية من قبل ..تشرد قليلا

وتتطلع إلى السقف.

- «عاوزة تعرفى إيه عني ..واحدة بياعة فى محل ..حياة إيه إللى متوقعاها ..مبحكيش عن نفسي عشان مفيش حاجة تتحكي.»

تضرب بأظافرها على زجاج المكتب فأتابع تعاقب إصبعيها السبابة والوسطي فى إيقاع سريع رتيب أرفع نظري لها فتقرر أن تعطي نفسها فرصة الحديث عنها فتتحدث طويلا عن حياتها المملة وعن الروتين الذي يتوغل فى كل شيء ليصيب الحياة بالركود ..تروي لي تفاصيل علاقتها مع أمها والتي يشوبها التوتر خاصة بعد رحيل الأب وكيف أنهما قد يمر اليوم عليهما دون أن تتبادلا كلمة واحدة..أنظر لها بدهشة فهى تتحدث عن أمها وكأنها تتحدث عن زميلة سكن لا أكثر ..البعض لا يُقدر حقا النعمة التي بين يديه حتى يفقدها ..تتحدث مجددا عن الملل اليومي ..أسرح قليلا يا لها من مسكينة فبماذا ستصف إذن حياتى التي زحف السأم على كل جانب منها واستشري فيها حتى أصبحت الحياة نفسها عادة لا أكثر.

أتطلع إلى شفتيها التي تتحركان بسرعة ولا أنتبه جيدا لما تقول ..إذا كانت ما تشكو منه هوالملل فإذن ما أنا فيه هوالموات بعينه ..تتوقف عن الحديث عندما تلمح إحدى الزبائن وهى تتطلع إلى الفاترينة.

- «أهى واحدة منهم أهى «

تقولها وتزفر بضيق ..تدلف الزبونة إلى الداخل وتبدأ فى تفحّص المعروضات ..تنهض "سمر" لتعود إلى عملها وتمر بالزبونة وترمقها بنظرة حادة ..تهز رأسها ثم ترحل مبتعدة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

ينهى الأستاذ " مصطفى" حسابات اليوم ثم يناولني راتبي الشهري.. ينظر إلى ساعته ثم يخبرني أني باستطاعتي الرحيل مبكرا اليوم إذا كنت أرغب فى ابتياع احتياجات المنزل؛ أشكره وأتناول حقيبتي قبل أن تدلف إحدى الزبائن وأمضي مسرعة..أمر على المحلات القريبة من بيتي وألمح بعض أعواد البخور يفرشها رجل عجوز على قطعة من القماش فوق الرصيف المقابل ..أعبر الشارع وأنا أنفخ بين يدي لعل ذلك يقلل من برودتهما فى ليل يناير البارد ..تري كيف يتحمل الجلوس هكذا وأنا أكاد أتجمد من البرد؟

أقترب منه فأراه يجلس على الأرض رغم برودة الجو يرتدي جلبابا أزرق اللون فضفاضا بشكل واضح عليه ويلتحف بكوفية من الصوف الذي حال لونه ولم أعد أميزه؛ يخفى بها رقبته ووجهه فلا يظهر سوى حاجباه الكثّان اللذان يخفيان أسفل منهما عينان أسدل عليهما ستار جفونه..لا يبدو أنه أحس بوجودي فأحييه بصوت عال فلا يرد؛ أحييه مرة أخرى فيرد نصف التحية فقط ..يرانى أتأمل بعض العلب فيزداد نشاطا ويفرد بضاعته البسيطة ليريني كل ما لديه وقد بدأت أرى عينيه وجزء من وجهه يظهر خلف كوفيته ..أتناول عبوة فيمد لي يده بواحدة أخرى وفى عينيه نظرة رجاء واضحة؛ أخذها منه فألمح على عينه اليسري غشاوة بيضاء غيرت لون عينه فبدت رمادية اللون.

تجلس جدتي بجوارى على الحصيرة وتفرد ساقها الأخرى بجوارها؛ أمسك بطرف الخبز البتاو وأغمسه في الجبن وأرفع به نحوها كي أطعمها إياه ..تبتسم وتمد يدها لتأخذها لكنها تخطئ يدي ولا تستطيع الإمساك بها ..أضعها بين يدها فتلوكها وأرى عينها التي يعكر صفوها سحابة من جراء المياة البيضاء كما شخصها الطبيب.

أضع العلبتين بحقيبتي وأسأله عن الثمن يرفع رأسه من جديد وأسمع صوته أكثر وضوحا:

- «إللى تجودي بيه يا بنتي»

يتناول مني المال ويتفحصه ثم يدعولي طويلا بالنجاح والستر وراحة البال أبتسم من آخر دعواه لي وأكمل طريقي وأنا أردد بقوة « آمين يارب».

أمر على الميدان المزدحم الصاخب فى كل ساعات اليوم ..أدخل السوبر ماركت الجديد الذي كان افتتاحه منذ فترة قصيرة وأبتاع احتياجاتى من طعام يكفى للأسبوع المقبل ..دائما أجده مزدحما وكأن الناس لا يفعلون شيئا سوى شراء الطعام ..أتخذ دوري فى الطابور أمام الكاشيرة ممسكة بحاجياتى القليلة التي تناسب فردا يحيا بمفرده وأتابع الزبائن أمامي وهم يفرغون بضائعهم العديدة كي تكفى احتياجات أسرهم الكبيرة.

أخرج من السوبر ماركت فأعرج على الحلواني وأبتاع طبق من الحلويات الشرقية استعدادا لزيارة " فاطمة "غدا فى منزلها كي أبارك لها على زيجتها التي لم أقتنع بها بعد ..أعبر مدخل العقار بسقفه المرتفع ومصباحه الشاحب الذي تراكم على زجاجه غبار أسود وحوله أعشاش عنكبوت تكاسل البواب عن إزالتها ..يلقي المصباح بضوء خفيف ينجح بالكاد فى إنارة المدخل لكنه يرسل خيالات على جوانب المكان.

أحيّ حارس العقار الذي يتظاهر بالنوم عند دخول أي من سكان العقار وأناوله المبلغ الشهري كي لا يغلق الباب بقفله العملاق إلا بعد قدومي من العمل ليلا فينهض فى نشاط ولا أنسي أن أسأله عن أحوال أبنائه وزوجته

فيجيب إجابات مبتورة وهويدس المال داخل أحد جيوب الجلباب.

أصعد درجات السلم ببطء وقد بدأت أشعر بتعب وألم فى كل عظامي..يأتى إلىّ صوت شجار جارنا مع زوجته:

- «أجيب فلوس منين ..مانا بأشتغل صبح وليل زي إللى فى ساقية.. أسرق يعني؟»

أسارع بفتح باب الشقة عند سماع صوت ارتطام باب شقتهم وأراه ينزل السلالم مسرعا وهويغلق أزرار معطفه تتبعه زوجته لكنها لا تلحق به ..أغلق الباب بخفة كيلا تسمع صوت انغلاقه فتحسب أني اتلصص عليهم .

أبدأ فى إعداد الطعام وقد قمت برفع صوت التلفاز لعله ينتصر على الصمت المطبق على أنحاء المكان ..أحاول الابتكار فى إعداد العشاء فأضيف بعض الحبهان والبهارات فى طريقة جديدة لعمل الأرز رأيتها فى التلفاز ..أشعر أني سمعت صوتا وأشعر بحركة خلفى ..أدير وجهى لكني لا أرى شيئا ..أطل برأسي من باب المطبخ وقلبي تتسارع دقاته وأكاد أغمض عيني كيلا أرى ما أخاف رؤيته ..أنتظر ساكنة فى مكاني قليلا فأتأكد أني كنت واهمة.

أعود للداخل وقد أيقنت أنني أشق طريقي بنجاح نحو انهيار الأعصاب..أجاهد كي أتغلب على خوفى وأشم الرائحة الزكية معلنة نضوج الطعام فأبدأ فى إعداد المائدة؛ أضع مزهرية صغيرة وأضيف لها بعض الورد البلدي الذي مازال حيا لم يذبل بعد أبدأ فى تزيين طبق السلاطة وأقطع الخضروات فى شكل جديد ..أضع كل ذلك على المائدة وأجلس متأملة الطبق الوحيد عليها وأتأمل الجهد الذي بذلته فى تزيين

الطعام والمائدة من أجل أن أتناوله وحيدة كما فى كل يوم وليلة ..فما جدوي التعب إذن؟

أشعر بعبثية ما أفعل وفراغ حياتى من أي محفز يجعلني أشعر أني أحيا من أجله ..فلا فرد فى المنزل ينتظرني حين عودتي ولا هناك من سيلحظ وجودي من غيابي فى أي مكان سوى الأستاذ " مصطفى" عندما أتأخر لتعطيل العمل ليس إلا ..أفقد الرغبة فى الطعام فأزيح الطبق جانبا وأعيد الطعام إلى الثلاجة.

أتدثر بين البطاطين كي استيقظ باكرا استعدادا لزيارة " فاطمة" قبل صلاة الجمعة كما طلبت ..استلقي على جانبي الأيمن لكني لا أنام ..يعاودني حديث " سمر "عن ما تشعر به من ملل فانقلب للناحية الاخرى..أمسك بهاتفى للمرة الأخيرة وأنا أدرك تماما أني لم آت على تفكير أحد ..أضع الوسادة على رأسي كي أوقف شلال الأفكار الذي فاق ضجيجه صوت العربات المارة بجوار رأسي.

على «٦»

«على ولي أمر الطفل "هادي عمر" التوجه لمكتب الأمن للأهمية»

يتكرر النداء للمرة الثانية هذا اليوم على أهل الطفل التائه ورغم ذلك لم يتوجه أحد منهم لمكتب الأمن تضحك "مرفت" بقوة:

- «أهله ما صدقوا إنه تاه ولا ايه؟!»

تضحك معها "سماح" وأرى نظراتها التي تتبعني فأكمل عملي فى رص العبوات الجديدة بالحامل المعدني بجوار الكاشيرة ..تدندن "مرفت" إحدى الأغنيات وأرفع نظري لأشعر بعين "سماح" مازالت تتابعني ..ألتفت ناحيتها فيزيغ بصرها للحظة ثم كعادتها تمطرني بكلامها السمج الذي تتعمد من خلاله التهكم من وزني الزائد:

- « أخبار الريجيم إيه يا "علي" ؟»

تقولها فلا أرد ..أنظر ل"مرفت" التي تتابع ما يحدث بإنتباه مدارى

- «شكلك تخن زيادة..مش ناوي تعملها وتخس ؟»

ألتفت لها وأحاول كتم غيظي ..أتشاغل بعملي ولا أرد فتنهض لتأتى بزجاجة مياة تسألني إن كنت أريد شيئا فأهز رأسي نفيا دون أن أنظر لها فتمضي مبتعدة..غريب أمر هذه الفتاة ..أنتهز فرصة رحيلها لاسأل "مرفت" عن السبب الذي يجعلها لا تتوقف عن سيل الكلام السمج عن وزني الزائد مع علمها التام أن الخوض فى هذا الحديث يسبب لي ضيقاً.

تبتسم "مرفت" وتهم بالرد ثم تتوقف قليلا ..تعود لتكمل كلامها وتخبرني أنها تكن لي معزة لكنها لا تستطيع تزيين كلامها.

أهز رأسي فى حيرة :

- «واضح المعزة فعلا»

تبتسم ابسامة ماكرة وترد:

- «هى قالتلي أنها بتعزك بس إنت إللى مش واخد بالك».

تعود لدندنة الأغنية من جديد..وأنتهى من رص العبوات فأعبر الحاجز المعدني لخارج الكاشيرة ..أرى فى نهاية الممر طفلا صغيرا تبتاع له والدته بالونة جميلة الشكل من بائع البالونات الهليوم الرائعة ..يسير بها ويمر أمامي فألمح السعادة على وجهه ..يجذب الخيط فتقترب البالونة ثم يرخيه لتعلو مرة أخرى.

أقف فوق سطح منزلنا فى أول أيام عيد الفطر ممسكا بطرف الطائرة الورقية وأتحاشي بقايا طعام وفضلات الدواجن التي كانت تربيها جارتنا والتي ماتت جميعها مرة واحدة بسبب « الشوطة» كما أخبرتني أمي ..يهتف "أحمد" و"هالة" ابنا خالتي اللذان لا أراهم إلا كل عيد ويهرولان تجاهى كي يمسكا معي طرف الطائرة..يتسخ سروالى الجديد الذي خاطته لي أمي فأعطي طرف الطائرة "لأحمد" وانشغل فى تنظيفه ..يوجه "أحمد" الطائرة ناحية أسلاك الكهرباء فيشتبك الخيط بها ..أحاول تخليصها قبل أن تحكم عليها الأسلاك فىمنعني ويجذبها بعنف لينقطع الحبل وتتعلق الطائرة بالأسلاك بعيدا ..أظل واقفا مكاني أرقبها تتطاير بين الأسلاك يهبط "أحمد" و"هالة" السلم ويصيحان بي:

- «يلا مش مهم نشوف حاجة تانية نلعب بيها».

أمسك بطرف الخيط المقطوع وأتأمل المسافة بيني وبين ذيل الطائرة ذي الشرائط الملونة الذي يرفرف بعيدا بفعل الهواء.

يصيح الطفل فرحا ويقذف بالبالونة لأعلى من جديد ..يفلت الخيط من يده وتعلوالبالونة لأعلى أحاول أن أتيه بالخيط لكنها تفلت مني أيضا.. نظل نرقب سويا تحليق البالونة حتى تصل للسقف المرتفع للمول ..تنتبه الأم على صوت بكائه فتمسك بيده وتعود لتأتيه بواحدة أخرى

أنتبه على صوت "مرفت" الغاضب:

- «إيه رحت فين ..يالا كيّس»

أبدأ فى تعبئة الأكياس وأختلس النظر للبالونة العالقة بعيدا فى سقف المول تماما كأحلامنا الجميلة التي تحلق بعيدا لتسكن السحاب حيث لا تطالها يدنا.

- «أسرع شوية لوسمحت»

يقولها الزبون فأنتبه لعملي كي أنتهى منه سريعاً.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

أنشغل فى ترتيب أحد صفوف المسحوق حين أشعر بضربة قوية على ظهرى تلصقني بالصف ..أدير وجهى وقد أدركت صاحبها

- «"كامل" حبيب قلبي ..خف إيدك شوية».

يضحك بطريقته المتقطعة الطفولية ويسألني إن كنت قد أنتهيت من عملي ..أرص آخر العبوات وأنهض فيخبرني عن الجمعية التي يشتركون فيها وأنهم ينقصهم ثلاث أفراد كي يكتمل العدد؛ أفكر فى المبلغ المطلوب ثم أعطيه موافقة للاشتراك معهم ..أسير معه قليلا فيخبرني أن المدير قام

بخصم جزء من راتب أحد الزملاء أفلتت من يده إحدى المزهريات الكريستال وهويقوم برصها على صفوف العرض.

- «الفازة ثمنها الشيء الفلاني..ربنا يستر خلي بالك أحسن أنا عارفك إيدك سايبة».

أتحسس رقبتي وقد أحسست أني فى هذا الموقف بالفعل ..نمر على قسم المخبوزات فتصل إلى أنفى رائحة الخبز الطازج الشهى ..تتحرك أمعائي لا إراديا وأشعر بالجوع يعتصرها ..يشير إلى التورتة التي قام أحد العمالين بوضعها فى ثلاجة العرض لتوه فيسيل لعابي أكثر وأدفعه للسير فى طريق آخر.

يتردد قليلا فى كلامه وهو يسألني عن أحوالى فأدرك ما يريد الحديث عنه فأرد عليه قبل أن يسأل أني مازلت لم أتحدث مع «سهام» بعد ..ويبدو أني لن أجسر أبدا على الحوار معها فيما أريد.

يهز رأسه ضيقا:

- «إنت حتفضل على طول متردد كدة لحد ما تضيع منك»

أصمت قليلا ثم أسأله بغتة:

- «"كامل" ..قل لي صفة حلوة في».

أندم بشدة على ما قلت وأنا ألمح دهشة "كامل" .. يتطلع إلي ويجيبني أن بي صفات جميلة كثيرة..أصمت قليلا ثم أقاطعه مجددا وأنا ألحّ أن يذكر على مسمعي ولو صفة واحدة من هذه الصفات.

يفكر قليلا « انت شكلك مش فى الفورمة النهاردة ..إيه الكلام الغريب دة؟»

أشيح بيدي وأطلب منه أن يتناسى ما قلت ..فلن استطيع إفهامه.. إذ أني أحيانا لا أفهم نفسي بشكل كامل ..فقط كنت أود سماع صفة جميلة عن شخصي تحسسني بين الحين والآخر بأدميتي وتعطيني قليل من الثقة بنفسي ..فأحيانا يشتاق المرء أن يسمع كلمة طيبة بحقه تجعله يدرك أن الغد ليس بهذا السوء الذي يحسب.

ألمح ازدحاما عند الكاشيرة فأعود لعملي ..أبدأ فى الشعور بالحرارة تجتاح جسدي أمسك برقبة البلوفر الصوف الذي أرتديه تحت الأوفر أول وأجذبها قليلا لعل الهواء يبرد تلك الحرارة ..أعود لتعبئة الأكياس وأسأل "ميرفت" إذا كانت تشعر بالحرارة مثلي فتهز رأسها إيجأبا وتجيب باقتضاب:

- «عشان الزحمة».

تضحك "سماح" وتتدخل فى الحديث قائلة:

- «التخان دايما يتحروا بسرعة».

..يمر الوقت وقد بدأت الحاجة لدخول دورة المياة تلحّ عليّ ..مازال الطابور طويلا أحاول الإسراع فى عملي قدر الإمكان؛ أمسك بأحد الأكياس وأفتحه بسرعة فيتمزق بين يدي؛ أرمي به فى عصبية وألمح نظرة الدهشة فى عيني "ميرفت" ..أكمل عملي بلا تركيز فأضع علبة من الجبن مع بعض الشماعات فأعود لإخراجها ..أحاول الانشغال عن التفكير فى الأمر كي أخفف من حدته لكن كلّما مر الوقت أصبح الوضع لا يحتمل ..أنظر حولي لعلى أجد أي زميل فرغ من عمله لكن الكل مشغول فى ساعة الذروة هذه ..أهز رأسى بقوة وأنا اعتصر الكيس وأحاول إقناع نفسي أن كل ذلك ليس حقيقيا كما كنت أفعل فى صغري ..تفشل الخدعة هذه

المرة وأشعر بخزي عميق عندما أدرك ما وصلت إليه ..أني بت بحاجة إلى إذن كي أذهب لدورة المياة ..أكاد أبكي من فرط الغيظ وقد بدأت أشعر بالتعب الشديد؛ أدفن نظري بين الأكياس لعلي اتناسي ولعل حدة الأمر تخفت قليلاً.

- «مالك يا "علي"؟»

تقولها "ميرفت" وهى تلمح توتري وإحمرار وجهى فلا أجيبها وأهز رأسي وقد استبد بي الخجل الشديد ..لويتوقف هذا الطابور لدقيقة واحدة..انتقل للوقوف على القدم الأخرى لكن الوضع يزداد ألما.

- «"علي الجندي؟»

أندهش فأرفع رأسي ناحية الصوت ..فمن الذي يعرفني جيدا لينادني باسمي كاملا ..ألتفت تجاه الصوت فألمح وجها مألوفا لكني لا استطيع أن أحدد نوع الألفة ..يقترب مني شابا فى مثل سني مع الفارق الواضح فى الوسامة والملابس المهندمة التي تشي بذوق جيد وسعر مرتفع.. يصافحني وهويسألني عن أحوالى فأجيب إجابات ألية وأنا أجاهد كي أتصفح ذاكرتي لعلى ألمح هذا الوجه بها.

- «شوف الدنيا صغيرة إزاي؟مشفتكش من أيام الكلية»

يقولها فيضيء مصباح صغير بذاكرتي المظلمة؛ يستمر فى حديثه فأتذكر تلك الطريقة فى الكلام التي يفوح منها غرور مغلف بمودة زائفة.

- «"طارق حميدة"؟ مش كدة؟»

يربت على كتفى وألمح نظرته الساخرة إلى الأوفر أول والتي لا يحاول إخفائها ويسألني عن عملي داخل المول.

- «زي ما أنت شايف»

أقولها وأتابع عملي وقد بدأ الإحساس بالضيق يزداد داخلى ..يكمل أسئلته التي أعرف أنها لا غاية لها سوى أن يسمع مني أسئلة مثلها عن أحواله وما أنجزه بعد التخرج ..أتعمد عدم سؤاله كي أفسد عليه متعته التي ينتظرها بشغف وقد أدركت من حاله وحال ثيابه أنه سيبدأ فاصلا مطولا من الإطراء الذاتى كعادته.

أجلس مع أفراد شلة الجامعة وأتبادل حديثا قصيرا مع "مريم" زميلتي؛ تضحك لدعابة ما ألقيتها ثم تبدأ تتحدث بدورها ..يتدخل "طارق" كعادته المقتحمة بيننا ويدير ظهره لي ليقف عائقا بيني وبينها ويبدأ يحدثها بصوته المرتفع وهو يروى لها آخر صولاته وجولاته ..يمر أحد حراس الجامعة فيحيه "طارق" بصوت مرتفع فى إشارة واضحة المعني لنا جميعا؛ يبادله رجل الأمن التحية .

يستمر فى حديثه ويحاول إضحاكها بشتي الأساليب ..أتراجع بظهري لأجلس حتى ينهى حديثه السمج فينتقل إلى قصة جديدة عن عمله مع أحد المعارف الذي يعده بعمل مميز فور تخرجه.

- «أنا اصلي مسنود وأعرف ناس مهمة».

يرانى منهمكا فى التعبئة وقد زاد وجوده الإحساس لدي بضرورة الذهاب للحمام سريعا ..يروي لي عن عمله فى إحدى الهيئات الحكومية ذات الوزن الثقيل والراتب الثقيل.

-» مش أي حد يشتغل هناك».

يقولها ويتحسس ساعته اللامعة فأهز رأسي متابعا

-»اصل أنا لي عضوية فى الحزب وأحبابي كتار».

يوقفني كلامه فأسأله عن أي حزب يتحدث..يضحك ضحكته الفجة مجيباً:

- «هوفى حزب غيره ..حزب الأغلبية طبعا».

- «طبعا يا "طارق" لوانت مش فى الحزب أمال مين إللى يبقي فيه؟!»

أقولها وأضحك فيزداد الشعور إلحاحاً لديّ ..ينتبه إلى رنة السخرية فى صوتي فيتوقف قليلا ثم يسألني بلهجة متهكمة:

- «تحب أشغلك شغلانة تانية بدل إللى انت فيه دة ..أنا بإشارة مني تلاقي عندك وظيفة متحلمش بيها».

أشعر بالدماء تغلي داخل جمجمتي فأشكره من بين أنيابي وأمد بصري فأرى الطابور وقد تقلص ولم يعد باقي سوى زبون واحد..يستمر "طارق" فى حديثه المزهو بنفسه وأهز رأسي يمينا ويسارا متلمظا وقد إزداد الأمر عليّ ولم أعد استطيع التحمل أكثر من ذلك.

يعطيني الكارت الخاص بهَ فى زهو واضح وينصحني بالانضمام معهم للحزب ويعدني بما ينتظرني من خيرات.

أومئ برأسي إيجابا فى ألية شديدة وأنتهى من آخر الزبائن فأصافحه وأقاطع حديثه المختال الذي لا ينتهى:

- «فرصة عظيمة أوي يا "طارق"..بس أنا مضطر أسيبك عشان بصراحة مزنوق من زمان!»

يرفع حاجبيه فى اندهاش ويسألني:

- «مزنوق فى إيه؟ قل لي أساعدك»

أضحك وأنا أرجع بظهري مسرعا:

- «لا الزنقة بتاعتي حزبك ميقدرش يساعدني فيها!»

أهرول مسرعا قبل أي تطور وألمح علامات الدهشة على وجهه تتحول إلى غضب تدريجي.

زين «٥»

تمر الأيام كئيبة فى العمل ..بدأ الشتاء وبدأت آلام المفاصل معه ..مرت فترة طويلة لم أر فيها تلك الفتاة ..بحثت عنها فى كل يوم فى كل طابق دون جدوي..ألوم نفسي على تسرعي ولا أدري لماذا علقت بذاكرتي ملامحها حتى بت استرجعها كل لحظة.. أندهش من نفسي بشدة مع شكوكي تجاهها ..كان لابد أن يكون شعوري ناحيتها هو النفور فكلّما كنت أسمع عن فتيات الليل كان كل ما أشعر به تجاههن هوالاشمئزاز والاستنكار.. لكن لا أفهم سبب هذه المشاعر المتداخلة التي أمر بها .مزيج من الشفقة والفضول ورغبة ملحة فى رؤيتها وتبادل الحديث معها..استرجع نظرتها فأجدها عميقة تحمل الكثير من الحزن والغموض ..زاد فضولي بعدما رأيتها فى ذلك الملجأ..وأيقنت حينها أن الصدفة لا يمكن أن تكون بهذه المبالغة إلى حد رؤيتها فى محل عملي وقرب محل سكني..شعرت أنه لابد من استغلال هذه الفرصة لكني أفسدت كل شئ بتسرعي.

يدخل أناس كثيرون إلى المصعد ويخرج أناس أكثر..أتأمل الوجوه على إختلافها ..وجوه مصرية فتيات وشباب..ووجوه أجنبية وبعض الهنود الذين لم أرهم من قبل سوى فى التلفاز..يدخل البعض فينشغل بمتابعة المشهد الصاعد من خلال الزجاج الفيميه أو يعدل من مظهره أمام المرآة أو يعبث بحقيبته أو بهاتفه الخلوي ..لا أظن أن عين أحدهم وقعت على وجهى قط..ولا أظن أن شئ من ملامحى سيعلق فى ذهن أحد منهم فأنا

بالنسبة للجميع جزء من المصعد لا يلتفت له أحد ..أحيانا تنتابني رغبة فى إرتكاب فعل مجنون كالصراخ أوالضحك بصوت مرتفع كي أجذب إنتباه أي شخص ..أتوقف بالمصعد فى الطابق الذي يعمل به «محمود» اقتربت المساحات بيننا بعض الشيئ ولا أعني باقتراب المساحات اقترابنا نحن من بعضنا البعض..فشخصيته من أغرب ما رأيت..تارة أجده بشوشا فى وجهى يتحدث معي بحميمية ثم دون أي مقدمات يتحول إلى شخص صموت وتعود اللعثمة له فى معني واضح أنه راغب فى إنهاء المحادثة..تفلت منه عبارات صادقة عن نفسه أحيانا لكن بعدها أجده يتصنع شخصية أخرى يحاول بها أن يثبت لي أنه قوي وأنه ذوشأن كبير فى منطقة سكنه ويُحسب له ألف حساب..أتأمل بنيته الناحلة ولعثمته وأؤمّن على كلامه دون اقتناع.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أقف أمام الملجأ للمرة الرابعة أملا فى أن أراها تأتى لزيارة الطفلة التي رأيتها بصحبتها ..منيت بخيبة الأمل طيلة أسابيع طويلة لكني لم أفقد الأمل بعد ..أعبث بإحدى الأحجار الصغيرة وأقذفها بطرف حذائي وأنظر بين لحظة وأخرى إلى بوابة الدار.

يمر الوقت ويبدأ الهواء البارد يلفح ظهري ويؤلم مفاصلي ..أرفع رأسي مجددا ثم أتسمّر فى مكاني عندما ألمحها تدلف فى خفة إلى داخل الدار..لوكنت تأخرت ثانية أخرى لكانت مرت دون أن ألحظها ..تمكث بالداخل عشر دقائق فأقرر أن أدخل أنا أيضا وليكن ما يكن ..أقف على باب الملجأ محتارا ثم أدلف للداخل..أتأمل جدران الملجأ التي سقط الجير عن بعضها ..ملامح الفقر والإهمال بادية عليه كأوضح ما يكون.. تسألني إحدى العاملات عما أريد وهى تمسك بطبق ملئ بالكوسة التي

ستقوم بتقشيرها فأوصف لها ملامح فتاتى ..تتفحصني بريبة ثم تنصرف دون كلمة واحدة..تأتى سيدة تسألني عما أريد مجددا فأعيد وصفها تشير إلى أحد الأركان وبصوت عالى تنبه الفتاة « أنسة مها واحد عايزك».

تنظر لي فى حيرة أول الأمر ثم ألمح نظرة الذعر على وجهها..أسارع بالكلام كي لا تفر مني كالمرة السابقة ..أردد كلاما كثيرا عن أننا نفتقدها فى العمل وأن المدير أرسل فى طلبها للسؤال عنها ..ترفع حاجبين متسائلين فأطلب منها الحديث على انفراد وأهمس لها ألا تخشى شيئا مني وأني سانصرف لوطلبت مني ذلك ..تصمت قليلا ثم تودع الطفلة ونسير معا إلى خارج الدار.

لم أكن أتصور أني سأتحدث معها طويلا هكذا..أخبرتها كيف كنت أراها بالمول ولم تكن تلحظ وجودي وعن الصدفة الغريبة التي جعلتني ألقاها من جديد.. كان السؤال على لساني أكثر من مرة لكني كنت أجبن عن إلقائه حتى بادرتني هى:

«انت عارف أنا باعمل إيه فى المول؟» هززت رأسي وسألتها عن السبب ضحكت وأجابت:

«أنا ممكن أحرجك وأقولك كلام يمشيك ..بس أنا حاحكي لك ومش عارفة ليه»

تطول جلستنا لساعات على الكورنيش تروى لي فيها أدق التفاصيل عن حياتها التي ذهلت لها .. أعود للمنزل منهكا لطول سيرنا لكني سعيد.. لا ألتفت لحديث والدتي لكني أهز رأسي متابعا وأنا استعيد ما دار بينا منذ ساعات ..لم استطع النوم هذه الليلة ظللت استرجع كلامها المرة تلوالأخرى.

«أنا اسمي مها» تبدأ حديثها ثم تصمت حرجا .».مها دة اسمي الحقيقي مش اسم الشغل لكن لي أسامي تانية « سالى وبوسي وراندا»

أتركها تروي دون تدخل مني تخبرني عن حياتها السابقة ونشأتها فى ملجأ للأيتام واللقطاء..لم تعرف لها أب أو أم فقط اسم ثلاثي كتب فى شهادة الميلاد كي يصبح لها وجودا ..تمر على ذكرياتها فى الملجأ سريعا ..يتضح كرهها للفترة التي مرت بها هناك ..تختصرها بعبارتها « ذل من كل شكل ولون» ..تستمر فى حكيها دون أن تنظر لي كأنها تحدث نفسها ..بعد عامها التاسع عشر..كان لابد أن تترك الدار لأنها لم تعد طفلة وهكذا وجدت نفسها فى الشارع ..لا مأوى ولا تعرف أحدا ولم تؤمن لها الدار وظيفة كما كانوا يخبرونها ..أمضت الأسبوع الأول فى الفناء الخلفى لأحد المنازل حتى انكتشف أمرها وعادت للشارع من جديد.

– «فى الشارع كل ما تتخيله ممكن يحصل..أبشع الحاجات تحصل قدام عينيك كل لحظة».

تخرج لي مطواة صغيرة وتضحك عندما أفزع لمظهرها ..تحكي لي أنها أول شئ ابتاعته بما تبقي لها من مال ..أسألها عن السبب فتنظر لي باستنكار وتضحك فى سخرية..أجبرتها الحياة فى الشارع على أن تنام بالنهار وتصحو بالليل حماية لنفسها من « كلاب السكك» كما وصفتهم ..أسألها إن كانت عرفت طريق الرذيلة بسبب رفاق السوء من الشارع فتضحك ضحكة طويلة « رفاق السوء؟..» تقولها فى تندّر « ده تسمعه فى برنامج عن أطفال الشوارع ..إنما السوء دي كلمة بسيطة بالنسبة للي بيحصل».

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

ألبّي نداء الأزرار المتكرر وأقل الزوار كما المعتاد..العدد بدأ يقل بعد قدوم الشتاء لا أدري لم هذه السعادة التي تجتاحني هذه الأيام ..حالة من الرضا تمر بي وتجعلني أكثر إقبالا على أحداث اليوم..أثرثر مع « محمود» كالعادة فأجده يسألني إن كانت هناك أي انتخابات قادمة..أتعجب من السؤال ومن هذا الحرص على الانتخابات والتصويت فيخبرني أنه ينتظر «موسم» الانتخبات لأنه كله خير وبركة!..لا أفهم ما يرمى إليه فأجعله يستمر فى حديثه..يبتسم ابتسامة عريضة ويحكي فى حماس كمن يروي قصة ممتعة عن أنه يقف يوم الانتخابات منذ الصباح الباكر أمام اللجان ينتظر أعضاء الحكومة الذين يوقفوهم صفا ويبلغونهم بما عليهم فعله ..بعد أن يضع العلامة المتفق عليها بجوار اسم مرشحهم يحصل على أجرته ..فى بعض الأحيان تكون خمسين جنيها أوعشرين جنيها أما فى انتخابات المحليات فأحيانا يكون صوته مقابل فرخة مشوية ..ثم يعاود الكرّة فى أكثر من لجنة فى اليوم الواحد ..على حسب قوة تحمله عشر إلى خمسة عشر لجنة ليحصل على حصيلة لا بأس بها ..تلجمني الصدمة فأظل صامتا حتى ينتهى من حكايته ويعاود سؤالى إن كنت أعلم متي ستبدأ الانتخابات ..أحاول إفهامه خطأ ما يقوم به وأن هذا تزوير ولا يختلف عن شهادة الزور فلا يظهر عليه أثر لكلامي ..ينتابني الغضب فأحاول إفهامه أن ما هو فيه من بؤس حال سببه الحكومة ومرشحيها التي تشترى صوته وصمته بفرخة مشوية؛ أفاجأ برده:

- «وحياة أبوك سيبك من الكلام إللى ميأكلش عيش وقل لي امتى حتبدأ»

أشعربالغيظ الشديد وأمتنع فى آخر لحظة عن ضربه فأنصرف من

أمامه قبل أن أتهور وأنا ألمح نظرته الغريبة لي ..ألعن غباءه وإصراره على هذا التدهور وألعن مدى ما وصل له المرء فى بلدنا من رخص حتى يبيع نفسه مقابل فرخة مشوية دون خجل ودون حتى رغبة فى شراء كرامته وإنقاذ نفسه من هذا المستنقع كأنما أدمن حياة الرخص إلى الأبد.

أفسد عليّ صباحي بحديثه هذا وجعل حالتي المزاجية تعود لسوئها من جديد..لا أدري هل هى نعمة أن تدرك مأساتك وحقيقة واقعك المزري؟.. أم هل هى نقمة أن تعي حقوقك وتعي ما يحدث فى عالمك أم تنعم بجهل تام ولاوعي عما يدور حولك؟ تفرح بلقمة خبز فاسدة يلقونها وتفرح بما يلقون لك دون أن تدرك أنهم يسلبونك أضعاف ما يعطونك إياه.

مازال اليوم الثلاثاء .باقي ثلاث أيام على يوم الجمعة موعد لقائي مع «مها»..بعد لقائي الأول بها وجدت نفسي أنتظرها فى نفس المكان والموعد دون إتفاق مسبق ..ووجدتها تنتظرني كذلك..لا أدري لم أفعل ذلك ولم أرغب فى رؤيتها رغم أن فضولي لمعرفة قصتها قد زال بعد لقاءاتنا إلا أني ازددت رغبة فى الحديث معها ..لا أدري حتى اليوم كيف لا أشعر بالنفور منها بعد ما عرفت عن ماضيها الملوث..ولا زالت إلى اليوم لا أجد إجابة لسؤالها:

«انت عاوز مني إيه؟»

تقولها فجأة فيرتج عليّ القول ..لا أدري حقا إجابة للسؤال ..أصمت فتبتسم وتعاود الحديث ..تخبرني كيف أدركت منذ البداية أن الاعتداء على الفتيات أمر أشبه بالعادة وأدركت أنه سيحدث لها عاجلا أم آجلا فقررت أن يكون بإرادتها وألا يكون دون مقابل ..ترى صمتي وذهولي فتكمل فى لهجة لوم:

«إنت مجربتش أنك تبقي جعان لدرجة أنك تدور فى الزبالة».

تشرد طويلا ثم تدمع عينيها؛ كانت أول مرة مقابل وجبة عشاء كما أخبرتني ..لا تزال تتذكر رائحة الشواء وبطنها التي تتمزق جوعا أمام محل الكباب..الزبون يراها من بعيد وسرعان ما تم الإتفاق..تشرد مجددا وأرى ملامح الألم على وجهها فأطرق للأرض ..كل ما تتذكره هو وعد الشعور بالشبع..أما الباقي فمشاهد ضبابية لا تريد أن تتذكرها ..تدمع عيناها ثم تنهمر الدموع..لا أدري ما أفعل ..ينظر الناس لنا بفضول فأربت على كتفها فى تردد أول الأمر ثم فى ثقة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أراها تقبل فأقف مبتسما ونسير فى نفس الطريق كما فى كل مرة.. أسألها لماذا ترتدي غطاء الرأس فترد أنها كانت ترتديه منذ أن كانت بالملجأ لكنها كانت تخلعه بالمول وتعاود ارتداءه فى الشارع ..تعترف لي أنها كانت ترتدي أحدث الثياب للعمل فى المول أما خارجه فكانت تفضل غطاء الرأس لأنه يقلل من الشك فى أمرها عندما يطول وقوفها فى الشوارع الرئيسية ..أظل صامتا طويلا؛ تهز كتفى وتبتسم قائلة:

- «خضيتك بكلامي وكل إللى حكيتهولك».

أهز رأسي وتكمل حديثها معي..نتحدث عن أشياء أخرى..عن المول وزبائنه وأروي لها بعض الحوادث التي أتعرّض لها فى العمل..اسألها فجأة السؤال الذي كنت أتحرّج من طرحه فتجيبني بصراحة:

- «أنا بطلت القرف ده خلاص ..بطلته من ساعة ما بدأنا نتقابل».

تحكي لي عن « إيمان» الطفلة التي كانت تزورها بالملجأ وأنها دأبت على زيارتها منذ ما يزيد على العام؛ تعطيها بعض اللعب وتطعمها بنفسها

كيلا تأخذ العاملات الطعام بعد رحيلها كما كان يحدث فى ملجأها.. تضحك فأسألها عن السبب فتخبرني أنهم قابلوها بالترحاب أول الأمر حيث ظنوا أنها ستتبرع لهم بالمال وفور أن عرفوا أنها تريد التبرع بالجهد والزيارات تغيرت المعاملة تماماً.

تخبرني فى فخر أنها فتحت لها دفتر توفير بحساب الطفلة تضع به مبلغا كل فترة كي تجد ما تؤمّن به مستقبلها عندما تترك الدار فلا تتعرض لما تعرضت هى له ..أنظر لها فى ذهول؛ أهم بالكلام فتسكتني بإشارة من يدها..نكمل السير فى صمت لفترة طويلة وأجدها تتوقف وتبادر بالكلام قائلة:

- «أوعى تفكر تجوزني فى يوم..أنا مانفعكش يا زين..وأنا مارضهاش ليك».

أظل على ذهولي من قدرتها على الدخول إلى أعماقي ..فلقد رفعت عني حرجا كبيرا

نسير بعدها فى صمت وتتنفس فى عمق لتعاود حديثها ..كانت عاهدت نفسها منذ أول يوم لها فى الشارع أنها لن تبقى طويلا به..وكان القرار بعد المرة الأولي أنها ستقوم بالمستحيل كي يقصر عهد الشارع.. تبتسم وتروى لي كيف كانت تحمي نفسها ممن يحاول الإعتداء عليها ولا تتردد فى طعنه بالمطواة حتى أصبح يخشاها الكثيرون..خاصة بعد أن قضمت أذن أحد الفتيان الذي انتهز فرصة نومها ظاناً أنها ستستسلم له كباقي الفتيات ..بعد أن ملأ الدنيا صراخا اجتمع الفتية الآخرون واشتبكوا معها فى معركة ودافعت عنها بعض الفتيات.

تلقت الكثير من اللكمات حتى نزفت أنفها لكنها أخرجت مطواها

وبكل غل طعنت أحدهم فى ساقه فولى الباقي الفرار؛ تضحك طويلا بعدها ثم تعبس فجأة..أتحسس أذني لا شعوريا وأسألها عن باقي الفتيات فتمط شفتها استنكارا «أخدوا على الشارع ومش حيسيبوه».

أسألها عن مكان إقامتها فتخبرني بفخر أنها كانت تدخر كل ما تحصل عليه من مال لتحقيق حلم الشقة التي تحميها من العالم بالخارج..بدأت تستأجر غرفة فى بنسيون درجة عاشرة ثم بدأ المال يتجمع لديها حتى استطاعت أن تدفع به مقدم لشقة صغيرة للغاية لكنها المأوى الوحيد لها وباقي المبلغ أخذت تدفع أقساطه كل شهر ..تخبرني أنها منذ اللحظة الأولي قررت أن تتوقف فور أن تملك شقتها لتحميها من العودة للشارع وهوله ..لكنها لم تنه دفع أقساطها بعد فسألتها فى ريبة عما ستفعل.. تتوقف عن السير وتنظر فى عيني بلوم :

- «أنا قلتلك أني بطلت خلاص لكن معرفش لسه حكمل الباقي إزاي».

أعتذر لها ثم اطمئنها أني سأحاول أن أوفر لها المال على أن تقوم برده فيما بعد على دفعات ..وسأجلب لها قريبا ما تدفع به القسط الحالى حتى تجد وظيفة ..تمسك بكتفى فى فرح وهى تشكرني بقوة وتعدني بردهم على الفور..أشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل وقبل أن أودعها أسألها إن كانت بحاجة للصحبة كي تصل للمنزل بأمان فتضحك وتسألني إن كنت أنا من يحتاج لصحبتها فهى ستجيد قضم أذن من يريد بي سوءاً!

محمود «٢»

هناك ازدحاما اليوم بالمول ..المطاعم ممتلئة بالزوار وهناك طوابير كثيرة أمام شبابيك قطع التذاكر بالسينما ..أتأمل رواد السينما؛ معظمهم من الشباب صغير السن ..مجموعة من الفتيات الجميلات ينتظرن أمام باب السينما ريثما تقوم إحداهن بقطع التذاكر لهن ..يأتى ثلاث فتيان ويلقي أحدهم بعض المعاكسات ..تلتفت الفتيات للناحية الأخرى فيستمر الفتي فى معاكستهن..تغضب إحدى الفتيات وتستدير لأسمع كلمة أجنبية ما تفوهت بها وهى غاضبة ..من المؤكد أنها سبابا..أتابع ما يحدث لأجد أحد الفتية قد تهور وبدأ يمد يده على الفتاة..هنا أبدأ فى التدخل قبل أن يزداد الموقف سوءا..يرانى الفتي قادما فيتراجع قليلا فتتقدم الفتاة وتعاود توبيخها الصارخ له من جديد ..أتدخل بينهما وأفض الاشتباك وأجدها فرصة سانحة كي ألمس جسد الفتاة دون أن تلحظ وبدعوى محاولتي إنهاء الأمر..ترحل الفتيات وألوّح للفتي كي يبتعد حتى لا يتعرض للأذي ..يمر الموقف بسلام وأعود لموقعي..أتابع المكان تحسبا لأي مشاكل أخرى.. أشعر بسعادة بالغة عندما أرى الفتية ينظرون باتجاهى ويتابعون الفتيات وهن يرحلن..لقد أخفتهم للغاية..فلا يجسر أحد منهم على معاودة الأمر مرة أخرى..أتعمد السير أمامهم والنظر لهم مليا ثم أكمل طريقي وأتابع واجهات المحلات .

عملت بوظائف كثيرة لا أذكر عددها..عملت سباكا وحدادا وسائق

عربة نصف نقل..جربت أعمالاً كثيرة ومهناً كثيرة حتى لم يتبق سوى أن أصبح وزيراً!..لكن وظيفتي بالمول أكثر وظيفة أحببتها وأشعر فيها بالسعادة..اتطلع إلى بعض زبائن أحد المقاهى الأجنبية وأجد أربعة من الشباب يرتدون ثيابا فاخرة وأمام أحدهم جهاز حاسب آلى ..يشير لهم ليتابعوا ما يتحدث عنه على الشاشة ثم يتحدث طويلا ويستمعوا له..الفتي وسيم ولكنه بلا شارب وأنا لا أحب الرجل الذي يحلق شاربه فهو يتخلي عن رجولته..شعره لامع مصفف بعناية يرتدي بذلة أنيقة خلع سترتها وقام بتعليقها على ظهر المقعد الذي يجلس عليه..لا أرى مثل هؤلاء إلا فى مكان العمل..لم أرهم قط خارج المول وكأن لهم عالم آخر غير الذي نحيا به..تمر أمامي إحدى عاملات النظافة تمسك بزجاجة الصابون وترش منها على السطح الزجاجي وتقوم بتلميعه ..تقوم لتمسك بظهرها ثم تنتحني من جديد لتقوم بتلميع باقي الزجاج.

أفيق على وسوسة « زين» حيث توقف بالمصعد..أصبحت أميل للحديث معه بعد أن اقتربت المسافة قليلا بيننا ..أجده ينصت إلى حديثي دون أن يظهر عليه أثرا لملاحظة لعثمتي..من المؤكد أن مظهري القوي واليونيفورم المهيب لم يجعله يلحظ ذلك وهذه هى ميزة العمل ولذلك أحبه.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أعود من القسم فى ساعة متأخرة ..سألوني أسئلة كثيرة عن نشاط كل فرد من أهل الحارة وعدد الأبناء وميول كل منهم ..ألحظ أن هناك توترا ما بسبب بعض المخرّبين كما قال لي الصول الذين يريدون إدخال البلد فى فوضى ويدعون أنفسهم « كفاية» لم أفهم كل كلامه لكنه أوضح لي

أنهم خونة وعملاء ويريدون ضياع مستقبل البلد لذا لابد أن اتنبّه لكل من يتحدث أمامي عن السياسة فقد يكون واحد منهم متخفٍ..أعود منهكا وأسير فى الشارع الذي بدأ فى النعاس فى هذا الوقت المتأخر من الشتاء.. أسمع وقع أقدامي وأشعر بالصمت يغلّف الشارع فينتابني شيء من الخوف..أسمع عواء أحد الكلاب الضالة فيزداد شعور الخوف وأسرع السير.

يتعمد «حسن» جارنا أن يفزعني كلما لعبنا سويا فى الحارة.. يختبئ خلف الأبواب ثم يظهر لي فجأة كي يستمتع برؤيتي وأنا خائف.. يقرر الأولاد أن نلعب فى الخرابة لعبة الاستغماية..أحاول أن أجعلهم يتراجعون عن رغبتهم لاني أخشى الخرابة وأرتعب من مجرد النظر لها..يهزئون مني ويردد أحدهم «محمود طول عمره جبان»..أقرر أن ألعب معهم ويختبئ الجميع خلف أي شئ يصلح للإختباء ويحين دوري كي أبحث عنهم..الظلام شديد فى الخرابة ولا أرى سوى خيالات ..يخيل إليّ عند رؤية أي شئ أنه شبح سيهجم عليّ..أسمع مواء قطة مخيف فأبدأ فى الارتعاد وأشعر بضربات قلبي تتسارع ..أتوسل لهم أن يظهروا لكن المواء يزداد ارتفاعا ثم أسمع صوت ضحك مخيف..أبكي طويلا ثم أعدو هارباً من الخرابة فأسمع أصوات ضحكاتهم تخترق أذني «الجبان أهو..الجبان أهو».

يعاودني نفس الشعور بالخوف فأهز كتفى محاولا طرده..يزداد وقع صدى الصوت فى هذا السكون فأهرول إلى المنزل مسرعا..أمي نائمة بالمنزل و«زينب» مستيقظة تبكي..دائما هى مصدر للنكد لا يأتى منها أي خير على الإطلاق ..أسألها عن سبب هذه المناحة التي تفتعلها آخر الليل فتخبرني أن والدتها قد تم حجزها بالمستشفى بعد أن دخلت فى

غيبوبة؛ حيث أنها مصابة بفيروس «سي» ولم يعد كبدها يعمل كما يجب ولا تقدرعلى ثمن حقن الإنترفيرون ..ألعنها لهذه الأخبار السوداء التي لا تحمل سواها.

- «خليها تموت أهى تستريح وتريحنا بدل ما انتي صارفة مرتبك على الحقن ويا ريته بفايدة».

تعاود البكاء فأزجرها كي تخرس ..تكتم بكاءها أخيرا؛ فأستبدل ملابسي وتقوم بإرضاع الطفلة وتضعها فى فراشها..لم تنجب ذكرا فى المرة الثانية رغم كل تهديداتى لها بالزواج مرة أخرى ..أدرك أني لا استطيع الزواج مرة ثانية فالمنزل ضيق للغاية ولا استطيع تحمل نفقات الزواج الجديد والمرأة الجديدة..تهمّ بالنوم فأهزها..لا تلتفت فأهزها أكثر وقد استفزتني فأمطرها بوابل من السباب ..تنهض وتستجيب لي فأغلق المصباح وأقوم بإطفاء شعلة رغبتي المتأججة.

||||||||||||||||||||||

غريب «زين» هذا..كان يحاول التقرّب ثم أجده الآن لا يغادر المصعد إلا نادرا..أخبرني بقرب موعد الانتخابات التي أنتظرها بفارغ الصبر.. سأتغيب يوما عن العمل وأتفرّغ لها حيث يقوم الصول بإخبارى بأماكن الدوائر الانتخابية التي بها مرشحي الحكومة ويأمرني أن أدلي بصوتي فى كل لجنة للمرشح الذي يخبروني بإسمه..أقوم بجمع بعض الشباب من الحارة ونذهب إلى اللجان منذ الصباح الباكر..ينقسم جزء منا ليمنع الناس من دخول اللجان ويرهبوهم بالعصي والمطاوي وذلك كى لا يقوموا بأعمال تخريبية داخل اللجنة كما أخبرني الصول..وجزء آخر يقوم بالإدلاء بصوته..أحيانا يكون المقابل مجزيا وفقاً لموقع اللجنة

..فى بعض الأحيان يكون الصوت فى مقابل مائة جنيها أوخمسين جنيهاً يعطوننا نصفها قبل التصويت والنصف الآخر حين نظهر لهم على الهاتف المحمول صورة الورقة وتم وضع العلامة أمام اسم المرشح المطلوب.. لكن فى بعض اللجان المتقشفة يكون المقابل وجبة غذاء..لكن كله خير وهوموسم أنتظره بفارغ الصبر.

يقابلني الحاج «عامر» أثناء إغلاقه لمحله ..يبادرني بنظرة غاضبة وأبادله نفس الضحكة المستنكرة..يكرهني بشدة هذا الرجل حيث أني قمت بالإبلاغ عن ابنه الدكتور «أيمن» الذي كان كثيراً ما يسير فخوراً بدخوله كلية الطب وتفوقه كل عام ليصبح من أوائل دفعته..سمعته ذات مرة فى المقهى يتحدث مع بعض زملائه فى السياسة وقد خرج البعض منهم عن شعوره وبدأ يخطئ فى الحديث وتفوهوا بكلام لا يصح عن كبار البلد.

أخذ يفكر الصول طويلا فى كلامي ثم أدخلني إلى الضابط حيث رويت له ما سمعت مرة أخرى..سألني عن كلية «أيمن» وعامه الدراسى فأخبرته أن والده يفتخر أن ابنه سيتم تعيينه معيداً بالجامعة..فى اليوم التالى رأينا أحد المخبرين يصطحب «أيمن» إلى القسم وعاد بعدها بيومين ..لم يتم تعيينه فى كليته بعد أن صار له ملف أمني سيئ وأخذ والده يدعو عليّ ويحسبن طويلاً حتى إلتفّ أهل الحارة حوله وقاموا بإبعاده كيلا يطاله أذى مني..سافر ابنه العام الماضي إلى خارج البلاد وقد أقسم على عدم العودة مرة أخرى..هذا أفضل فلابد أن نطهّر البلد من هؤلاء المخربين الخونة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

عفاف «٧»

استيقظ على صوت جلبة آتية من الخارج ممتزجة بآذان قرآن الفجر.. استلقي على ظهري قليلاً حتى ينتهى ذلك التخبط فى عقلي ويتضح الواقع من الخيال لوعيّ الذي أنتبه لتوه من غفوته..أسمع "سهام" و"عبده" يتحدثان سويا خارج الغرفة فأهب مسرعة من فوق الفراش فزعاً..أراهم يتساءلون عما يجري فنتزاحم معا على النافذة الصغيرة التي تطل على الحارة لنجد مشهدا فريدا ..فالشارع مكتظ بالمارة الذين هرع بعضهم بملابس النوم والكل يجيء ويذهب منهمكا فى أداء عملا لا معني له لكنه يشغله ..الجو متوتر ومشحون بالخوف والتوجس وعلامات الاستفهام يزداد عددها حتى يمنعنا عن الملاحظة..توسوس "سُهام" لإحدى المارة فتستوقفها وتسألها عما يدور.

- «حسرة عليهم.."وفاء" بنت الحاج "يحيى" هى وعريسها لقوهم مخنوقين ...عشان أنبوبة البوتجاز بتسرب».

تشهق "سهام" وأعجز عن متابعة الحوار حيث يزداد التخبط داخل عقلي ولا يصل إليّ سوى جمل مبتورة.

- «الأنبوبة محبسها تلفان ..ربنا يلطف بينا كلنا عندنا أنابيب»

تنهض "أميرة" من نومها وهى تتساءل عما يجري فتأخذها "سهام" إلى الفراش من جديد ..يعجز "عبده" عن النوم وقد تعكر الصباح وصار

من المستحيل أن نتظاهر بأن كل شيء على ما يرام ..يبدأ فى الاستذكار ثم يتناهى إلى سمعنا صوت أم "وفاء" وهى تتشبث بعربة الإسعاف.. نتحاشي النظر إلى بعضنا البعض ولا ندرى لذلك سببا كاننا من تسببنا فى الحادث ؛تكرر الأمر بصوة لا معقولة وكأننا أرواح لا قيمة لها..يسألني "عبده" فجأة عن موعد عودة "محمد" اندهش قليلا لسؤاله فلم تكن عادته السؤال فكان أقلهم سؤالا وأكثرهم تماسكا..ابتسم وأهمس:

- «آخر الشهر بأذن الله»

يبتسم بدوره ويحاول الاستذكار وقد اصبح محاولة النوم مرة أخرى ضربا من المستحيل.

أنتهى من الصلاة فتجلس "سهام" بجوارى تحاول أن تجد مدخل للحديث نتناسى به ما شاهدناه ..تنهض ثم تعود مرة أخرى وهى تريني كشف النظر الذي أجرته "أميرة" فى المستوصف القريب اتأمله فلا أعي معني هذه الأرقام؛ تخبرني أن الطبيب أوصى بضرورة عمل نظارة طبية لها ..تبتسم"سهام" وتخبرني عن سعادتها وفخرها أنها سترتدي نظارة كالأطباء ..أتأمل الكشف من جديد وأسألها بعد تردد عما إذا كان معها ما يكفى من مال لذلك فتبتسم وتومئ برأسها إيجابا وتقوم لإعداد الإفطار بعد أن تؤكد على موعدي مع الطبيب ..أتأملها وهى تدلف للمطبخ الصغير واحاول أن استشف أي خلجة تفلت منها على ملامح وجهها رغم معرفتي ببراعتها فى إخفاء مشاعرها.

ترى أكانت صادقة ومعها ما يكفى حقا من المال أم أنها تدارى عني الأمر كى لا أشعر بالذنب..أنظر لقدمي وأفكر من جديد أكان تركي للعمل أنانية مني؟..أهز رأسي وأكمل دعائي ..فلنصبر قليلا ف"محمد" سيعود

عما قريب وستعود الأمور إلى نصابها وتتحسن الأوضاع بإذن الله ..أسند رأسي على المقعد وأتأمل شروق الشمس ممتزجا بهمهمة "عبده" أثناء استذكاره وأترك أشعة الشمس الوليدة تمسح كل الهموم بداخلى ..لعل اليوم الجديد يأتى حاملا أملاً جديداً.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

ننتظر فى عيادة الطبيب المزدحمة تتبادل "سهام" معي أحاديث قصيرة حول مظهر العيادة الفخم والصور التي يعلقها الطبيب ..أتأمل ما تتحدث عنه فأرى صوراً جميلة لمناظر طبيعية غاية فى الجمال ..تستوقفني إحداهن أرى فيها شلالاً صغيراً ينحدر على صخور ليهبط الماء الرقراق وكأنه ستار من الحرير ..أغوص فيها أكثر فلا أشعر بأي شيء سواها حولي.

يفتح "سيد" حقيبة سفره ..أساعده فى إخراج ملابسه لدى عودته من الفيوم ..يخرج ما أحضره من هدايا صغيرة ويروى لنا تفاصيل رحلته

- «مكنتش أعرف أن الفيوم فيها أماكن جميلة كده..وادي الريان هناك جميل جدا..شلال وطيور ..الطبيعة هناك لسه بخيرها».

يجلس على مقعد ويتنفس بعمق ويفك أزرار قميصه.. يسعل قليلا ويكمل:

- «انشاء الله نروح كلنا السنة الجاية هناك».

أنتبه لصوت "سهام"وهى تنبهني للدخول فأدرك أنني شردت طويلا.. أتحامل وندخل سويا يستقبلنا الطبيب قريب مدام "عايدة" بابتسامة ودود ويخبرني أن مدام"عايدة"أوصته طويلا بنا فابتسم ..تقع عيناه على قدمي فتختفى ابتسامته وتتغير ملامحه لتحمل سمات الخطورة فيدب الخوف

فى أرجاء قلبي ..يحاول استعادة بشاشته ويسألني عما إذا كنت أتابع مع أحد الأطباء.. تزداد ملامحه خطورة عندما يدرك أني لا أتابع مع طبيب بعينه.

- «لكن كنت باروح مستوصف يقولوا أن رجلي حتخف لما أدهن المرهم».

يطقطق بلسانه مستنكرا ويبدأ فحصه لقدمي ..تتابع "سهام" ما يدور بعيون حائرة وقد بدأ القلق ينتابها هى الأخرى.

يقوم بقياس مستوى السكر بالدم وبعد أن ينهى فحصه يجلس أمامنا ويبدأ فى الكلام بعد تردد:

- «هى الحالة مش متأخرة أوي بس لوكنتوا جيتوا بدري شوية».

ينتبه "سيد" لكلام الطبيب ويخبرنا

- «مخبيش عليك يا حاج الحالة متأخرة».

يتابع الطبيب كلامه

- «هومستوى السكر انشاء الله بالمتابعة حيتظبط بس المشكلة أن مشط الرجل بدأت فيه غنغرينة السكر».

تشهق "سهام" وهى تمسك بيدي فيبتسم الطبيب ويهدئ من روعها.

- «الورم انتشر يا حاج بس أملنا فى ربنا كبير».

أفقد القدرة على متابعة حوار الطبيب وأنظر لقدمي ..أسمع بين كلماته المتدفقة جملة تستوقفني:

- «هى منتشرتش فى كل الساق».

تسأله "سهام" بين دموعها المتلاحقة عن الحل؛ يتردد قليلا ثم

يجيبها:

- «حنضطر نبتر القدم عشان متنتشرش فى الرجل ونلحقها «.

تصرخ "سهام":

«بتر»!

يهدئها الطبيب موضحا أنه لابد منه وأنه بالتعود سيصير السير سهلا

- «الحمد لله أنكوجيتوا قبل ما يكون انتشر ..بس ليه يا حاجة تسكتي على نفسك لحد كدة ؟»

يقولها لي فأنتبه أخيرا إلى أنه يوجه كلامه إليّ لا أدري بما أجيب فأنا أشعر كأنما هما يتحدثان عن حالة شخص آخر ..لا أشعر أن ذلك يحدث لي ولا اشعر بداخلى بأي مشاعر من أي نوع سوى الأسف لرؤية دموع "سهام".

يحدد لنا الطبيب ميعادا لإجراء العملية أجده قريبا جدا ويحثنا على الاستعداد سريعا حتى لا تنتشر الغنغرينة فى باقي الساق ..تساعدني "سهام " على النهوض وهى تعد الطبيب أننا سنكون فى الموعد المحدد للعملية تشكره فيحيينا بابتسامته المشجعة.

يزداد تشبث "سهام" بذراعي ونحن فى طريق عودتنا داخل الحافلة.. تستمر دموعها فى الانهمار وأحاول تهدئتها وأطمئنها أن الأمر ليس بهذه الخطورة كما قال الطبيب

- «الحمد لله أنها جت على رجل واحدة».

أقولها وأضحك فتزداد التصاقا بي:

- «كله من الشغل انتي كان لازم تستريحي»

أحس فى نبرة صوتها الشعور بالذنب يكاد يخنق صوتها فأجاهد كي أخفف عنها .. كأنها هى التي ستجرى العملية ..تمسح دموعها عند اقتراب الحافلة من منطقتنا.

يستقبلنا "عبده" متسائلا فتجيبه "سهام" اجأبات مبتورة فيتوجه باسئلته إلى فأحتضنه واخبره أني بخير

أسمع من خلف الباب "سهام" تروى ما حدث ل"عبده" فأحتضن "أميرة" وانام بجوارها.

أتأمل الأضواء الساطعة وأنا مستلقية على سرير غرفة العمليات ..يزداد سطوع الأضواء حتى أبدأ فى رؤية شموس صغيرة من ألوان مختلفة.. ألمح وجه الطبيب يبتسم مشجعا ثم يغطي وجهه بالكمامة.

لا أشعر بنصفى الأسفل من جرّاء البنج الجزئي الذي أحقنوني به.. التفت حولي فلا ألمح وجها مألوفا..أسمعهم يقومون بأشياء ما لكني لا أجرؤ على النظر ..أغمض عينيّ وأضغط بعضلات جفوني على كرتيّ عينيّ كي أبتعد بوعيّ لخارج غرفة العمليات..تختلط الوجوه فألمح وجه "سيد" و "محمد" يبتسم كعادته ابتسامته العذبة ..أتمني لويناولني أحد يده يضغط بها على يدي كي أشعر بأمان ويطمئني ..تمضي الدقائق وأسمع المزيد من الأصوات حتى أسمع صوت الطبيب يخبرني بانتهاء الأمر.

أنتظر فى غرفة المستشفى حولي "سهام" و"عبده"؛ تبكي "أميرة " فتحاول سهام إسكاتها ..يطمئنون جميعا عليّ والكل يشيح بنظره عن قدمي لا يجرؤون على النظر إلى مكان البتر أو الإشارة له بأي كلمة فقد صار الكلام عنه شيئا يتجنبه الجميع حتى صار محرما رغم أنه محور الأحداث والسبب فيها.

اتأمل قدمي بضماداتها الكثيرة التي زادت من حجمها وألمح المساحة الخالية الواضحة وأتساءل هل سيكون السير صعبا أم سأتمكن من التعود على الأمر ..أبدأ فى الشعور ببعض الوخز يسري بقدمي؛ فمفعول البنج قارب على الزوال سريعا كما مرت العملية سريعا.

أدعو الله أن يبقى تأثيره قليلا فقد بدأ الألم يطأ قدمه بثقة وقوة أخشي أن أعجز عن تحملها ..أغمض عيني وأجاهد كي أشرد بذهني بعيداً عن كل ذلك.

على «٧»

ننتظر قليلا على الرصيف بانتظار المواصلات وأفرك يدي كي أشعر بقليل من الدفء ..يأتى الميكروباص فيركب "عادل" مودعا إياي وأقف وحيدا على الرصيف بانتظار أي مواصلة لمنزلي ..أسير قليلا على الرصيف فألمح إعلاناً عن عمل على أحد الأعمدة؛ أدون رقم الهاتف وأنا أدرك أنه سينضم إلى رفاقه من الأرقام السابقة ..يأتيني صوت الكروان الشجيّ الحزين فأرفع رأسي للسماء الصافية وألمح القمر بدرا الليلة؛ يردد الكروان دعاءه من جديد فينشرح صدري المعتم ..أتنفس بعمق واردد معه «لك الملك يارب»

أحاول إيجاد الكروان فأفشل كما دوما ..طيلة عمري لم ألمح أي كروان؛ فقط أسمع صوته العذب الملئ بالأحاسيس وكأنه ينبعث من الوجود نفسه ولا أعثر أبداً على صاحب هذا الصوت الساحر ..يقول من رآه أن شكله ليس جميلا كصوته لكني لا أصدقهم فكيف لمثل صاحب هذا الصوت أن يكون به قبحاً ما ..يكفيه أنه يدعو لمالك الملك.

تأتى الحافلة أخيراً فأجلس بجوار أحد العجائز الذي يمسك بإحدى صحف الغد ويجاهد كي يقرأ السطور وقد قرّبها من وجهه.. يلمح نظراتى إليه فيطلب مني قراءة الأخبار له ..أجدها فرصة رائعة لقراءة الجريدة مجاناً؛ أبدأ فى قراءة أخبار العراق وتساقط عشرات الضحايا يوميا فأسمعه

يردد:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله»

أنتقل لخبر عن عزم الحكومة الغاء الدعم فينطلق صائحا:

- «يابني حرام عليك ..شوف لنا خبر يفرح فى الأيام الغم دي».

أبحث بين سطور الجريدة كلها

- «مفيش غير النوع دة من الأخبار فى بلدنا يا حاج».

يغمض عينيه ويسألني:

- «مفيش أخبار عن المعاشات بقالهم شهر مدوخنا منهم لله «.

أمر بعيني على أخبارالمحليات فلا أجد شيئا؛ أناوله الجريدة مرة أخرى فيأخذها ويحاول أن يبحث بنفسه عن خبر يثلج صدره؛ أتركه فى بحثه الذي سيطول وأسند رأسي إلى النافذة واتأمل بائع البطاطا الساخنة حين تتوقف الحافلة فى الإشارة ..أفك الحزام من حول بطني قليلا فأشعر براحة وانتظر محطتي فى صبر.

أفيق من غفوتي على محطتي؛ أسارع بغلق الحزام من جديد وأهبط مسرعا والأتوبيس قد تحرك..أتمالك نفسي قبل أن أسقط فأتكئ على قدمي اليسري التي تنثني فأشعر بألم حاد جرّاء ثقل وزني على المفصل الأيسر..أتمهل فى سيري وقد بدأت أعرج قليلا ..أصل إلى مدخل الحارة وأنا أكاد أسقط من شدة التعب والألم وقد بدأت أرى بعين الخيال فراشي وقد تدثرت بالبطانية الكاروهات ذات الصوف الخشن .. ما إن أمر على قهوة المعلم "حافظ" حتى يستوقفني لأول مرة منذ فترة ويسألني عن والدتي فأخبره أنها بخير وأنا مندهش لسؤاله

- «يعني لقيتوها الحمد لله ؟»

يري علامات عدم الفهم على ملامحى فيكمل قائلا

- «انت متعرفش؟ "أم هند" بتقول أنها سهيتها وخرجت و..»

تركته يكمل جملته بمفرده وهرعت أهرول رغم الألم الشديد حتى وصلت إلى بيت "أم هند" يفتح أحدهم الباب إثر قرعاتى المتتالية وإذ بوجه "أم هند" الممتقع يرانى فتتسارع الألفاظ ولا أفهم منها حرفا:

- «دخلت أجيب الدوا ..خرجت لقيت الباب مفتوح وهى مش موجودة..دورت فى كل حتة بس ..»

لا يصل إليّ باقي حديثها وأنا أتخيل والدتي مريضة الزهايمر ليلاً فى شوراع القاهرة التي نست عنها كل شيء ..تتسارع ضربات قلبي وأشعر بالعرق يحتشد على رقبتي.. أتمالك نفسي وأمضي إلى الشوارع المحيطة ببيتنا ..لا أدري ما أفعل ولا أي الطرق أسلك؛ أحاول أن أجمع شتات نفسي وأطوف الطرقات حول منزلنا ..كلها خالية إلا من بعض المارة فى هذا الوقت المتأخر من الليل.

البرودة تزداد فكيف تتحملها أمي وهى لابد أنها تشعر ببرود ة الجو والناس والمكان بعد أن نست كل شيء عنهم ..تري أين هى الآن وفيم تفكر؟..أشعر بعقلي يكاد يذوب قلقاً من مئات التصورات المرعبة ..أمر أمام قسم الشرطة ..أتردد قليلا ثم لا أجد حلاً آخر ..لا أدري لم أخاف الدخول فلست لصاً ولا قاتلاً لكني كنت أتحاشى القسم طيلة حياتى خوفا ألا أخرج منه مرة أخرى ..أتحامل على نفسي وأشرح الأمر للمأمور الساهر ..يفتح عينان مندهشتان وألمح ابتسامة ساخرة:

- «تاهت إزاي يعني؟ هى أمك ولا أختك الصغيرة؟»

لا أجد ما أرد به عليه وأتمالك نفسي ..يتعمد إطالة النظر إليّ بعمق ويطلب البطاقة ..أمدها له دون أن ترتجف يدي فينتقل ببصره بيني وبين البطاقة؛ يعيدها إليّ ويضع يده تحت ذقنه وهويخبرني أنه لا يمكن تقديم بلاغ إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة ..أرى إشارة يده الواضحة للرحيل:

- «اتفضل حضرتك»

أسمعها غليظة منه فينهى ترددي وأتحرك خارجا وأنا أحاول تخيل مرور أربع وعشرين ساعة عليها فى هذا البرد والظلام والغربة التي لابد أنها تشعر بها الآن ..لم أكن أتصور أن يحدث ذلك لي أنا بالذات ..فكنت أراهم فى الأفلام يبحثون فى المستشفيات والطرقات لكني كنت أظن نفسي بعيدا عن كل ذلك وأنه لا يحدث سوى على الشاشة فقط؛ لم أكن أتخيل يوما أني سأصير فى ذلك الموقف؛ استمر فى سيري بلا جدوى فلا أعرف من أين أبدأ..أسمع صوت آذان الفجر ينتشر فى أرجاء المنطقة فأدرك كم من وقت مر عليها.. أكاد أجن فهى لا تعرف أي مكان يمكنها الذهاب إليه أمسح وجهها كي أفيق قليلا فأجده مليئا بالدموع.

أجلس على حجر كي استريح قليلا؛ ألمح من بعيد كلبا ضالا يعوي بشدة فأجفل.. يمر بجوارى فلا أجرؤ على الحركة من التعب الشديد ..فجأة أراه يخفض رأسه ويحني ذيله ويعدو بعيدا عني ..أندهش من هذا الفعل وهوالذي كان يملأ الشارع عواءاً شرساً منذ ثوان..أتحامل وأتوجه للمسجد لعل نفسي تصفى بعد الصلاة فأعاود البحث بتركيز.. تحين مني إلتفاتة إلى جانب المسجد فألمح شخصا يجلس أمام أحد الأبواب أدقق النظر جيدا فأجدها أمي.

أهرع إليها فأجدها تستند برأسها إلى حافة الباب من التعب الشديد تستيقظ فتراني فتبتسم كأن شيئا لم يكن.. احتضنها بلهفة وأنا لا استطيع منع نفسي من البكاء بصوت مرتفع؛ تمسح بيدها الحانية على شعر رأسي وتسألني لما تأخرت هكذا ..أنتبه إلى أنها لا تعي ما مرّ بها ..وأجدها هادئة فنعود سويا للمنزل؛ تستند بذراعها على كتفى وتثرثر معي كعادتها.

تستلقى على فراشها وأحاول فهم ما منها جرى ..أرى الحيرة على وجهها وهى لا تتذكر ما حدث ..أعاود سؤالها من جديد عن الذي دفعها للخروج من المنزل فتندهش لسؤالى وتستنكر كونها خرجت ..أجلس أمامها وتبدأ تحدثني كعادتها كما فى كل ليلة دون أن تعي خطورة الامر ودون أن أجد لأسئلتي إجابة ..ترى أظلت طيلة اليوم تسير بلا هدى فى الطرقات حتى تعبت فاستراحت عند المسجد؟.. فرحمة الله وحدها هى التي حالت دون وقوع أي مصائب.

تشعر بالتعب الشديد من جرّاء أحداث اليوم فتغفو وأظل مستيقظا وقد بدأت العصافير تستعد للخروج من أعشاشها مع أشعة الشمس الوليدة.

رباه ما الحل إذن؟..فحتى مع وجود "أم هند" لا أطمئن على والدتي وهى فى حالة صحية لن تجعلها تتحمل موقف آخر كهذا ..فلم يتبق أمامي سوى أن أغلق الباب بعد رحيلي وأتركه مع "أم هند" رغم أني لا أريد أن أفعل هذا بوالدتي كى لا تشعر بالسجن والعجز ..لكن لم يعد لي خيارا..أتنهد واستلقى على الفراش بملابسي فأنام قبل أن أعي ذلك من شدة الإرهاق.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أنتهى من صلاة الجمعة بالمسجد القريب؛ يتدافع الناس فى الخروج فألمح "عبده" بينهم أشير له كي ينتظرني خارجاً.. نتبادل أحاديث معتادة عن أحواله ومذاكرته ..أسأله عن الست "عفاف" وأحوالها بعد العملية ..يخبرني أنها أفضل؛ نسير معاً ..الحرج يغلبني أحيانا فأعجز عن الكلام..أسأله عن أخبار الثانوية العامة كي أجد الوقت الكافى لاسترجاع شجاعتي ريثما ينتهى من الإجابة ..نصل إلى بيتهم فأحمّله سلامي للست "عفاف" و"سهام" ...يرد باقتضاب ويدعوني للصعود معه فأرفع نظري عفويا حيث شقتهم ثم أعتذر له مؤجلا الزيارة لوقت آخر ثم أرحل لا أعلم فيم أفكر.

أمر على كشك العم "صلاح" لأبتاع منه شيئا لا أحتاج له فقط كي أتبادل معه حديثاً ثريا يحتاجه كل منا..ألمح كشكه مغلقا للمرة الثانية.. أندهش حقاً فهذه لم تكن عادته حتى لوكان مريضا ..أسأل صبي المقهى عنه فيمط شفتيه قائلا:

- «بقاله تلات أيام محدش يعرف عنه حاجة ولا حتى موجود فى البيت»

يتركني ليكمل عمله فأقف قليلا بلا داع ثم أبتعد وعيني على العبارة التي كتبها على كشكه.

«الصبر مفتاح الفرج».

- «عندك أولاد يا عم "صلاح"؟»

أقولها وأنا استند إلى حافة الكشك الخشبي..يعدل من وضع طقم أسنانه الذي يؤلمه ويهز رأسه ..أنتظر قليلا كي يكمل إجابته إلا أنه يكتفى بتلك الهزة ..ينتصر فضولي على حيائي ..فأعاود سؤاله:

- «أمال هم فين؟»

يرفع عينيه إليّ وألمح غشاوة رقيقة من الدمع.

- «كل واحد شاف نفسه.. "أيمن" الكبير سافر من سبع سنين الخليج.. الكويت ولا السعودية مش فاكر..و "خالد" إتجوز وراح بورسعيد يشتغل مع صاحبه».

يسكت قليلا ثم يكمل:

«البنت ..اتجوزت بس جوزها مانعها تزورنا مع أنه كان زي البلسم قبل الجواز».

اتأمل عبارته فهوما زال يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع كما كان الوضع سابقا

- «محدش بيزورك غير الولاد؟»

يتحرك بصعوبة داخل كشكه الصغير باحثا عن عمل يشغله عن كلامي فيقول وهو يدير ظهره إليّ ويعيد ترتيب أحد الرفوف الصغيرة

- «الدنيا مشاغل وكل واحد فيه إللى مكفيه..انت فيه حد بيزورك؟»

يحرجني بسؤاله فأضحك ويضحك معي فهويجيد هزيمتى بحديثه كعادته.

أبتاع منه أي شيء وأتبادل معه حديثاً عن أحوال البلد كما يحب.. فيبدأ فى الثرثرة بحماس.

أمل»٧«

تستقبلني "فاطمة" بحفاوة بالغة وهى تغلق باب شقتها ..تجلسني فى حجرة الصالون المذهب الذي مازالت رائحة الدهان الجديد عالقة به والذي لم ترفع عنه المشمع الشفاف بعد..يأتى إلى أذني صوت خطبة الجمعة من المسجد القريب ..أراها تروح وتذهب فى توتر بالغ وهى تحاول إظهار فرحتها بزيارتي حتى شككت أنها المرة الأولي التي يزورها أحد من معارفها ..أنهض وأجلسها كي تكف عن الحركة ونجد وقتا نتبادل فيه حديثا له معنى..تضحك وتسألني عن أحوالى وأحوال العمل ثم تثرثر عن شقتها وتصر أن تريني إياها ..ننتقل من غرفة لأخرى وهى مازالت تثرثر وتروى قصة شراء كل قطعة أثاث نعود لمجلسنا وتريني صور عقد القران وأرى لأول مرة زوجها الذي ظننته أباها لولا معرفتي بوفاته ..أشيب الشعر به صلع خفيف يجلس بجوارها دون أي علامة على وجهه لا تستطيع أن تستشف منه شعوراً لا ألمح صوراً لأي من أهل زوجها فأسألها إن كانوا على علم بأمر الزيجة؛ تمط شفتها لأسفل:

- «هوقال لى أنه قالهم .يمكن زعلانين عشان أمهم برده».

تستوقفني جملتها فلقد أخبرتني سابقا أن زوجها أرمل .

تتلعثم قليلا وترد:

- «ما مكنتش أعرف ..طلعت لسه عايشة..بس هوقال لى عشان

العشرة وكدة».

أؤثر الصمت وأهز رأسي؛ أحاول منع نفسي من سؤالها لمعرفتي الإجابة

- «مبسوطة يا"فاطمة"؟»

تضحك بافتعال وبصوت مرتفع لا سبب له:

- «طبعا أنا كنت أحلم بشقة زي دي».

- «الجواز مش شقة بس».

أقولها ثم أصمت كى لا أفسد تأقلمها وسعادتها التي توهم نفسها بها.. تبادر هى بتغيير مجرى الحديث وتسألني عن أخبار الشقة وتبتسم وهى تسألني عن أحوال الكوبري الذي صار بمثابة أحد أركان المنزل ..أخبرها أنه منذ رحيلها لم تجسر أي فتاة أخرى على مشاركتي غرفتي ..نضحك سويا فأسمعها تهمس:

-»كانت أيام حلوة يا أمل».

تطرق برأسها ثم ترفعهما فجأة تجاه ساعة الحائط فألمح ذعرا فى عينيها لا أدرى سببه.. أسمع باب الشقة يفتح فتقوم مفزوعة ..أقف بدوري لا أدري ما أفعل.. يدخل زوجها بجلبابه الأبيض الذي زاده ضخامة؛ أحييه وأبارك له على الزيجة؛ يجيب بهمهمة غامضة..ألحظ أنه أكبر سناً من صورته تحييه "فاطمة" بإرتباك وتقدمني له فيدخل دون كلمة أخرى إلى الداخل بعد أن يرمقنا بنظرة حادة..أشعربالتوتر وأدرك أنه قد يكون منعها من زيارة معارفها ..فأحيي "فاطمة" وأهم بالرحيل فلا تستوقفني ..أطلب منها رقم الهاتف فتجيب محرجة:

- «الحاج بيتضايق..أنا حابقى أكلمك وهومش موجود».

أهز رأسي متفهمة وأرحل مسرعة ..لا أدرى لما صار الجميع يصرون على أنهم من سيتصل بي؟

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أصعد سلالم المول المتحركة متوجهة إلى المحل؛ ألمح فى أثناء صعودي اللافتة التي توضح خريطة المكان والتي كنت أتوقف عندها كثيرا قبل أن أحفظ أماكن المحلات

أقف أمام اللافتة فى ثاني يوم وقد اكتشفت الكارثة.. أني نسيت مكان محل عملي ..أحاول تتبع الأسامي والعلامات وأقارنها بمفتاح الخريطة لعلى استدل على المكان ..يمر بجانبي فتاتين تتهامسان بصوت مسموع:

- «تاهت يا حرام! أجيبلك بوصلة؟»

أشعر بحرارة فى وجنتيّ لكني أتجاهل كلامهما واستمر فى تتبع العلامات حتى أحفظ المكان

لا أدري لما يثير مشهد من يتطلع إلى خارطة سخرية من حوله ..ألم يتعرضوا لنفس الموقف من قبل فهم لم يولدوا بالمول ولا بد لكل انسان من لحظة يشعر فيها بالتيه والضياع ويحتاج فيها لمن يدله على الطريق أوحتى يتركه يستدل بنفسه عليه دون سخرية.

أقترب من المحل فألمح الأستاذ"مصطفى" يقف خارجه ويشير للعمال داخل الفاترينة أتذكرأنه أخبرني بعزمه على تغيير ديكور واجهة المحل.. أقترب أكثر فألمح التجديدات فى ألوان الألواح الخشبية التي

وضعها ثم أنظر إلى الأرض فألمح آخر شيء أتوقعه ..أغمض عيني وأفتحها من جديد لعلّى لم أحسن الرؤية لكن لا تخدعني عيناي هى فعلا كتاكيت صغيرة من كل الألوان؛ أصفر وبرتقالى وبني يمرحون بين أرجل المانيكانات فى حرية فوق القش ..يلمح الأستاذ "مصطفى " دهشتي فيقترب ويخبرني أنه ليس مقتنعا ولكنها رغبة ابنته التي رأت ذلك الديكورفى أحد المحلات فأعجبها ..أضحك وأقترب من الفاترينة؛ أنقر بأصابعي على الزجاج فتقترب الكتاكيت الصغيرة فى لهفة ظانة أني سأطعمها.

- «اتصرفى إنتِ معاهم..هى كلها كام أسبوع ويكبروا ونخلص منهم..بس أهو شكل جديد عشان الزباين».

ينتهى العمال فينشغل الأستاذ "مصطفى" بمحاسبتهم ..أقترب من الفاترينة وألقي ببعض قشور الطعام لتلك الكائنات الجميلة برغم ما أنتظره من عمل مضاعف لتنظيف ما ستخلفه خلفها واضطرارى لتنظيف الفاترينة كل يوم لتحتفظ بنظافتها إلا أنني أحببت وجودها وآنست لها لعلها تنسيني القلق الذي أتعذب به كل يوم انتظاراً لمكالمة أختي.

- «حنقعد طول اليوم عندك؟»

تقولها أمي وهى تعاتبني على بقائي لمدة طويلة مع الأرانب الوليدة.. فأضعهم داخل عشتهم الصغيرة وأتبعها إلى الداخل لمساعدتها فى إعداد الغذاء ..تنشغل أمي فى الحديث مع جدتي فأعود خلسة إلى الأرانب الوليدة وأمسك بالأرنب الأبيض الصغير أداعبه واستمتع بملمس فروته البيضاء الناعمة على يدي ..أنتبه لصوت نداء أمي فألتفت لأجدها قد استبد بها الغضب أضعه مسرعة جوار أمى التي تلعقه بلسانها خوفاً لتزيل عنه آثار يدي وأعود قبل أن اتعرض للعقاب.

أقرر المرور على حمام المول حيث كانت تعمل دادة "عفاف" رغم تعمدي طيلة الفترة الماضية ذهابي للحمام الآخر كي أتجنب رؤية من احتلت مكانها وهى تقتحم ذكرياتى معها فى المكان الذي ظننت أنه سيظل مرادفا لها لا أتخيله بدونها..ولا أرغب فى أن أراه بدونها وتلك الأخرى تحتل مكانها وعالمها وعالمي فى وقت شهد فترة عذبة من حياتى حين كنت أحس أني لم افقد كل جميل بعد.

أتحامل على نفسي وأدلف إلى الحمام ..أرى الأخرى تقوم بتلميع المرآة وهى تمضغ لبانة وتدندن لحناً غريباً على أذني ألقي التحية فترد باقتضاب:

- «سلام»

كما اختزلتها وتكتفى بذلك..أقف أمام المرآة لا أدري ما أفعل؛ أقوم بإعادة ربط الطرحة فى محاولة لكسب مزيداً من الوقت أحاول أن أفتح معها مجالاً للحديث فتنظرللمرآة دون أن ترد.. لا أيأس وأسألها عن اسمها مرة أخرى فتلتفت إليّ بحدة

- «انتي كل مرة عاوزة تعرفى اسمي ..مالك يابت انتي ومالى؟»

تقولها بنبرة عالية فيلتفت من فى الحمام إلى فأكمل ربط الطرحة مسرعة فى حرج شديد ..وأجاهد كي أمنع دموعي من الانهمار؛ تترك إحدى الزبائن مناديل ورقية على حافة الحوض فتحتد معها فى الحوار وهى تشير إلى مكان سلة المهملات.. يشتد الحوار بينهما فتصمت حفاظاً على وظيفتها ..ما أن تخرج الزائرة حتى تسارع بسببها بأفظع الألفاظ الكريهة.. لا أتحمل المزيد فأمضي مسرعة خارج الحمام وقد قررت ألا أعيد التجربة مرة أخرى حفاظا على ما تبقي من اثر طيب مازال عالقا

يتشبث بجدران ذاكرتي.

أعود للاستذكار وأنظر بين الحين والآخر إلى الكتاكيت الصغيرة؛ ما زلت لا أصدق وجودها وأرى الزبائن يضحكن أثناء مرورهن؛ يتوقفون قليلا ثم يمضون ..أشعر بإرهاق وسخونة تبدأ تجتاح رأسي ..أخشي أن يكون بداية دور برد وقد قارب الترم الأول على الانتهاء؛ أضع رأسي على المكتب كى أرتاح قليلا؛ أسمع صوت إحدى الزبائن فأنهض وأشعر أن رأسي ثقيلة كقالب من الطوب.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أغلق المحل وقد استبد بي التعب الشديد ولكني قررت أن أقوم بالأمر الذي أرجأته طويلا.. فلقد أخبرتني دادة "عفاف" ذات مرة أنها كانت تأتى للعمل مع جار لها يدعى "على" وعن حيرتها بصدد قبول زواجه من "سهام" وأتذكر أنها أخبرتني ببدانته وبعمله فى سوبرماركت المول أصل للدورالأول وأمضي مسرعة قبل أن ينتهى العاملون من عملهم.. أرى الماركت مازال به بعض الزبائن القلائل؛ أتجه إلى إحدى الفتيات التي تعمل على الكاشيرة وأسألها إن كانت تعرفه فتهز رأسها نفيا..استمر فى تجوّلي حتى أسأل واحدة أخرى تلوك اللادن وتحدث زميلتها فتشير إلى شاب عريض يقف إلى جوارها يقوم بتعبئة بعض الأكياس.

- «أنا على».

يقولها مندهشاً فأرتبك حيث أني لم أكن اتوقع تلك المفاجأة..تماماً كما وصفته دادة "عفاف" تبدوعلى ملامحه الطيبة والأصالة ..أتردد قليلا وأخبره بمعرفتي بها وأسأله عنها إن كان يعلم عنها شيئا..يبتسم ويسأل:

- «انتي أمل؟»

أهز رأسي حرجاً وألمح نظرة الفتاة الأخرى التي تزيدني حرجا.. ينتهى من عمله ويخبرني أنها قررت أن تستريح بمنزلها؛ يصمت قليلا ثم يخبرني أنها أجرت عملية بقدمها؛ يلحظ قلقي فيقول مسرعاً:

- «متخافيش هىّ خفت تقريبا»

أطمئن قليلاً وأهم بطلب عنوانها لكنه يقاطعني قائلا:

- «أقولك ..إعملى لها مفاجأة وزوريها حديكي عنوانها».

يقولها وهو يدون عنوانها فى وريقة صغيرة ويعطينى إيايها ..أشكره بحرارة وأمضي وأنا أكاد أطير فرحاً لولا التعب الشديد..لا استطيع تمالك نفسي من الفرح فأضحك بجذل فيلتفت إليّ آخرالزوار فى دهشة.

زين «٦»

هذه الأيام أشعر بسعادة بالغة..توغل فصل الشتاء وبدأ البرد القارص يقضم مفاصلي لكنّي سعيد..خلال الشتاء يصبح المول شبه خاوياً على عروشه لا يؤمه الزوار كثيراً ..أقف طويلاً بالمصعد بمفردي دون أن يأتى زائر إلا على فترات متباعدة.. أحكم لفّ الكوفية الصوف حول رقبتي وأدخل طرفها داخل اليونيفورم.. سافر «وليد» صديقي إلى السعودية منذ ما يقرب من شهر ..أعذره وأحسده أيضا فلقد استمر يبحث عن عمل طويلاً جداً وفى كل مرة لا يصل إلا للمزيد من اليأس.. بلغ مداه حين تزوجت خطيبته السابقة خلال شهر واحد بعد فسخ الخطبة..لم أعد أعرف ملامحه فى الأونة الأخيرة غاصت عيناه داخل محجريهما وأصبح قليل الكلام ..هاتفتني والدته كثيراً كي أحاول إخراجه من حالته لكن بعد كل محادثة كان يعود لما كان عليه من صمت وحزن .

نسير جنباً إلى جنب نسلي أنفسنا ببعض الترمس على شط كورنيش النيل..نتأمل الأبراج العالية التي تقف شامخة أمام الكورنيش ..طوابقها عالية للغاية وأنيقة للغاية..يتوقف «وليد» ويستند بظهرع إلى إحدى العربات فينبعث منها صوت جهاز الإنذار.. يعتدل سريعاً قم نعاود السير ونحن نتبادل الضحكات.. يعود إلى شروده فأحاول إخراجه من همومه وأعطيه بعض الأمل فى الغد رغم علمي عبث ما أتحدث عنه.. يضحك ساخراً ويحاول أن يبدل مجرى الحديث فأعود له من جديد «يعني

حتكون أوحش مني؟.. إنت إن شاء الله حتلاقي وظيفة أحسن..لكن أنا لحد دلوقت مش مصدق إني شغال فى أسانسير ومش لاقي غيرها بعد الدراسة والجامعة تكون دي آخرتها».

يبتسم قليلا ثم يبدأ فى الكلام عن رغبته فى السفر للعمل بالخليج «البلد اتقفلت فى وشنا لكن مفتوحة أوي للحرامية الكبار عشان يكبروا زيادة».

أدرك أنه لم يعد يقدر على تحمل المزيد من حديثي عن الأمل فنبدأ فى الحديث عن أيام الجامعة وأحلام كل منا وقتها.

ألمح «محمود» قادماً فأدلف إلى داخل المصعد وأهبط للطابق السفلي.. لم أعد أطيق التواجد معه.. فى كل يوم يزداد نفوري منه؛ صرت أتجنب الحديث معه كى لا يستفزني كلامه وقد أصبحت العلاقة عميقة إلى حد ما فأصبح يفصح عن بعض خباياه شيئا فشيئا وكلّما فعل ذلك كلما ازددت انكماشا بداخلي ..تنتهى ساعات العمل فأحث السير فى الشارع الذي أصبح خالياً تماماً من المارة.. أنتظر الحافلة طويلاً لكنها لا تأتى.. بدأ البرد ينخر عظامي ومفاصلي تخشبت.. أبدأ فى تحريك أصابع قدمي داخل الحذاء فتؤلمني..أقرر السير حتى نهاية الشارع حيث الميدان لعلى أجد أي مواصلة فى هذا الوقت.. أتوقف فى المحطة المخصصة للسي تي إيه ذي الأجرة المرتفعة لكن لم يعد هناك أمامي غيره كيلا أتجمد فى هذا البرد الشديد.. أسعل قليلاً ثم أبدأ فى تزجية وقتي بإطلاق البخار من فمي ومتابعته حتى يختفى.

أتأمل العمارات الكبيرة فى الشارع الرئيسي الواسع.. بعضها جديد ذات واجهات أنيقة.. الشارع خال لكنه مزدحم بالسيارات الواقفة والتي يملكها سكان هذه البنايات الكبيرة.. سيارات فخمة وتعد متعة للنظر..

أتابع الماركات المختلفة ثم يجذب انتباهي شئ أسود يتحرك فى بطء خلف إحدى هذه السيارات.. يخفق قلبي ظاناً أنه لص سيارات لكني أدقق النظر فأجدها سيدة مسنة ترتدي السواد وتسير منحنية بفعل عمرها وصحتها المعتلة.. تمسك بأحد الأكياس البلاستيكية السوداء بدورها.. ملامح الفقر والبؤس خطت على وجهها ألف خط .. وجهها متغضن وملابسها لا تدرى أهى سوداء بسبب لونها الأصلي أم بفعل الغبار والأوساخ ..لا أدرى كيف تتحمل هذا البرد الشديد وهى ترتدي ذلك الثوب الخفيف.

أعبر الشارع وأسير خلفها أسألها إن كانت تحتاج شيئاً ما.. تجفل لرؤيتي وتبتعد عنى أكثر وهى تنظر لي فى رعب.. أحاول تهدئتها لكنها تطلق سبابا وتأمرنى بالابتعاد وأراها تتلفظ بعبارات كثيرة مختلطة لا أفهم منها شيئا.. تستند بظهرها إلى حائط إحدى البنايات شاهقة الإرتفاع وصدرها يعلو ويهبط خوفاً فأقرر الرحيل حيث أنها لن يزيدها وجودي سوى مزيد من الفزع الذي قد يودى بحياتها البائسة.. أنزع الكوفية عن رقبتي وأمده لها فلا تقترب.. أضعها على سطح إحدى العربات ثم أرحل.. ألتفت فى كل لحظة فأجدها كالقطة منكمشة على نفسها فى نفس الموضع.

أتوارى خلف أحد محلات الزهور وانتظر الحافلة وأنا أتابعها عبر الزجاج .. ألمحها تتناول الكوفية وتتشممها فى حرص ككلاب الطريق الضالة ثم تأتى الحافلة ..استقلها وأتابعها من خلال النافذة أجدها تعبث فى محتوى صفيحة القمامة أمام إحدى العمارت الفخمة..تخرج الأكياس وتفتحها وتبنش بأظافرها بحثاً عن قطعة طعام هنا أو هناك.. يعتصر الألم

قلبي وأنا اتأملها تمسك بعظمة الصدر لفرخة أتى عليها أصحابها.. تنظفها ثم تبدأ فى لعقها..أتأوه بشدة ثم تخرج عن مجال رؤيتي عندما تنحرف الحافلة فى الشارع الآخر..أجلس على المقعد فى هم كبير لم أعد أشعر بلسعة البرد ولا بأي شئ آخر.. أسند رأسي على حافة المقعد وأتابع المشاهد السريعة المتعاقبة من النافذة..أعتدل فجأة فى جلستي وقد أتت «مها» على خاطري..أكان سيكون هذا مصيرها لو كانت استمرت فى الشارع بعد أن يذبل عنها جمالها وشبابها..أقرر أنني سأحاول أن آتى لها بالمال كي تنهي أقساط شقتها وأبدأ فى التفكير في من يستطيع إقراضي المبلغ.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

نسير فى نفس الطريق الذي تعودناه ..تروى لي تفاصيل أول يوم عمل لها فى ذلك المحل فى آخر شارعنا.. توسطت لدي صاحب المحل الذي كان صديقاً لوالدي كي يقوم بتشغيلها لديه..فهى لا تحمل شهادة سوى شهادة الثانوية ولا وظائف متاحة لها كثيراً..محل الخردوات الذي صار محل لبيع كل شئ من اكسسوار حريمي رخيص الثمن ورخيص الخامة وأدوات المطبخ وغيرها كي يساير صاحبه موضة محلات «اتنين ونص» التي انتشرت مؤخرا.. لم يكن يأتيه زبائن كثيرون سابقاً لكن فور أن بدأ مشروع الإثنين ونصف صار الزحام بالداخل يعوقك أحياناً عن الدخول رغم أن أغلب البضائع لا حاجة لمنطقتنا بها وذات صناعة صينية رديئة سرعان ما تتلف.

أوصلتها بنفسي وقمت بتعريفها على صاحب العمل المحل.. أوصيته بها خيراً مخبره أنها يتيمة وتوفى والداها فى حادث سيارة وأصبحت

مقطوعة من شجرة..يسألني أن كانت أهلا للثقة فأصمت قليلا واتأملها وهى تقف على بعد خطوات منا..أهز رأسي إيجأبا فيشير لها ليوضح لها تفاصيل العمل ويريها أركان المحل وكيفية تصنيف السلع المختلفة.. أرحل وأنا أشعر شعوراً غريباً..أوقفني سؤاله عن إن كانت أهلا للثقة.. توقفت قليلاً وبدأت أخشى أن أكون قد كذبت على الرجل .

تستمر فى حكيها فأفيق من شرودي..وأتابع ملامحها التي تتوهج كلّما تذكرت موقفاً مر بها وتروي لي كيف تعلمت سريعا التعامل مع ماكينة المال ثم تنتهى من حكيها فأبتسم ثم أصمت قليلا..تسألني عن سبب الصمت فأتردد قليلا ثم أعزم على أن أحادثها بصراحة.. أخبرها بسؤال صاحب المحل وأسألها إن كانت ستحقق كلامي عنها أم ستخذلني.. تتوقف عن السير وتضم شفتيها ثم تعاود الحديث ببطء..»انت خايف مني..خايف أرجع تاني».

لا أرد فألمح غشاوة من الدموع تبدأ فى التكون داخل مقلتيها.. فراتبها من هذا العمل هزيل بعض الشيئ ولن يكون مجزياً كما اعتادت فى السابق ولن تتمكن من ارتداء تلك الملابس الفاخرة التي كانت ترتديها بالمول.. تضحك بتهكم عندما أصارحها بما أفكر به وتوضح لي أن ملابسها الثمينة تلك لم تكن سوى طقمين تبدل بينهما بالتناوب ..وتكرر لي فى ثقة «متخافش»..أندم على عرضي السؤال بهذه الطريقة لكن كان لابد منه.. تكرر على سمعي «متخافش..حأبيض وشك» أبتسم ونكمل سيرنا.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

عفاف «٨»

لا استطيع الإتزان على قدمي الأخرى ولازلت لا أعرف كيف أجعلها تحمل وزني.. أجاهد كي أعتاد الوضع الجديد وأحمد الله أن الأمر لم يسوء لدرجة قطع الساق بأكمها ..لولا "مدام عايدة" لأختلف الحال كثيرا.

تستيقظ "سهام" فتجدني أسير فى الصالة الصغيرة أحاول تدريب نفسي فتبتسم بمرارة وتعود للغرفة تأتي بعكاز تعطيه إياي كي يجعل حركتي أكثر سهولة وتخبرني أن «علي» هو من أتى به ويبلغني سلامه.

لا أعرف بما أرد وأحاول أن ألمح أي مغزى وراء كلامها ..أعقب قائلة:

- «"علي" طيب ..مش كدة ؟»

تلتفت إليّ وتشرد قليلا قائلة:

- «ابن حلال ومؤدب».

تدخل الحمام قبل أن أقول المزيد.. ترى هل تميل له أم أنه لم يفاتحها فى الأمر منتظراً ردي الذي طال ورغم ذلك لم أصل إلى قرار بعد.. أمسك العكاز وأتكئ عليه فتصبح الحركة أيسر ..أشرد قليلا .."على" شاب على خلق وسأطمئن على ابنتي معه لكنني أخشى على مستقبلها فراتبه إن كان سيكفيهما فى بداية حياتهما فلن يستمر الأمر إذا قررا الإنجاب.. كما أنني

أريد لابنتي أن ترتاح؛ يكفيها ما مرت به من ضيق وفقر فلا أريد أن أزيدها فقراً.. مازلت فى حيرة من أمري لم أحسم رأياً بعد ..فهولا ذنب له فى ظروفه التي قد تتحسن يوما ما لكني أخشى أن أخاطر بمستقبل ابنتي ..أهز رأسي وأرجئ التفكير فى الأمر لحين عودة "محمد" ولتكن له الكلمة الحاسمة فى الأمر.

لم يتبق سوى أيام معدودة؛ أكاد لا استطيع انتظار مرورها.. كان حديثه بالأمس فى الهاتف مليئاً بالسعادة والأمل.. يخبرنا أنه سيعود بكل ما أدخره طيلة سنوات الغربة ولتكن بداية جديدة للجميع ..ليت الأيام تمر سريعاً.. فالوقت يراوغ إرادتك دائماً فمتى تمنيت أن يطول مرّ كالبرق.. وحين تود لو مر مسرعاً تباطئ فى كسل.

ننتهى من الإفطار ويمضي "عبده" و"أميرة" إلى مدارسهم تنهى "سهام" غسيل الأطباق وترتدي ملابسها سريعا.. تخبرني أنها ستمر على صديقتها لشراء بعض مستلزمات فرحها وأنها لن تتأخر.. أهز رأسي موافقة فتلثمني على جبيني وتسألني عما إذا كنت أبغي شيئا قبل رحيلها.. أشير لها أن تذهب كيلا تتأخر.

أسمع الباب ينغلق ويبدأ الصمت فى زيارته اليومية ليضفى جواً ساكناً على المنزل ..أجاهد كى لا أشعر معه بالملل.. فالسكون يطبق على أنحاء المنزل والرتابة تتخذ موضعها فى ثقة وتؤدة.

افتقد حمام المول رغم كل شيء.. وافتقد جلستي مع "أمل" ترى كيف هى الآن ..وما أحوالها.. لماذا لم تسأل عني طيلة الفترة الماضية أم لعلها لم تستدل عليّ بعد انقطاعي المفاجئ عن العمل دون أي تمهيد.. أنظر حولي لعلى أجد شيئا يلهيني ويجعل مرور الوقت أخف وطأة فلا

يسترعى انتباهى أي شيء بعينه فى أرجاء المنزل القريبة.. أبحث عن شيء يحتاج إلى ترتيب أو تنظيم لكن "سهام" قامت بهذه الأمور.. مسكينة هى.. تتحمل ما لا يتحمله سواها ورغم كل ما تقوم ذلك إلا أنني أشعر فى نظرتها إلى قدمي الشعور بالذنب يكاد يخنقها.. اتأمل الأثاث قليلاً فأتساءل عن أي الأعمال فى المنزل التي أود القيام بها.. أفأخدع نفسي فأنني بالكاد أتحامل على نفسي وأتدرّب على الإتزان على قدمي الأخرى كى لا أسقط.

أعود للغرفة وأجلس على الفراش؛ أتأمل صورة "سيد" وأحاول أن أغوص داخل ملامحها.. رغم أنها على نفس الملامح منذ التقطت إلا أنني فى بعض الأحيان أجد شبح ابتسامة أو مسحة حزن على ملامحه.. اليوم لا أجد أي منهما.. لا ألمح سوى تقاطيع وجهه جامدة بلا أي تعبير أو ربما تعبير متجهم بعض الشيء.

أتذكر الصندوق تحت الفراش ..أحاول أن أخرجه بالعكاز ..يخرج طرفه فأجلس على الأرض وأفرد ساقي وابدأ فى إخراج محتوياته القليلة.. بعض متعلقات "سيد" القديمة؛ قلمه الخشبي الذي صنعه له عم "رجب" نجار منطقتنا القديمة.. نظارته الطبية التي كان يكره ارتداءها..أخرج ألبوم الصور الصغير الذي تكاثف الغبار على بعض صفحاته.. أزيح عنه غباره وأقوم لأجلس فوق الفراش وأنا أتأمل الصور التي شهدت على فترة من الزمن كدت أنساها.. تبدأ صور زفافى يليها صور الأبناء فى مراحل عمرهم الصغيرة.. صورنا فى المصيف نبتسم فى سعادة للكاميرا التي التقطت لحظة من الزمن السعيد وجمدتها على فيلم ليكون دليلاً على تلك الأيام التي بدأت أشك أننا عشناها حقاً وأن من فى الصور هم نحن حقاً..

يستغرقني وقت طويل فى مشاهدة تلك الصور.

أنتبه لصوت طرقات على الباب؛ أجفل قليلاً فلم يكن معتادا أن يأتينا أحد خاصة فى هذا الوقت.. أتحرك بتؤدة متحاملة على العكاز حتى أخرج للصالة وأسمع الطرقات من جديد أكثر وضوحاً.. ألمح خلف الشراعة الزجاجية خيال ضئيل ويد تقرع بخجل ..أفتح الباب فأجد وجه "أمل" الحبيب يطالعني.. ما إن تقع عيناها عليّ حتى تبتسم ابتسامتها الجميلة وتحتضني بشوق ولهفة حتى يكاد يختل توازني.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

نمضي ساعات طويلة فى الحديث.. تتألم لمعرفة ما أصاب قدمي لكنني أطمأنها..وأخبرها أنني فى طريقي للتعود على السير..ألحظ إرهاقها الواضح فتخبرني أنها بوادر دور برد.. تبدأ تحدثني عن كل شيء فى حماسة وسعادة وتسألني عن أحوالى وأحوال "سهام".. تخبرني أن الاستاذ " مصطفى" قد وافق أن تتأخر عن العمل ساعتين على أن يخصمهما من أجرها.. نصمت قليلاً ..أسألها عن أخبارها فتبتسم وتخبرني أنه لا جديد هناك.. فاليوم كالبارحة.. ألمح نبرة حزن فى صوتها فأسألها عن أحوال قريتها وأمها وأختها.. تطرق برأسها قليلا ثم تجيب:

- «زي كل مرة اتأخروا فى الاتصال بي.. بس بقالها كتير مطمنتنيش عليهم والمرة دي قلقانة».

أربّت على كتفها وتخبرني عن "علي" وسعادته وهو يعطيها عنواني.. تبتسم فى مكر وتداعبني قائلة:

- «والله يا دادة شاب ابن حلال وبكره ظروفه تتحسن».

أخبرها أني بانتظار عودة أخيها من سفره كي نحسم هذا الأمر.. تضحك قائلة

- «خلاص كلها كام يوم ويرجع ..فرحانة أكيد؟»

أضحك من قلبي وأدعو الله أن يتم عودته على خير؛ يفتح "عبده" الباب وترتبك "أميرة" لدي رؤيتها "أمل" فأشير لهما أن يقتربا ..تصافحهم "أمل" وتتجاذب معهم الحديث أتأمل سعادتها وهى تتحدث إلى "أميرة" وتداعبها وأحاول منع عينيي من البكاء وأنا أرى بهجتها.. لعلها ترى فينا أسرتها التي أبتعدت عنها ..ترى كيف كان حالها طيلة فترة غيابي عنها..لابد أنها كانت تتألم لكنها تحاول التماسك.. أشعر بامتنان لوجود "علي" بالمول فلولاه ما كنت لأرى "أمل" مرة أخرى.. تعود "سهام" وتفرح لرؤيتها.. تتعاونان فى إعداد العذاء ونتناول الطعام سوياً.. لأول مرة يحل الفرح الحقيقي ضيفا خامساً على مجلسنا ..خصوصا عندما أخذت "أمل" تعطس كثيرا دون توقف كلما أرادت إتمام جملة .. نضحك كثيراً وألحظ ابتسامة "أمل" لأول مرة بهذا التألق..تمر الدقائق الحلوة سريعاً ككل شيء جميل وترحل "أمل" وهى تشكرني لهذا الوقت الرائع وتعدني بتكرار الزيارة .. تلثم "سهام" وتهرع للحاق بالعمل .. أتبعها بنظري حتى تختفى عند مدخل الحارة.. لن تدرى أنني من كان بحاجة لهذه الزيارة أكثر منها.

على « ٨»

أعاون الزملاء في رصّ العربات ..ينظمها"رأفت" فى طابور طويل ثم يحاول أن يدفعها أمامه متحديا باقي الزملاء أنه سيضعها فى مكانها المحدد دون أن تنحرف ..يشمّر عن ساعديه وتظهر عضلاته كما يحب أن يتباهى بها.. يبدأ فى دفع العربات الثقيلة ..ألمح أوردة عنقه تظهر.. وجهه يبدأ فى الإحمرار.. نصطف جميعاً ونبدأ فى تشجيعه فيزداد حماسة وتزداد قطرات العرق على جبينه رغم برودة الجو.. ينجح أخيراً فى وضعها فى مكانها فنحييه بتصفيق يجذب أنظار الزوار.. يجلس على الأرض بجوار العربات منهكا.. أربت على كتفه وأمد له يدي كي يستطيع الوقوف ..يمر المدير فيسارع الجميع بفض هذا الاجتماع المُصغر.

أعود لعملي وأبدأ فى تعبئة الأكياس.. أشعر بسعادة لا أدري سببها.. ربما لأنني أعطيت عنوان دادة "عفاف" لتلك الفتاة..أتذكر سوى فرحتها الشديدة وهى تمسك بالورقة التي تحوي عنوان دادة"عفاف" وابتسامتها البريئة.. من المؤكد أنها نفس الفتاة التي كانت تروي لي عنها الدادة والتي كانت تمضي وقتا طويلا معها فى الحمام..اجاهد كي اتذكر اسمها لكن لا تأتيني سوى صورة وجهها الأسمر الأصيل ولهجتها الصعيدية التي تجاهد كي تصبغها بصبغة قاهرية.. منذ فترة طويلة لم استشعر هذا الشعور بالفخر لمساعدة شخص ورسم البسمة على وجهه .. أقبل على العمل بحماس أكبر وانتهى من صف الزبائن سريعاً كي أقوم بترتيب أحد رفوف العرض..

أتجاهل نظرة "سماح" التي بدأت تسبب لي ضيقاً شديداً.. ألحظ دهشة "ميرفت" وأسمعها تهتف بعجب:

- «سبحان الله إنت ساعة تشتغل بعشر رجالة وساعة تبقي شايل الدنيا على دماغك».

أبتسم ولا أرد.. أسخر فى داخلى من دهشتها.. مازالت الدنيا فوق رأسي تأبي الهبوط لكن يبدو أنها سمحت لي ببعض لحظات السعادة القليلة.. أتابع عملي على أنغام الموسيقي الهادئة.. التي تسرى بداخل الماركت وأندهش من ملابس إحدى الزائرات التي تشبه أزياء المهرجانات.. أعود لعملي وأحاول أن أشحذ كل تركيزي كي اتشبث بصورة "سهام" لأطول فترة ممكنة فى عقلي.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

لم أجد لمشكلة أمي أي حل.. أصبحت "أم هند" أكثر حذراً بعدما جرى.. أشعر بالشفقة الشديدة تجاهها.. كيف ترى الحياة بعد داء الزهايمر الذي أصابها.. وما شعورها وقد باتت لا تتذكر خطوط حياتنا السابقة وتفاصيلها الأساسية.. أتشعر أنها لا تتذكر أم أنها تتعجب مما أقول عندما أحدثها عن أشياء وأشخاص لم تعد تعرف عنهم أي شيء.. فقط تنظر لي بدهشة وتتساءل عن كنه ما أتحدث عنه ثم تتناسي الأمر ولا تعلق.. أتنهد ثم لا أدري لماذا أنحرف عن طريق العودة لأمرّ على الشارع الموازي لشارعنا حيث البيت القديم المحاط بسور عال من الحديد المشغول ..لا أدري لماذا أحب مشهد هذا البيت لهذه الدرجة ..والغريب أنني لا أشتهى رؤيته إلا وقت العصر أوبعد منتصف الليل.. لا أدرى لماذا هاذان التوقيتان بالتحديد لكنني أشعر أنه يزداد جمالاً فيهما.. أتأمله من خلال الأعمدة

الحديدية وألمح الحديقة المهملة التي عبثت بها يد السنين فحولتها لدغل من الأشجار المتشابكة مخيفة الشكل.. ألمح شبح المنزل خلفها بطابقه الوحيد.. جدرانه عليها غبار تراكم على مدى سنوات ظل فيها مهجوراً بعد سفر ساكنه الوحيد الخواجة "إيفلينو" الذي ماتت ابنته فعاد لمسقط رأسه رغم ما كان يردده أن مصر أصبحت وطنه.

أتراجع بظهري إلى الخلف فتظهر صورة المنزل الفخم رغم ما تراكم عليه من أشجار وغبار وأتأمل الحديد المشغول للبوابة التي تنطق بالجمال والأناقة فى عصر كانت الأناقة هى السمة الغالبة لشعب عرف وقدّر معناها.. أقارن بينه وبين ما حوله من منازل عشوائية.. يوماً يعد يوم تزداد السوقية فى المنطقة حتى تشعر أنها تضغط على المنزل الصغير وتكاد تخنقه.. أشعر به يكاد يحس بالمهانة والضآلة وهويرى ما يجرى من حوله.. أعود لشارعنا وابتاع طعام العشاء.. ألقي نظرة عابرة على كشك عم "صلاح" فأجده مغلقاً كما هومنذ شهر.. لم يعد يعرف أحد ما حدث له وبعد أن تعاون شباب الحارة على كسر باب شقته لم يجدوه.. رحل عم "صلاح".. لكن إلى أين؟ لا أحد يعلم.. إختفى فجأة عن عالمنا وعالمه.. مازال غائبا عن كشكه ومازالت عبارة «الصبر مفتاح الفرج» واضحة كما هى.

أتنهد وأمر على بيت "سهام" لم يعد باقياً على عودة "محمد" سوى يومين.. من المؤكد أن "سهام" فى شدة الفرح .. آن لها أن ترتاح قليلاً ويرتاح الجميع .. أتوق أنا الآخر لرؤية "محمد" وأتوق لأحاديثه الثرية العميقة التي كنا نتبادلها قبل سفره ..أتوق أكثر لمفاتحته فى الزواج فأنا متأكد من رأيه.. لعل الغربة لم تغير فيه شيئاً ..لكنني أشك أن شخصية فى

جمال شخصيته يقدر أي أمر على تغييرها.

ترحل "أم هند " بعد أن تخبرني أن جارنا يريدني فى أمر هام ومُلح.. أهز رأسي وأغلق الباب.. ترى ما هو الأمر المُلح فنادراً ما كان جارنا يتحدث معي.. استبدل ملابسي وأجلس مع أمي نتناول العشاء ونتبادل الحديث.. أضحك من قلبي وأنا أتأمل طيبتها الشديدة ورؤيتها الساذجة عن العالم وعن الأخبار التي تشاهدها فى التلفاز ..تخلد للنوم فى سرعة كالأطفال فأنهض لأتأمل الشارع من الشرفة.. أسمع صوت ضحكات قادمة من المقهى وشجاراً يأتى من شقة أحد الجيران.. أرفع رأسي للسماء لأرى النجوم.. نادراً ما كنت استطيع رؤية تفاصيل السماء؛ فسحب الغبار والعادم حجبت كل شئ.. تسطع بعض النجوم؛ أراها متلألئة الليلة.. فاليوم الأول من الشهر العربي حيث أختفى القمر ليعطي الفرصة قليلا للنجوم كي تسطع.. ريثما يعد نفسه لليلة الكبري فى الليلة الرابعة عشر حيث سيسطع كما لم يسطع من قبل.

أنتبه على صوت طرقات خجولة على الباب.. أتراها"أم هند" نست شيئا.

أنتظر قليلاً ربما يرحل القادم لكني أسمع الطرقات مرة أخرى.. أفتح الباب فى تبرّم بعد قطع حالة الرومانسية التي كنت أحاول أن أجبر نفسي على خوضها ..أجد جارنا يحدق بي فى رعب فيصيبني بعدوى الرعب أنا الآخر.

- «خير يا أستاذ محمود؟»

- «لا أبدا.. أنا آسف بس أصلك بترجع متأخر».

أجلسه فى حجرة الاستقبال الضيقة؛ يخبرني أنه منذ يومين يبحث عني

لأمر هام وعاجل.. أعرف طبيعته التي تميل إلى تهويل الأمور فأظنه أمراً هيّناً.. أريح ظهري ويبدأ فى الحديث فى توتر كعادته:

- «حنعمل إيه فى حكاية بلاغ المحافظة؟»

يرى لامبالاتي وجهلي بالأمر فتبدأ نبرة صوته فى التهدج:

- «قرار الإزالة إللى جه للبيت.. حنترمي فى الشارع».

أفزع لحديثه وأنتبه فى جلستي وأطلب مزيد من التفسير.. يخبرني وهو يكاد يبكي أن إدارة الحي أصدرت قراراً لإزالة المنزل لأنه آيل للسقوط.. أنظر إلى أركان المنزل؛ لأول مرة ألمح تهالكه.. يردد الأستاذ "محمود" فى انهيار:

- «أروح فين دي شقة المرحوم أبويا.. أودي العيال وأمهم وأمي فين؟»

لا أعرف بما أرد وأحاول تهدئته كي ينصرف لأجد فرصة أنهار فيها أنا الآخر ..يرحل الأستاذ "محمود" بعد وعد مني أن نذهب سوياً غدا للمحافظة كي نجد حلا

..أتأمل سلم العقار القديم وبعض درجات السلم المكسورة التي استبدلها السكان بقطع من الخشب.. أغلق الباب بخفة وقد سيطر عليّ شعور أن أي حركة ولوبسيطة ستهدم المنزل فوق رؤوسنا ..أنظر إلى أمي المستغرقة فى النوم لا تدري أي شيء مما يدور حولها.. أحيانا أحسدها؛ فهى لم تعد تقلق على شئ.. أنظر للشرفة من جديد لكنني لا أجرؤ على النظر إلى السماء مرة أخرى... يبدوان النجوم قد استكثرت عليّ حالة التوحد والهدوء التي كنت عليها.. أدعو الله أن تتراجع المحافظة عن

تنفيذ القرار وإلا فهو الدمار التام؛ فلا يوجد مأوى لي سوى هذا البيت المتهالك وإلا فهو الشارع ولا شيء سواه.

أشعر بالبرودة الشديدة فأغلق النافذة وأحاول التحايل على نفسي كي تغفو قليلا ..وتمضي ليلة أخرى بلا أحلام.

أمل « ٨»

أحث السير فى شارعنا وأنا أكاد أسقط من شدة التعب وأشعر أن حرارتي آخذة فى الارتفاع فى إعلان واضح عن بداية دور برد شديد.. رغم كل التعب إلا أنني أشعر بالسعادة وأكاد لا أصدق أنني رأيت دادة "عفاف" البارحة بل وجلست معها وتحدثنا طويلاً.. فقد كان مجرد رؤيتها أمنية عزيزة جداً حتى أني شككت أن ما مرّ هوحلم أو هلوسة عقل اشتاق لرؤيتها.. أعبر الشارع كي أبتاع علبة من البخور كعادتي كل أسبوع من البائع العجوز الذي صار بمثابة صديق عزيز لا أعرف عنه شيئا ولا يعرفني ولا حتى نتبادل سوى عبارات معدودة كل مرة.. لكن مرآه وهو سعيد بقدومي متنبئ بموعدي يشعرني أني أعرفه منذ الأزل.. أبحث عنه بعيني لكني لا أجده؛ لعله قد غيّر مكانه المفضل تحت عمود الإنارة.. أسير قليلاً على الرصيف لعلى أعثر عليه فى أي ركن يتدثر بكوفيته التي لا تتغير أبداً لكنني لا أجده.. أبدأ فى البحث بدقة أكثر لكن عبثا.. أتجه إلى صاحب أحد الأكشاك يجلس خارجه ويدخن المعسل وأسأله عنه.. يمط شفتيه جهلاً فأحاول أن أفسر له المزيد.

- «الرجل العجوز إللى بيبيع بخور معرفش اسمه..لكن كان دايما هنا»

يفكر قليلاً ثم تنير ذاكرته فجأة وقد تذكره:

- «آه ..عم اسماعين..»

يصمت بعدها وقد اكتفى بذلك؛ أعاود سؤاله بنفاذ صبر.. يسحب نفساً طويلاً من مبسم الشيشة ويطلقه فى وجهى دون أي كياسة فتنتابني نوبة سعال تزيد من إرهاقي وأسمعه يرد:

- «جت البلدية شالت فرشته.. وقعد يجري ورا العربية ويصرخ».

يأخذ نفسا آخر وأنا أكاد أحترق انتظارا أن يكمل كلامه.. يتثاءب طويلاً ويكمل

- «قام خدوه مع الفرشة.. هاع همهمهع».

يضحك وأنا أكاد أجن من سبب ضحكه فأسأله مرة أخرى:

- «طب وبعدين؟»

- «ولا قبلين معرفش غير كدة..هوكان قريبي؟»

يقولها ويعود إلى كشكه ليجلب مزيداً من المعسل

- «الأمورة تشتري حاجة؟»

أتركه وأرتقي درجات السلم وأنا استند على الدرابزين؛ أكاد انفجر من البكاء.. لا أدري لم كل هذا التأثر الذي ألمّ بي رغم عدم معرفتي بالرجل.. أكاد أشعر به وهو يرى بضاعته القليلة التي هى كل ما يملك وأفراد البلدية يلقونها داخل عربتهم ..أتمالك نفسي وأنا ادلف للشقة كى لا ترى الفتاتان الجديدتان دموعي؛ أحييهما فتجيبان بأختصار وتعود إحداهما إلى ضبط حواجب الأخرى.. أهز رأسي ألما وأغلق باب غرفتي .. أرتمي على الفراش بملابسي لا أدري أهذا من الإرهاق أم من الحزن؛ أضع الوسادة على رأسي لعلها تقف حاجز بينها وبين دموعي.. ترى كيف سيكون حالى

لو لم أجد دادة "عفاف".. أدعو الله أن يكون بخير وأحاول أن أنام.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أوقف المنبه كى لا يزيد من ألم الصداع برأسي وأجذب منديلا فقد بدأت أنفى تسيل وأشعر أن عربة نقل قد دهست عظامي.. أغلق عينيّ وأتخيل يد أمي الحانية وهى تمد لي كوبا من الليمون الدافىء وتضع مزيدا من الكمادات على رأسي الساخن ..أنتبه على صوت ألة التنبيه لإحدى العربات التي أخذ سائقها يسب ويلعن لتعطل الطريق.. أتحامل على نفسي وأنهض كى لا يفوتني ميعاد المحاضرة..اتكئ قليلا على حافة الفراش وأمد يدي كي آخذ الدواء.. اتمني لواقتلع أنفى من رأسي كي يخفت الألم قليلا ..اقيس درجة الحرارة فأجدها انخفضت قليلا عن البارحة ..أغمض عينيّ للحظة لكن يعود صوت آلات التنبيه أقوى فأنظر بين خصاص النافذة لأجد ازدحاما شديدا بالكوبري.. لأول مرة منذ فترة طويلة أشعر بالغضب والحنق لما يجرى ...فليس من الطبيعي أن يستيقظ المرء على هذا الكابوس كل يوم.. وكيف كنت أطيق ما يحدث واعتاده؟

أهدأ قليلا كى لا أفسد مفعول التعوّد الذي يبقيني حيةً رغم كل شيء واستعذ بالله من الشيطان.. أغسل وجهى كي أفيق قليلاً؛ ألمح الفتاتين تفطران فأشير لهما بإشارة لا معني لها فتجيبني إحداهما بإشارة لا معني لها أيضا..لا أدري لماذا لم أنسجم معهما رغم أني كنت أتوق أن أرى كائناً بشرياً يسكن الشقة بعد الوحدة الشديدة التي كنت أعانيها.. لكني لا أشعر أنهما أضافا أي روح للشقة؛ فالوحدة كما هى إن لم تكن زادت بفعل إحساس الإغتراب بيننا.. فلهما عالمهما وأنا لا أتفق مع ذوقهما ولا أتحمل صوت الكاسيت الذي يرفعونه بغناء أجهل ماهيته وماهية المغني إن كان

رجلاً أم أمرأة.. فقط مزيد من الصخب يضاف إلى صخبهما الأساسي؛ لكنني لا أجرؤ على الشكوى حتى لا يكون الصدام.. فيكفى المرء معارك فى الخارج.. ولن يزيد صخبهما على صوت السيارات بجوار رأسي على أية حال!

أنتهى من ارتداء ملابسي وأشرب آخر جرعة من كوب الشاي الساخن وأنا أمسح أنفى من جديد.. أهرع على السلالم كي ألحق بأي مواصلة.. أجد باب العمارة مغلقاً بالقفل فأندهش لذلك.. أنادي على حارس العقار طويلاً حتى يظهر أخيراً من خلف باب غرفته متأففاً ومنزعجاً.. أطلب منه أن يفتح البوابة لكنه يتثاءب ويخبرني أنه لا يستطيع فقد كسر أحد سكان العمارة المفتاح داخل القفل صباحاً.. أشهق وأخبره بضرورة كسر الباب كي ألحق بموعدي.. ينظر إليّ بمزيد من الامتعاض ويلوك شيئا ما بين أسنانه ويخبرني أنه أرسل أحدهم كي يأتى بأجنة يكسر بها القفل وإن عليّ الانتظار ريثما يأتى.

أنتظر حتى لا يتبقي على موعد المحاضرة سوى خمس دقائق فيجن جنوني لكل هذا التأخير.. أنادي على البواب من جديد فيأتيني غاضباً هذه المرة ويخاطبني بلهجته الريفية أنه ليس ذنبه هو إنما هو ذنب سكان العقار المستهترين.. أذهل لعبارته فأسأله عن الحل.

-»النهاردة الجمعة إجازة والناس كلها نايمة.. ومش عارف وراكي إيه يوم الإجازة مستعجلة عليه؟!»

أمنع نفسي من الصراخ فى وجهه فأنتظر قليلا حتى يمر ميعاد المحاضرة..أكاد أجن غيظاً فأصعد وأنا أشعر بالدموع تتلاحق على وجنتيّ.. أدلف لداخل الشقة لأجد الفتاتين على حالهما تغمز إحداهما

للأخرى لدي رؤيتي دامعة العينين.. لا أهتم بتعليقهما وأصفع الباب خلفى بقوة.. أفكر فى محاضرة اليوم المهمة فيزداد غيظي ..أجلس قليلاً على الفراش حتى أهدأ وأعود لتغيير ملابسي.. أفتح خزانة الملابس لأرى بعض الملابس التي لم أرتدها منذ شرائي لها.. تأتيني فكرة غريبة رغم تعبي الشديد فأخرج بعض الملابس القصيرة وأرتديها.

أتأمل نفسي فى المرآة وابتسم.. أخرج أدوات الزينة التي بدأ الغبار يتراكم عليها لقلة استعمالها وأبدأ فى التزين.. لأول مرة أرى وجهى بالأصباغ بعد تعودي عليه بالكحل الأسود.. أنهض وأقترب من المرآة وأضع طبقة من ظلال الجفون فتعطي مظهراً جميلاً لعيني لم أعتده.. أمر بيدي على شفتي وأنا أشعر بمرارة لا أدري سببها

..لأول مرة أفكر فى عمري.. فلم أعد طفلة الأمس بل أكاد لا أصدق أنني أخطونحو السادسة والعشرين من عمري.. أشعر أن ذلك ليس صحيحاً فمتى مرت كل تلك السنون؟..أشعر أن هناك من سرقها فى غفلة مني.. كيف سمحت لفترة شبابي أن تعدو مسرعة هكذا؟ أزيد من تأملي لانعكاس صورتي فى المرآة.

استرجع حديث "فاطمة" عن ما تعانيه الفتاة حين تبدأ آخر سنوات العقد الثالث فى الانتهاء منذرة إياها بمنحها لقب العانس الكريه بينما لا يجد الرجال أي عيب فى وصولهم لسن الأربعين دون زواج.. لا أجدني أكره اللقب لكنني لا أحبه بالتأكيد

..أمسك بإصبع أحمر الشفاه وأصبغ شفتيي فيظهر اللون الأحمر الجميل معطياً حجماً أكبر لشفتيّ وصورة أجمل لهما.. أتراجع بظهري وأفك دبوس الشعر فيتحرر شعري الأسود الذي ورثته عن جدتي؛ أمشطه

وأتفنن فى أوضاع مختلفة له وأزيد من تأمل صورتي وأنا أكاد أشعر أن واحدة أخرى هى من تنظر إلى .. لم أكن أتصور يوما أن أفكر فى مثل تلك الأمور.. لكنني أخشى حديث "فاطمة"؛ أخاف المستقبل الذي ينذر بوحدة ستطول فترتها.. ألا يكفى ما مررت به من سنوات وحدة بعيداً عن أهلي وبلدتي؟.. حرمت نفسي من نعمة البقاء معهم من أجل إكمال تعليمي ومن أجل إرثي الذي مازالت أطالب به ويبدو أنني لن أحصل عليه مادام عمي على قيد الحياة..أهز رأسي وأشعر بالبرودة فاستبدل ملابسي وأشعربأنفى تسيل من جديد أمسحها قبل أن تفسد الزينة.

أجلس على الفراش لا أدري فيم أفكر.. أضع شريط ل"ليلي مراد" أحبه ويبدأ صوتها فى التسلل من أذني إلى قلبي .. أنسي تعبي وأقف لأرقص مع حبيب الروح الذي تغني من أجله.. أتخيل مشهد فتيات الباليه وهن ترقصن برشاقة ونعومة حولها ..فأغمض عينيي وأبدأ فى تخيل نفسي فتاة باليه.. أضحك وأنا أكاد لا أصدق أنني أفعل ذلك حقا.. أدور حول نفسي كثيراً حتى أشعر بالدوار كما كنت أفعل فى صغري وافتح عينيّي لأرى الموجودات تدور فى دوائر سريعة؛ تزداد حالة النشوة لديّ فأردد مقاطع الأغنية معها.. اصطدم بالمنضدة فأدرك أنني بالغت فى تصوري لمساحة حلبة الرقص بالغرفة فأرتمي على الفراش وقد نثرت شعري حولي وأتابع صوت "ليلي" والموسيقي الساحرة.

أسمع فجأة قرعات إحدى الفتيات على الباب تخبرني أن حارس العقار قام بكسر القفل..أنظر للساعة فأجد أنه لم يتبق سوى ساعتين على موعد العمل.. لا أعرف ما أفعل خلالهما أنهض كي أتناول طعام الغذاء مبكرا.. أهم بالخروج لكنني أسارع بالعودة لأمسح آثار الزينة عن وجهى؛ لا أدري

لم فعلت ذلك فليس بالمنزل سوى الفتاتين لكني لا أجرؤ على أن يرانى أحد هكذا.

أشعر أنني أفضل حالاً وأنا أقوم بإعداد الغذاء.. أبتسم وأنا أمسح أنفى وأنا لا أصدق ما قمت به لتوي.

زين»٧«

هذا هوالأسبوع الثالث بلا عمل.. نعم فلقد أُقلت من وظيفتي التي كنت أتكبر عليها أو كما أبلغوني «استغنينا عن خدامتكم».. فترشيداً للمصروفات؛ وجدوا أن المول لا حاجة له بعمال المصاعد بعد أن قرروا أن يحولوا نظام المصاعد ليصبح الراكب هوالمتحكم فيه إذ أن الأزرار ولوحة التحكم سيتم استبدالها ونقلها إلى خارج المصعد ..لم استوعب الأمر من أول وهلة.

أتوجه كعادتي إلى مكان التجمع لإثبات حضوري فأجد اضطرابا على غير العادة والوجوه واجمة.. فى كلمات قصيرة أخبرنا المدير أو «الجينرال مانيجير» أن الخطة الجديدة لتطوير المول أنه سيتم الاستغناء عن بعض المهن مثل عمال المصاعد خاصة المصاعد ذات الواجهات الزجاجية حيث يحرص المول على جعل الزائر يقوم بكل شئ بمفرده ليشعر بالتفرد.. لم يصلني باقي كلامه توقفت عند جملة «استغنينا عن خدماتكم » وبعض الكلمات عن صرف المستحقات ومكافأة بسيطة شدد عل كونها هبة منهم كي يدفن أي بادرة للاعتراض وضاغطاً على حروف كلماته أنهم ليسوا ملتزمين تجاهنا بأي شئ ولقد استوفينا كافة حقوقنا ..يرحل متمنياً لنا حظاً أوفر فى مكان آخر ويتركنا نتبادل الكلام المذهول والغاضب ..يرحل الجميع وابقي فى مكاني لا أدرى ماذا أفعل.

أسير فى الشوارع المحيطة بالمول ثم أجد نفسي أضحك بلاتوقف..

حتى المصعد الذي كنت أكرهه وأعتبره مرحلة مؤقتة حتى أجد وظيفة أخرى تخلي عني.. بل لفظني لفظاً.. استرجع كلام المدير عن ضرورة إشعار الزائر أن الخدمة على أعلى مستوي حيث يتحكم بنفسه فى المصعد فأضحك من جديد.. عن أي ترشيد للمصروفات يتحدث فى مول بهذه الضخامة والرفاهية والإمكانيات؟ وما العبء الشديد الذي ستشكله رواتب عمال المصاعد على كاهله لدرجة ضرورة الاستغناء عن خدماتنا؟.. أندهش أنني لم أغضب.. ولم أحزن كذلك.. كل ما شغل تفكيري هو كيف سأواجه والدتي بعودتي إلى البطالة من جديد وكيف سأتحمل تلك النظرات وتلميحات العبء المتزايد على كاهل شقيقاتى الفتيات وأنا الرجل لا يعمل.

أجلس على سور إحدى الحدائق العامة التي أنها أغلقت أسوارها أمام الجمهور ومنع أي شخص من دخولها.. أتأمل الأشجار بالداخل والآرائك الخشبية المتناثرة التي لم يجلس عليها أحد قط رغم أنها المفترض كما مكتوب على لافتتها أنها حديقة عامة.. هذه هى المرة الرابعة التي أجلس فيها على حافة السور..فى كل يوم أخرج من المنزل فى نفس موعد العمل كى لا يكتشفوا الأمر بالمنزل وأحاول البحث عن أي عمل حتى لوعامل نظافة قبل أن يأتى آخر الشهر وتنتهى مكافأة نهاية الخدمة.. لكن اليأس يصر على ملاحقتي بإصرار غريب رغم تشبثي الشديد بأي بارقة أمل حتى لوكانت فى خيالى.. أصبحت أتهّرب أحيانا من إلحاح «مها» لنتقابل فأخشى أن تدرك الأمر بعينيها التي تخترقني.. لا أذكر عدد الشركات التي تقدمت بأختبار ومقابلة عمل بها ولا أتذكر عدد السير الذاتية التي قدمتها والتي رفضت بأناقة بزعم أن تخصصي لا حاجة لهم به.. لا أدري كم

سيتبقي لي من الوقت قبل أن ينكشف الأمر ولا كم من الوقت سأظل فيه متماسكاً قبل أن تبدأ قواي فى الانهيار.

أمر على والدة « وليد» كي أسأل إن كانت بحاجة لشئ بعد سفر ابنها فأجدها تطلب مني الانتظار قليلا ثم تهرع للداخل وتأتى لي بقصاصة ورق تناولها لي وتخبرني أنها طلبات طلبها مني «وليد» وعليّ الاتصال به كي أفهم منه أكثر.. أتناول رقم الهاتف وأتجه للسنترال.. أتأمل قصاصة الورق فأجد نقاط مكتوبة «شهادة الميلاد وشهادة التخرج..وشهادة إجادة الكمبيوتر وصورة شخصية» لا أفهم شيئا من المطلوب.. أطلب رقمه الدولي بانتظار سماع صوته.. يأتيني صوته متقطعاً بعض الشئ ومتأخراً لثوان؛ يخبرني فى كلمات قليلة أنه وفق فى عمله وهو يستأجر شقة رخيصة الثمن مع بعض المصريين بالسعودية.. أهنئه وأسعد بنبرة صوته التي تغيرت وبدأ الفرح يشق طريقه لها أخيرا.. أسأله عن قصاصة الورق فيضحك ويخبرني أن أحد زملائه فى السكن سيترك وظيفته ليعود إلى مصر حيث مرضت زوجته وهى بحاجة له وأنه أتفق معه أن يقترح على رئيسه فى العمل أن يقوم بتوظيفى بعد رحيله بعد أن شكر فى امكانياتى وخبرتي.

ألجمتني المفاجأة وصوت «وليد» يأمرني بالإسراع فى تجهيز الأوراق المطلوبة واستخراج جواز السفر وإرساله له فى أقرب فرصة وهوسيقوم بالباقي حتى يرسل رئيس العمل تأشيرة الدخول.. استمر فى صمتي فأسمعه على الجانب الآخر يحثني ألا أضيع الفرصة حيث أنها لن تتكرر مرة أخرى.. أردد دون تفكير «أسيب هنا؟» أسمع نبرة صوته تزداد حدة «حتقعد تعمل إيه عندك؟ تقعد جوه الأسانسير؟»

أبتسم ساخراً وأنهى المكالمة على وعد بتنفيذ ما طلب ثم أتوجه إلى العمل غارقاً فى أفكار شتى.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

أجلس فوق الفراش لأفكر..بالأمس انتهيت من استخراج جواز السفر ولم يتبق سوى إرساله مع باقي الأوراق والشهادات إلى «وليد» كي ينهى هو الأمر.. لم تكن فكرة السفر مطروحة لديّ قط؛ لكن فور أن جاءت لم أرفضها وهذا ما أدهشني.. لم أحتاج لوقت كثير حتى أقنع نفسي؛ وفور أن سمعت أمي بالخبر أشرق وجهها ورأيت الابتسامة التي غابت عن وجهها طويلاً.. أشفق عليها وهى موظفة فى وزارة الري تقف فى المطبخ لتعد الطعام للزبائن مقابل أجر زهيد.. شقيقاتى البنات بحاجة إلى من يجهزهن حتى يستطعن الزواج وأنا نفسي لن استطيع التقدم خطوة واحدة للأمام هنا.. المستقبل لا يعد بأي شئ وأجريت مقابلات عمل كثيرة لم أوفق فيها حتى بعد الكورسات والتدريبات الكثيرة التي التحقت بها.. فلابد من وساطة وأنا معدوم منها تماماً لم أخبر « مها» بما أعزم عليه بعد.. لكنني أشعر أني استطعت أن اؤمن لها حياة تبعدها عما كانت عليه من دنس.. استطعت أن أقنع أستاذ «حمدي» المهندس بالمعاش وأحد المقتدرين بمنطقتنا أن يقرضها المبلغ المتبقي على فترات على أن ترد جزء منه ويعتبر الباقي من الزكاة فوافق بعد أن قمت بتلفيق قصة عن حالتها إبتعدت فيها تماماً عن الإشارة إلى ماضيها.

لا أدري لم هذه الغصة بداخلى تجاهها.. لا أريد أن أسافر كى لا أتركها وكذلك لا أفهم لم أشعر بذلك الشعور.

تسرد عليّ ما حدث فى المحل.. ثم تخبرني أنها بدأت تكون علاقات

مع إحدى الجارات تمضي معها بعض الأمسيات فى المنزل ويثرثران خلالها كثيراً وتخبرني أنها المرة الأولي التي تحظي فيها بصديقة.. أجدها سعيدة فأبتسم وأطيل النظر إلى ملامحها.. يخفق قلبي فأدير وجهى لناحية أخرى.. أدرك أنني بدأت أشعر تجاهها بمشاعر مختلفة غير الشفقة والرغبة فى المساعدة.. لكن علاقتنا لا يمكن أن يكتب لها النجاة إلا فى أفلام الأبيض والأسود الساذجة.. فهو أمر مستحيل التحقيق أو حتى التفكير به.. وأعترف أنني أحياناً أفكر فى المستقبل معها فأجده مستحيلا.. لا يمكنني أن أنسى ماضيها كما أنني لا أريد أن أشعر يوماً لو ظهر بيننا خلاف بالشك وتبدأ الهواجس وهو ما سيحدث بالتأكيد.. كما أدرك كذلك أنها ليست ملامة كلية عما آل له حالها قديما.. تصمت ثم تخبرني أننا سنلعب إحدى الألعاب وهى أن يروي كل منا أحلامه التي كان يريد تحقيقها فى صغره.. تخبرني بحلم الشقة الذي تحقق وحلم العمل والستر وتخبرني بحلمها أن تصبح أما.. أشعر بقلبي يخفق من جديد فأدارى ذلك بابتسامة سريعة.. تتبع كلامها أنها تحلم بأنجاب ثلاث أطفال وتبدأ فى تسميتهم.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

لم يعد بي حاجة إلى أن أدعي الذهاب إلى عملي على من بالمنزل.. أصبح السفر هوالقشة التي أتعلق بها الآن.. الحياة سُدت أبوابها ونوافذها أمامي ولم يعد هناك أي منفذ لأي بارقة أمل فى حياة أفضل أو فى مستقبل ما أي كان نوعه.. أدعو الله أن يوفقني فيما اعتزمه وأتأكد من إعداد كل شيئ ومن وجود جواز السفر وعليه تأشيرة السفر وتصريح العمل.. والدتي تجهز لي بعض الأطعمة لأحملها معي سأحاول التخلص منها قبل الرحيل كى لا أحمل وزناً زائداً.. أمضيت البارحة مع إخوتي؛ منذ فترة

طويلة لم نجلس سوياً نتحدث.. الكل يدارى دموعه ويتحدث بحماسة عما ينتظرني هناك من عمل أفضل ومن دخل أكبر.. أحث شقيقي الأصغر على حسن الاستذكار وأوصي شقيقي الآخر خيراً بشقيقاته وأن يكون نعم الرجل فى غيابي.. أسأل الجميع عما يريدونه وأدون طلباتهم فى ورقة أحتفظ بها مع جواز السفر.

أتأمل عقارب الساعة وأشعر بألم شديد فى صدري.. أتنفس بعمق وأحاول أن ألهى نفسي كى لا يمزقني ذلك الشعور بالحزن والخوف.. لا استطيع أن أخفى أنني لا أريد السفر لكنني مضطر وأنني فعلا أحب هذا البلد رغم ما به من أوضاع تزيدنا فقراً على فقر.. رغم كل ما نقابله من فساد ووساطة ورغم مأساتنا التي تزيد كل يوم إلا أنني أعترف بحبه حتى لوتعذبت فيه ألف مرة وحتى لوفررت منه وحتى لولم يكن يبادلني نفس الحب وإن كان يسهم بكل عزمه فى ضرب حواف أصابعي المتمسكة بأحرفه.. لعل فرارى منه يكون سبباً آخر كي أظل على حبه وكى لا يزداد كرهى لسوء الأوضاع المستمر..فأنا بسفري سأمنع نفسي من أن ألعنه.. سيتبقى لي بعض الذكريات حلوة الطعم قبل أن تقضي كل هذه المرارة على ما تبقى منها.

أقرر أن أذهب للتجوال فى أنحاء القاهرة قبل الرحيل.. أن أذهب إلى الأماكن التي لم أفكر فى الذهاب إليها قبل ذلك.. باقي أمامي بضع ساعات ينبغي ألا أضيعها فى الحزن.. سيكون هناك فائضا من الأيام أجترّ فيه أحزاني وغربتي؛ أما الآن فالوقت أثمن من إضاعته.. أتجول فى أنحاء مصر القديمة.. تأتيني بعض الأفكار وتغمرني حتى أكاد استشعر الغرق تحت طوفانها.. تأتيني صورة «مها» وذهولها عندما علمت بالسفر.. كان

بإمكاني أن أخبرها منذ البداية لكنني أشفقت عليها.

أخبرها بأمر السفر وأنني أعددت كل شئ للرحيل غدا.. تنظر لي فى دهشة ثم تبتسم وتظن أنني أمازحها.. لكنها تعود فتفهم جدية الحديث.. تصمت إثر المفاجأة وألمح غشاوة من الدموع تمسحها سريعا قبل أن تنساب فوق وجنتيها.. أتحدث طويلاً ولا أنسى فى نهاية الحديث أن أخبرها أنها ستكون بخير وأنني مطمئن عليها.. تبتسم فى إنهاك فتغلبها دموعها من جديد.. أمد يداً مرتجفة وبتردد أمسح دموعها فتهدأ.. أعطيها رقم الهاتف الذي تستطيع أن تهاتفني عليه لو أرادت شيئاً وأخبرها أنني سأتصل بها بصفة دورية فى محل عملها مرة كل اسبوعين.. تضحك فتلمع أسنانها البيضاء النضيدة ثم أنتزع منها وعداً بألا تترك العمل وأن تطمئنني عليها دائما.

لم أكن أظن أن وداعنا سيكون سريعاً هكذا.. هى طلبت مني ذلك كيلا أراها وهى تبكي وأنا لم أتردد كثيرا.. كانت تلك رغبتي كذلك.. كنت أود لو أقدم لها ما هو أكثر من ذلك بكثير.. لكن لعل سفري يساعدني على ذلك فيما بعد.. لكنني اشعر بالطمانينة وأشعر بالثقة تجاهها.

أعرج على الحسين وأصلي الفجر حاضراً وأظل به حتى شروق الشمس.. أخرج إلى الهواء المثلج بالخارج وألحظ بعض الشحاذين يلتفون بأسمال بالية شديدة الاتساخ استعدادا للعمل بعد ساعات قليلة.. المحال مغلقة.. أشعر ببراح شديد وألمح بعض الباعة الجائلين الذين يعدّون فرشتهم ويخرج الآخرون عربات الكبدة إلى الميدان استعدادا للبدء.. لا أشعر بآلام البرد رغم أن الحرارة شديدة الانخفاض؛ استمر على سيري حتى اصل لمنزلنا دون أن استشعر التعب لكل هذا السير؛ استنشق الهواء فى عمق وأتأمل شارعنا ومعالم منطقتنا الغارقة فى الصمت ثم

أختزن الهواء بداخلى وأطلق سراحه حين تؤلمني ضلوعي وأصعد لجلب الحقائب فلم يتبقي سوى سويعات قليلة على موعد الطائرة.. أشعر أن تلك السنوات ستمر سريعاً لأعود وقد صار الحال أفضل.. أردد على سمعي أن الأمل سيفتح بابه قريباً حتى يبدأ شعور الاطمئنان يدفع الحزن والألم على استحياء.

عفاف «٩»

كانت زيارة "أمل" بمثابة قبلة حانية على وجنتيّ أنعشت بداخلى مشاعر كثيرة كانت خافتة منذ فترة طويلة.. أحسست بفرحتها الشديدة تجتاحني وتجتاح عالمي لتنير أرجاء منزلنا بسعادة قلّما عرفت طريقها إلينا.. رأيت السعادة على وجه "سهام" وانسجامهما معاً وحديثهما طويلاً قليلة هى المرات التي أشعر بسعادة "سهام" وهى تتحدث وبحماستها لمجاذبة أطراف الحديث مع أحد.. اتكئ على العكاز وأجلس بانتظار عودة "محمد" فاليوم موعد وصوله وكان من المفترض أن يصل صباحاً.. أحكم ربط الشال الصوفى حول كتفى فالشتاء هذا العام شديد البرودة.. أخبرني "محمد" أن العبارة التي سيركبها تصل إلى "سفاجا" فجر الأمس.. أي أنه من المفترض أن يكون هنا صباح اليوم .. ترى ما الذي أخر وصوله ؟

تدخل "سهام" فلقد أخذت اليوم إجازة لاستقبال أخيها لتجلس معي قليلاً وتلحظ قلقي فتحاول أن تلهيني وتحدثني عن "أمل" نصمت قليلا ثم تقول بسعادة:

- «واحشني "محمد" أوي .. مش مصدقة أنه أخيراً راجع».

تقترب مني فأبتسم وأنظر لصورة "سيد".. كم أفتقد ابتسامته فأنا أنتظرعودته منذ أمد طويل.

يدلف "عبده " و"أميرة" عائدين من مدارسهم.."عبده" يبدوعليه القلق الشديد.. تسأله "سهام" عما به فلا يرد؛ يخرج إلى الصالة فتتبعه.. أسمعهما يتهامسان لكن لا أسمع ما الذي يتحدثان عنه.. يفتح "عبده" الراديو ويدير المحطات حتى يصل لإذاعة الأخبار.. أخرج إليهم وألمح ملامح الرعب على وجه "سهام".. تنتقل الأخبار إلى الشئون المحلية؛ أسمع صوت المذيع القوي:

« مازال عدد ضحايا العبارة المنكوبة في إزدياد وتم انتشال جثثاً وأشلاء لم يستدل على أصحابها.. وتستمر جهود السادة المسئولين.. أما عن الأخبار الرياضية.. فاز منتخبنا القومي ببطولة كأس الأمم الإفريقية ».

تجلس "سهام" على الأريكة وقد صار وجهها شاحبا.. يجلس "عبده" جوارها واجماً ..أنقل البصر بينهما.. ماذا يعني ما قاله ذلك المذيع؟.. ولماذا تملّك الرعب منهم هكذا؟

- «مالكم؟.. هى العبارة إللى غرقت دي جاية منين؟»

أسألهم فى توتر فتنظر "سهام " للأرض ويرفع "عبده" عيوناً زائغة إليّ

- «من السعودية»

لا أجرؤ على التفكير فى سبب خوفهم ولا أجرؤ أن أترك العنان لأفكارى كي تصور لي أن تكون هى العبارة التي ركبها "محمد".. أهرع إلى جرائد اليوم التي لم أمسها منذ الصباح وأبدأ فى تعقب الأخبار.. أقرأ التفاصيل فى سرعة لأدرك أنها كانت سترسو فى ميناء "سفاجا" فجر الأمس؛ لكن حريقاً شبّ بها أدى إلى غرقها.. لا أريد أن اتخيل ما يتصورونه وما يجاهد عقلي كي يقنعني به.. ينزل "عبده "ليشاهد الأخبار عند جارنا.. نجلس

أنا و"سهام " ننظر لبعضنا البعض دون أن يجرؤ أحدنا على إخبارالآخر بما فى قلبه .. أنفض رأسي وأردد:

« "محمد" زمانه جاي»

يعود "عبده " بعد ساعة وهو يبكي؛ يخبرنا أن العبارة هى التي استقلها "محمد" نفس الاسم الذي أخبره إياه "السلام ٩٨" ينفجر فى البكاء.. تصرخ "سهام " وتحتضن "أميرة" ويعلوصوت بكائها؛ أنظر لها فى حيرة وأنا لا أدري سبب بكائهم الشديد.. فخبر غرق العبارة مؤلم حقاً لكن ليس لدرجة صراخهما بهذه الطريقة ..أدعو الله أن يعود "محمد" سريعاً كي تخفف عودته من حزنهما على ضحايا العبارة الأبرياء.

نسمع طرقات متعاقبة على الباب فأشعر بسعادة لعله "محمد" عاد أخيرا يفتح "عبده" الباب بلهفة فتدخل جارتنا التي تسكن بالطابق العلوى وتحتضني وهى تواسيني.. لا أدرى ما الذي أصاب الجميع؟

تزيد "سهام "من بكائها بصوت عال لم أعهده منها.. أسمع جارتنا تقول فى حزن شديد:

- «أول ما سمعت اسمه -الله يرحمه- مع أسامي المتوفين جيت بسرعة».

تقولها فلا أدري عمن تتحدث.. يبكي الجميع وأحاول تهدئتهم مرددة:

- «معلش الله يكون فى عون أهاليهم».

ترفع "سهام " نظرها إليّ فى رعب فأكمل لتهدئتها:

- «محمد جاي كمان شوية.. امسكي نفسك شوية.. بلاش يشوفكو

بتعيطوا كدة بعد الغربة دي كلها».

تدفن رأسها وتزيد من بكائها ينظر إليّ "عبده" بعيون واسعة ويقترب مني فى قلق

- «محمد زمانه جاي يا عبده.. بص عليه من الشباك عشان تشيل معاه الشنط.. ده جايب حاجات حلوة كتير زي ما قال».

أمل «٩»

أركب الحافلة بانتظار وصولي للعمل.. وصلت بالأمس فتاتان جديدتان للدار من إحدى محافظات الوجه البحري.. لم أعرف عنهما سوى اسميهما وهذا ما سمحا لي بمعرفته.. فهما لم تتبسطتا معي فى الحديث ولست من النوع الذي يستطيع أن يفرض نفسه ليجبر الآخرين على التحاور معه.. أتنهد طويلاً وأنا أعد على أصابعي عدد الفتيات اللاتى أتين للدار وانصرفن.. يزيد العدد عن أصابعي العشرة فأكف عن العد وأرمق المارة فى الشارع .. ألمح شخصا رث الثياب أشعث الشعر يسير وهو يضرب كفا بكف.. يمر بجوار نافذتي فألمح عينه زائغة يحدث نفسه بصوت مرتفع ويسب شخصا ما.. يعبر الطريق ويكمل طريقه.. أتحسس رأسي وأحمد الله.

تعود إليّ الأفكار بقوة من جديد عن الحياة التي تمر سريعاً دون أن أشعر بمرورها وأيام أخرى تطول أبد الدهر.. الكل فى الشقة يحيا وأشعر أن غرفتي هى قبر يموت فيه كل شيء إلا صوت السيارات المارة لتزيد الأمر سوءا.. فحجرات المنزل كلها صاخبة بالحياة إلا غرفتي؛ وكأن المرح يتوقف عند بابها ليعود خذلان جاراً أذيال الخيبة.. ففتيات كثيرات تأتين.. تحيا كل منهن حياتها.. تعيش لغرضها الذي أتت من أجله الشقة ثم تمضي لتكمل حياتها.

فالكل يأتى ويرحل وأبقي أنا.. كأحد أركان الشقة أو كأحد الأعمدة الجامدة لا حياة لي سوى داخل الشقة ولا أحد يعلم عني شيئاً ولا يرغب فى ذلك.. أشعر بثقل على صدري يفقدني قدرتي على التنفس.. أغمض عينيّ وأرجع رأسي للوراء وأتنفس بعمق.. تمضي الحافلة بين محطة وأخرى؛ أصبحت أدرك المحطات دون الحاجة لفتح عينيّ.

أمد قدمي أمامي طمعاً فى قليل من الراحة.. أفزع عندما أشعر بيد تتسلل من جانبي لتجد طريقها تجاه جسدي..أنتبه فى جلستي فأجد اليد المشعرة تتراجع فألتفت لأجد صاحبها يحدق في وعلى وجهه علامات غريبة.. أرمقه فى حدة وأعود لجلستي وكلي تحفز.. أشعر باشمئزاز حقيقي أجاهد كي أسيطر عليه وأنا أرمق المارة وألتفت لجانب مقعدي بين الحين والآخر.

||||||||||||||||||||||

أتناول الدواء وقد قاربت على الشفاء..أمسح أنفى قليلا ثم أتكئ على حافة الباب الزجاجي أتأمل المارة قليلاً ثم ينتابني الملل؛ أجلس على المكتب وأجاهد كي استذكر لكني لا أجد أي رغبة في الاستذكار رغم أني لم أنقل المحاضرة التي فاتتني بعد.. أتأمل شاشة الهاتف للمرة الرابعة اليوم.. ينتابني قلق غريب هذه المرة ليس قلق الانتظار كما فى كل مرة تتأخر فيها أختي عن اتصالها.. إنما قلق هو للتوجس اقرب؛ أشعر به يمضغ قلبي ويتسلي بإثارة كثير من الخواطر السيئة لعقلي.. أدعو الله أن يكون تأخيرها خيراً وأعيد ترتيب الملابس كي يمر الوقت سريعا.. أصبحت حياتى الآن محاولة لجعل الوقت يمضي لا أكثر؛ دون اي استمتاع أو استفادة بمروره.

أسمع طرقات على الباب الزجاجي فألتفت لألمح "منى" التي لم أرها منذ فترة ..تمضغ اللادن وتلثمني على سبيل التحية.. نجلس معاً وتبدأ فى الثرثرة فى مواضيع لا أعرف عنها أي شيء لكنها تجعل الوقت يمر.. تنهض وهى مازالت تثرثر لتكسر الجليد بيننا تنظر إلى المرآة تتأمل نفسها جيداً وتتأكد أن كل شيء فى موضعه تستدير وتتأمل ظهرها سريعاً ثم تعود لجلستها معي.. أشعر أنها تريد الحديث عن موضوع ما لكنها تخشى البداية؛ لا أدري لماذا لم أشجعها على الكلام.. لعلّى لا أرغب فى معرفة أسرار أخشى أن تكون أكبر من قدرتي على استيعابها.. تدخل إحدى الزبائن فأتركها وأعاون الزبونة؛ أخرج بعض القطع كي تراها.. تختار إحداهم وتدخل لقياسها.. أختلس النظر إلى "منى" فأجدها متوترة قليلا لا تنظر إليّ ولا تتفحصني كعادتها بنظراتها المقتحمة.. أتوجه للناحية الأخرى من المحل كي أرى وجهها فى انعكاس المرآة فألمح عيناها تدوران فى سرعة وكأنها تتوق للقفز من رأسها.. ترى ما بها وما الذي يثقل ضميرها لهذه الدرجة؟.. تخرج الزبونة فأتناول منها مشترواتها وأبدأ فى تسجيلها على الحاسب.

"منى" تتابع ضربات أصابعي على لوحة المفاتيح بعيون لاترى.. ترحل الزبونة فنعود لجلستنا مرة أخرى.. لا تدري من أين تبدأ حديثها ولا أجد فى نفسي رغبة لمساعدتها على البدء.. تنهض لتعبث فى الملابس؛ تتأمل بعضها وتتحدث حديثاً عابراً عن الزبائن والعمل.. أوافقها بهمهمة لا معني لها ولا أدرى لم أقوم بذلك فكان من واجبي أن أحمسها للكلام كي تستريح.. فأنا أرى جيداً ملامح المعاناة على وجهها ولا استطيع أن أنكر ذلك.

تمضي بنا لحظات ثم يقطع حديثنا رنين هاتفى أمسكه بلهفة وأجد رقم أختي .. أعتذر لها وأتجه للخارج كي أحدثها.. صوتها متهدج به رعشة لم أعهدها فى مكالماتها السابقة تسألني عن احوالى وعملي ودراستي.. فأجيبها إجابات سريعة.. تصمت قليلاً فيكاد قلبي يتوقف عن الخفقان.. أسألها عن أمي فيأتيني صوتها مضطرباً:

- «تعبانة أوي يا "أمل" بقالها أسبوع مقمتش من السرير».

أشعر بوعيّي يتسرب بعيداً عني لكني أتحامل وأسألها عن السبب

- «الدكتور مش عارف.. بيقول عشان القلب بدأ يتعب وأنا مش عارفة أعملها حاجة».

تتوقف عن الحديث وأسمع شهقة منها يتبعها صوت بكاؤها فأستند على الباب الزجاجي كي لا أسقط.. أسألها عن عمي وهل مازال على عناده.. يأتيني صوتها قلقاً وهى تتساءل عن سبب سؤالى.

- «إوعي يا "أمل" تكوني ناوية تيجي.. حيعرفوا أني باكلمك.. دي فيها طلاقي.. أمي كام يوم وتقوم بالسلامة.. إوعي يا"أمل" متخربيش بيتي».

أكاد أبكي غيظاً وأنا أطمئنها ثم أطلب منها أن تعيد الاتصال بي من جديد كي أسمع صوت أمي.

- «هى مبتتكلمش يا "أمل"».

تقولها مسرعة ثم تستدرك وتكمل حديثها فأدرك أن حالة أمي أخطر مما تخبرني به لكنها لا تريد أن تفزعني.. تعدني أنها ستعيد الاتصال لاحقاً لأن زوجها عاد إلى المنزل.. أظل على موضعي استمع لصوت انتهاء

المكالمة الرتيب.. أشعر بالإختناق ولا أقدر على الحركة.. استند قليلا على الباب وأحاول أن أتنفس بعمق.. ألمح إحدى الزبائن تدخل المحل فأدخل خلفها.

أشعر أنني لست على ما يرام فأجلس على المكتب؛ تتأمل الزبونة الملابس وتنظر إليّ فأعجز عن القيام.. تنتظر قليلاً ثم ترحل.. استعيد مكالمة أختي بينما أسمع كلام "منى" وقد بدأت تستجمع شجاعتها للحديث.. ألا ترى حالتي؟

- «تعبانة أوي يا "أمل"»

- «تفتكري يا أمل أنا عندي كام سنة؟»

اتأملها بدهشة وهى تسأل ذلك السؤال المستفز.. فأجدها لا تنظر إليّ وتكمل

- «أنا أكبر منك على فكرة».

أشعر بالرؤية تتشوه تدريجياً فأعود لأجلس على المقعد.

بقالها أسبوع فى السرير.

أسبوع مرّ عليها وهى متعبة ولم تحاول أختي إخبارى.

«الواحدة لازم تشوف نفسها بقي ولا إيه؟»

تقولها "منى" وتضحك ضحكتها العالية فأشعر بالغيظ الشديد.. أود لوترحل لكني لا أجسر على طلب ذلك منها.

إوعي تيجي يا "أمل" متخربيش علي».

أشعر بالدموع تنحدر من عيني وأنا أشعر أنني سجينة.. فلا أقدر على الإطمئنان على أمي المريضة كى لا أفسد حياة أختي.. أشعر بأنانية أختي

فى هذه اللحظة.. ألا يكفى أنني تركت حياتى وابتعدت سنوات عنهم كى لا تفسد حياتها.. عن أي حياة تتحدث.

- «وأنا مش حأقبل أفضل عايشة فى الفقر إللى أنا عايشة فيه ده تاني».

أنتبه لصوت "منى" من جديد تواصل حديثها الذي لم أعد أفهم منه حرفاً.. عم تتحدث تلك الفتاة؟

إوعي تيجي يا "أمل"

أشعر بهذه الجملة تتردد فى أنحاء عقلي لتدمر جدرانه.. لا استطيع تخيل أنني لا أملك رؤية والدتي فى مرضها خوفاً من عمي وأختي وزوجها.. لم كل هذا؟ ألا يكفيهم سنوات عمري التي ضاعت هباءا.. فما الذي سيضيرهم لواطمئننت عليها.. لم كل تلك القسوة؟

- «مش عاوزة حد يقول أني عملت حاجة غلط ..أنا من حقي أعيش شوية بقى».

أتأملها فى عجب وغيظ .. ألا تشعر بما أنا فيه الآن ؟..ليتها تخرس قليلا..

أنظر للساعة فأجد أنه مازال أمامي أكثر من ثلاث ساعات.. أسند رأسي على المكتب وأحاول أن أهدأ قليلا.

- «رأيك إيه يا "أمل"؟»

تعيد على هذا السؤال فأشعر أنني لا أفهم شيئا.. أصمت قليلاً ثم أرد:

- «ممكن تسيبيني لوحدي»

ألمح نظرة الغضب فى عينيها وتنهض ثائرة وهى ترد عليّ بكلام لا

أسمعه.. ترحل فيعود الصمت من جديد.. أنظر للساعة؛ مازالت العقارب في مكانها لا تتحرك لماذا لا يمر الوقت سريعا حين تريد ذلك؟.. أخرج صورة والدتي من حافظتي واتأملها مليّاً وأحاول السيطرة على دموعي.

||||||||||||||||||||||||

أغلق المحل مبكرا قليلاً وانتظر بخارج المول حتى تأتى أي مواصلة.. أتأمل الشارع والأضواء الشاحبة لعواميد الإنارة.. الشارع خالى لكنني لا أشعر بخوف أو برد ..طغي شعوري بالألم على كل حواسي الأخرى حتى لم يعد هناك مكان لسواه.. تتصارع الأفكار في رأسي فلا أسمع ما يدور حولي.. تلحّ عليّ الفكرة المنتصرة بكل شراسة.. أفكر مليّاً؛ تأتي الحافلة التي تقلني لمنزلي وتمر أمامي دون أن استوقفها ..بدأت ألين قليلاً ثم اقتنعت وأصبحت الفكرة المرفوضة هى الفكرة الوحيدة المقبولة.. استقل حافلة أخرى وأجلس على طرف المقعد؛ لا أحتمل الانتظار.. تقف الحافلة فأهبط منها متجهة لبوابة "محطة مصر".. لثاني مرة أراها منذ خمس سنوات لكن شتان بين المرتين.

أقف أمام شباك تذاكر الوجه القبلي لكني لا أجد أي تذاكر متبقية لليوم ولا الغد.. فعليّ الانتظار بعد غد صباحا.. أشكر الموظف الذي قارب على النوم وأجلس على أحد مقاعد اتجاه الوجه القبلي.. ألمح المسافرين القلائل حولي يحمل بعضهم كراتين كبيرة لا تكاد تنغلق على ما بداخلها.. قليل من الأسر نام أطفالها على أرجل أمهاتهم من التعب.. أنظر لساعتي فأجدها تسبق ساعة المحطة بدقائق قليلة.. الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل والقطار لم يأت بعد.. يمر بعض الشباب خلفى فأسمع تعليقاتهم ومعاكستهم.. انكمش قليلا بداخلى وأحتضن حقيبتي الصغيرة.. أسمع

صوت القطار فأرى تأهب المسافرين.. أقف معهم واستعد لركوبه.. العربات مزدحمة.. أسير من عربة لأخرى كي أجد مقعداً شاغراً.. العربات الأخرى مكدسة بالركاب؛ منهم من افترش الأرض ومنهم من نام فى الأرفف المخصصة للحقائب.. استمر على تنقلي حتى أعثر على مقعد خال.. أسأل الرجل إن كان شاغرا فيشير إليّ ويكمل نومه.

أشعر بألم فى ظهري فأسنده وأنا أتأمل تتابع المشاهد خلف النافذة.. تأتى بعض المناطق المضاءة ثم تمضى لتعود الصورة سوداء وألمح على الزجاج الذي تحول لمرآة ملامح وجهى المرتعبة القلقة.. أمسح وجهى كي أشعر ببعض الطمأنينة.. لكنني أشعر بداخلى أن والدتي ليست على ما يرام.. فلماذا لم تحدثني فى الهاتف كعادتها بعد مكالمة أختي.. نبرة أختي تكاد تنطق بالحقيقة.. فلوكانت بخير أو مرض عارض ما كانت ستبكي.. أترى حالتها خطيرة؟.. ألا يتسني لي لقاؤها إلا وهى فى أشد حالات مرضها.. استعذ بالله من الشيطان وأحاول تهدئة نفسي قليلاً.. أرجع رأسي للخلف وأغمض عينيّ.

أفيق على صوت نفير القطار فأرى ضوء الفجر قد لاح فى الأفق والسماء بدأت تصطبغ باللون الأزرق واللون الأسود يجمع حاجياته استعدادا للرحيل.. أنظر من النافذة تبدأ الصورة فى الإخضرار وأرى حقولاً شاسعة المساحات تتخللها المباني بين الحين والآخر.. مبان بنيت حديثاً بالطوب الأحمر.. أشعر أنني على وشك البكاء فأمسك بفمي لأمنع الصوت من الخروج وأتابع حقول القصب والذرة المتتابعة بعيون لا تكاد ترى من الدموع.

صورة أبي فى الحقل تكاد لا تبرح عقلي.. يتوقف القطار فى محطة

المنيا.. مازال أمامي الكثير.. يأتى أحدهم ويخبرني أنني أجلس فى مقعده؛ أنهض محرجة وأحاول أن أجد مقعدا شاغراً آخر.. لو لمحني الكمسري لأدفعني غرامة فادحة.. أمر على العربات كلها الواحد تلو الأخرى.. المقاعد كلها ممتلئة فأتكئ بظهري على آخر العربة.. ألمح الكمسري قادماً فاتظاهر أنني أنتقل بين العربات يمر بجوارى فأحمد الله ويمضي إلى عربة أخرى.. أعود إلى آخر العربة وأفترش الأرض الضيقة بين الباب وظهر المقعد الأخير.. أشعر بالتعب الشديد وأحاول أن أظل مستيقظة لكن يسقط رأسي للخلف مرات كثيرة.. أنتبه على تباطئ القطار وألمح بعض الركاب يتأهبون للهبوط..ألمح لافتة "سوهاج " واضحة أمامي فأتنقس بعمق وأهبط معهم.

أشاهد المحطة من الخارج.. تتابع الذكريات على رأسي حتى تختلط ببعضها البعض ..نفس المحلات؛ نفس المقاهى التي مازالت مغلقة.. فالوقت مبكراً ومازالت الساعة تشير للعاشرة صباحاً.. أسير قليلاً على رصيف المحطة.. ألمح من بعيد المحل المفضل الذي كان يبتاع أبي منه الأحذية.. نفس اللافتة القديمة التي تحمل اسم صاحب المحل وبجوارها محل للملابس لأحد الخواجات الذين رحلوا بعد الثورة.

يمسك أبي بيدي أنا وأختي ويعبر بنا الطريق.. أسأله عن السبب الذي يجعله لا يبتاع أحذيته سوى من هذا المحل رغم أن هناك الكثيرين حوله

- «لا الراجل دة أمين وجدمه متينة».

ندلف للمحل وأتأمل أبي وهو يصافح الرجل ويتبادلان الحديث تجلس أختي بجوار أبي وهو يقيس إحدى الأحذية وأقف أنا على باب المحل أتأمل المارة والعربة الحنطور التي تسير ببطء أمامنا.

أدير رأسي للناحية الأخرى كي أسيطر على فيض المشاعر بداخلى.. تأتى إحدى العربات القديمة الضخمة المخصصة للركاب والتي يتميز بها الصعيد فأستقل إحداهن كي تقلني إلى قريتي النائية.. أحتضن حقيبتي وقد بدأت الآن أشعر بالبرودة والخوف ..أخشى مواجهة عمي وأخشى وقع المفاجأة على أختي لكنني لن أتراجع.. ليس الآن ..أتشبث بصورة والدتي الحبيبة فى حافظتي كي استجمع بها شجاعتي.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

قريتي الحبيبة.. تماما كما تركتها.. المساحات الخضراء الشاسعة للحقول يتخللها النخيل بجذوعه العالية.. مازال البلح أخضر لم يحن موسم قطفه بعد.. بعض المنازل بنيت كالعادة بالطوب الأحمر وسط الحقول للعائدين من الخليج حديثاً.. أسير على الطريق الذي تم دكه قبل رحيلي ولن يعرف اختراع الأسفلت.. الترعة الصغيرة بجوارى متفرعة من ترعة أكبر قادمة من نهر النيل.

أجلس بجوار أبي على أريكة مرتفعة يجلس القرفصاء ويتأمل مغيب الشمس.. يمر بنا أحد الجيران فيحيينا.. أأرجح قدميّ اللتان لا تصلان إلى الأرض وأسأل أبي لماذا انخفض مستوي المياة بالترعة.. فيضمني إليه ويشرح لي عن «السديّة» وقيامهم بحجز المياة لاصطياد الأسماك؛ تأتينا أختي ببعض البلح الذي قامت والدتي بغسله ونأكله سويا.

استمر على سيري وألمح فتاة صغيرة تقود خلفها قطيعاً من الجاموس الضخم الذي يبلغ أضعاف حجمها؛ تتجه إلى ناحية الحقل.. كنت اتساءل دوما ما السبب فى انتشار الجاموس فى الصعيد عنه فى الوجه البحري؛ أتراه الجو الحار بالصعيد؟ اتأمل الفلاحات على شط الترعة تغسلن الملابس

والأغراض ضاربات بكل نصائح الأطباء عرض الحائط وكان البلهاريسيا لن تنهش أجسادهن كما نهشت أجساد ذويهم ..تتداعي الذكريات أمامي بصورة مختلطة..أبي ببطنه المنتفخ من جرّاء داء البلهاريسيا اللعين وموته بسبب الفشل الكبدي.

أمر على دار إحدى جاراتنا.. ترى هل تزوجت ابنتها.. فهى كانت فى مثل عمري؛ أتمهل قليلاً فى سيري لكني لا ألمح فرداً فى فناء الدار.. أرفع رأسي وأكمل سيري فأرى فتاتين بالزي الأسود المميز تسيران معاً وقد وضعتا الطرحة حول وجهيهما ليخفينه ..تتوقفأن أمامي وتتهامسان.. ترخيان الطرحة فأتعرف وجه بنات خالى؛ أحتضنهما فى شوق ولهفة.. لم أرهن منذ مدة طويلة منذ أن كففنا عن زيارة بلدة أمي..تنظران حولهما فى توتر أدرك سببه.. أحاول أن أعرف منهما حالة أمي فينتابهما صمت مقلق.. تجيب إحداهما:

- «ربنا يتولاها».. يتملكني الخوف فأهرع إلى منزلنا دون أن أودعهما.. يأتيني صوت إحداهما الصارخ:

- «عمك هناك».

لكنني أمضي مسرعة متحاشية نظرات الجارات ذوات الرداء الأسود اللاتى تجلسن للأبد أمام أبواب منازلهن وكلامهن مع بعضهن البعض عند رؤيتي.

بوابة الدار.. أراها عالية للغاية تحجب كل شيء عني.. أتابع دقات قلبي وأنا أعبرها؛ أدفع الباب فألمح الحديقة الصغيرة التي زرعها أبي قد تحولت إلى مساحة خالية والاشجار قد ذبلت وتساقطت.. أتأمل عشة الأرانب فأجدها خالية هى الأخرى.. ألمح بعض الجمع فى غرفة

الجلوس بالدار وأسمع صوت عمي بينهم.. استدير مسرعة وأدلف من الباب الخلفى متوجهة للمطبخ العتيق.. يسير بين قدمي قطاً صغيراً يتمسح بها.. أرتقي السلم فألمح أمامي خادمتنا العجوز "أم صباح".. تقف مذهولة بوجودي لا تكاد تصدق عينيها:

- «ستي "أمل "»

ترددها بسعادة وهى تبكي أسألها عن أمي فتشيح بوجهها:

- «الظاهر خلاص يا ستي «.

تقولها وتبكي بحرقة؛ أرتقي السلم مسرعة فأجد بعض النسوة؛ بعض الوجوه المألوفة تتفحصني فى ارتياع وبعضها فى شماتة؛ ابتعدت فتياتهن عني كأنني طاعون.. لم أندهش لذلك فلقد توقعت أن عمي أطلق رصاص كلماته عليّ بعد رحيله ولابد أنه شوه من سمعتي فى القرية كي يبرر موقفه واستيلاءه على أرضنا.. أدلف بسرعة لغرفة أمي لأجدها مستلقية على الفراش بجوارها أختي تدفن رأسها بيديها ومعها بنات عمي اللاتى ألجمتهن المفاجأة لدي رؤيتي.

تتلاقي الأعين فتهرع أختي لاحتضاني.. أتركها لأجلس على الأرض بجوار أمي أقبل يدها واحدثها كي تسمعني لكنها لا تظهر اي علامة على كونها حية سوى صوت تنفسها.

تخرج بنات عمي خلسة وتبدأ أختي فى البكاء بصوت عال.. أنظرلها فى دهشة فأجدها تتهمني بعدم المسؤولية وأنني سأخرب بيتها.. لا أدري لماذا شعرت بالغضب تجاهها.. أفلا تدري ما هوشعوري عندما أرى أمي لأول مرة منذ سنوات على هذه الحال دون أن أرتمي فى حضنها الدافئ.. لا أصدق أذنيّ وأنا أسمع اتهاماتها وخوفها على حياتها بينما لم تفكر فى

حياتى التي فرت مني بعيداً عنهم أتعذب فى كل دقيقة منها.. أشيح بوجهى عنها وأتركها لعويلها وأدفن رأسي فى صدر أمي؛ لا استطيع تمالك نفسي من البكاء..أحاول أن أجعلها تدرك وجودي.. أهمس فى أذنها وأتوسل لها كي تفيق ولو لدقيقة تدرك أنني بحاجة للمسة يدها على رأسي.. أهزها ويغلبني البكاء لكنها فى عالم آخر.

ينفتح الباب بقوة وألمح وجه عمي الغاضب وخلفه "محمود" يحاول إرجاعه.. لا أدري لماذا لم اشعر بأي خوف منه كسابقاً.. كل ما أشعر ناحيته هوكراهية لا حد لها لا تصلني منه سوى كلمات قليلة

- «أنا حالف يمين ما انتي معتبة الدار ..بره ..بره».

يقولها ويكررها بعنف.. فأزداد تشبثاً بأمي.. يستفزه صمتي فأراه يحرر يده من "محمود" ويسحبني من ذراعي لخارج الغرفة.. يردد كلاماً كثيراً عن أنني سألوّث الدار التي بناها أبي بشرفه وجهده.. أشعر بكراهية لا حد لها تجاهه.. أوصلت به إلى الخوض فى عرضي من أجل طمعه.. فلقد أخذ الإرث والأرض فما الذي يبغي أكثر من ذلك.. أحاول المقاومة وأتشبث بأختي لكنها تفلت يدها لدي رؤيتها زوجها..لا أصدق ما يجري؛ أهكذا تتخلي عني بكل سهولة؟ أنظر لها فى توسل.. لا أعي ما أقول ولكن الصراخ طغى على كل شيء.. أحاول منعه لكن لا أحد يعاونني.. أخبره أنه بيتي أنا وأختي ولا حق له فى طردي.. فيفلت يدي ويأتى بأختي أمامي يحلف زوجها يمين طلاق جديد.. أنظر لها فلا تتردد لحظة وتطلب مني الرحيل.. أشعر بدوار شديد وأنا أنظر لها مستجدية.. تخفض رأسها وتدعوني من جديد للرحيل.

يدفعني عمي فلا أقاومه.. أعبر البوابة بين الجمع المحتشد من نسوة

القرية لا أسمع شيئا من كلام عمي:

- «مشفكيش هنا تاني.. مالكيش أهل ولا بيت هنا».

يقولها فأستمر على سيري بين النظرات المتفحصة والتصعبات.. أبتعد أمتاراً قليلة ثم أسمع نواحاً شديداً قادماً من البيت.. يعقبه العويل المميز لنسوة قريتنا عند موت أحد.

سهام

مرت ثلاثة أيام ولا زلنا فى بحثنا عن جثة "محمد".. رباه لا استطيع أن أصدق أنني أبحث عن جثة أخي .. ننتقل أنا وعبده ومعنا "عليّ " من مستشفى لآخر.. حتى نصل إلى مشرحة "زينهم" كما أخبرونا .."عبده " لا يكاد يصدق ويصر أنه حيّ لكني ادرك الحقيقة ف"محمد" لا يعرف السباحة.. ويكفى ما أسمع من قصص الناجين الذين رووا كيف كانوا يسبحون بجوار أسماك القرش .. لا أتخيل أخي فى هذا الموقف.. كلّما أتخيله فى هذا البرد الشديد داخل المياة المثلجة لبحر هائج مظلم.. إذا كان نجا من الغرق فكيف أمضى ثلاث أيام فى مياة مالحة ثائرة لا تعرف الرحمة تماما كقلب صاحب هذه العبارة ومن يسانده.

نصل للمشرحة حيث أخبرونا ونبحث مع أهالى الضحايا الآخرين عنه فى وسط الجثث التي تعج بها المشرحة؛ يبحث الأهالى فى لهفة بين الوجوه وعيونهم زائغة ..لا أكاد أصدق أنني أفعل مثلهم وأبحث عن وجه أخي بين جثث الموتي وأتمني ألا أراه بينهم.. بعد أن كنت أنتظر عودته وعودة الأمل معه.. أصبح كل الأمل ينحصر فى ألا يكون تعذب كثيرا فى موته .

يبتعد "عبده" عني ليبحث فى مكان آخر.. لا أجرؤ على النظر فيكاد وعيي ينسحب مني.. استند إلى الحائط.. أحاول أن أمنع نفسي من السقوط.. يأتيني صوت "عبده" الصارخ فأهرع إليه.. يشير إلى إحدى

الجثث لألمح وجه "محمد" الحبيب منتفخاً وعينيه بلون أزرق داكن.. ألمح ابتسامة واضحة على وجهه.. أرتمي عليه وألثمه حتى يمنعني التمرجية ويأخذوني للخارج.. أجلس على الأرض خارج المشرحة.. بأنتظار "عبده" الذي يقوم بالتوقيع على إقرار استلام الجثة.. يحاول "علي" تهدئتي لكنه هوالآخر لا يملك السيطرة على دموعه.. يتابع "علي" الإجراءات بنفسه ويطلب من "عبده" أن يعود معي للمنزل.

اقرأ الفاتحة له مع "عبده" و"على" وإحدى الجارات.. أتأمل الشاهد الذي كتب عليه اسمه وتاريخ الميلاد والوفاة.. استرجع أثناء عودتنا السنوات القليلة بين هذين التاريخين.. تفلت مني دموعي رغماً عني -عين أتذكر وجهه المنتفخ وما عاناه فى غربته من وحدة لتكتمل معاناته بوحشة فى بحر موحش.. يطمئن "علي" لوصولنا ويرحل ليعود إلى عمله.

أدخل المنزل لأجد إحدى جاراتنا تجلس مع أمي.. مازالت كما هى ترفض تصديق ما حدث.. تحكي لجارتنا عن مكالمة "محمد" الأخيرة والأشياء التي سيجلبها معه وكل ما أدخره لنبدأ بداية جديدة لنا جميعا.. أنظر ل"عبده"فى أسى فيقوم مبتعداً.. أحاول أن أجعلها تنام لكنها لا ترد.

- «محمد جاي أنام ازاي»

أتنهد بعمق ولا أدري ما أفعل كي تدرك الحقيقة؛ أخشى على عقلها أن تأتى عليه الصدمة فأقنعها بالنوم لعله سيتأخر ويأتى غداً.. أجلس بجوارها حتى تغفو.. تأتى «أميرة" لتجلس بجوارى فأخذها لتنام وأحاول الرد على أسئلتها الكثيرة وأجاهد كي أجعلها تفهم أنها حرمت من أخيها فى هذه السن الصغيرة وقاربت على أن تحرم من أمها لواستمر الوضع كما هو..

تسألني أسئلة مربكة لا أجد إجابة لها فأجعلها تنام كي تستعد للمدرسة.. فبماذا أفسر لها ما حدث وما هى جريمتها حتى تمر بكل ذلك؟

أتحدث أنا و"عبده" قليلا فى كل شيء ونحاول ألا نشير لموت "محمد" نجاهد كي نتناسى حتى ولو بالإكراه؛ يشاركني "عبده" قلقه على أمي فأطمئنه أنها ستعتاد ذلك حين تتأقلم مع الوضع الجديد.. أحاول أن أجعله يستذكر وأنا أدرك أنه لن يعي حرفاً من مذاكرته.. يغلق كتابه وينام أمامي على الأريكة وأنا أدرك من صوت تنفسه المضطرب أنه مازال مستيقظا.. أطفىء الأنوار بانتظار الغد لعله يستطيع أن يجعلنا ننسى؛ فلقد بات ذلك هو الأمل الوحيد.. أغمض عيني بانتظار الغد وما بعد الغد.

||||||||||||||||||||||

يأتى "علي" بطبيب لفحص أمي؛ أنظر له بإمتنان وأنا أعلم جيداً أنه تحمل الكثير لجلب الطبيب للمنزل.. يدخل الطبيب فيرى أمي ترتدي أحد قمصان "محمد".. ينظر إلينا ويبدأ فحصه.. تتحدث معه أمي عن "محمد" طيلة الكشف فلا استطيع منع نفسي من البكاء يحاول "على " إخراجي من هذه الحالة ويبدأ فى سؤالى عن أحوالنا ويلمّح إذا كنا بحاجة إلى المال فأشكره.. ينتهى الطبيب من فحصه ويخبرنا بضرورة رعاية خاصة لها وينصحنا بأحد المصحات الخاصة وألا نخاطر بأن نلجأ للمستشفى العام.

- «حيحجزوها ومش حتتعالج».

يعطينا روشتة فيأخذها "علي" ليصرفها ويرحل معه.. ألا يرى الطبيب حال منزلنا فمن أين لنا بمصاريف المصحة الخاصة.. فلم أعد استطيع العودة للعمل فلا يمكنني ترك أمي بمفردها وهى على هذه الحالة..

والمال بدأ ينفذ ولا يوجد مصدر دخل آخر سوى معاش أبي وهو لا يكفى سوى الخبز الجاف.. أحاول طرد إحدى الأفكار عن رأسي التي تلحّ عليّ منذ أيام لكنها اليوم لم تعد بهذا السوء.. أمي لابد من عناية بها قبل أن يسوء الأمر عن ذلك و"عبده" و"أميرة" مازالا فى بداية حياتهما بحاجة إلى النسيان وإلى مستقبل آمن هوحق لهما.. أقوم بإعداد الغذاء بانتظار عودتهما.. أطعم أمي ثم نتناول الطعام معا.. أتأملهما فى صمتهما الحزين وكأن عمرهما زاد أعواماً كثيرة.. ينهض "عبده" ويحاول الاستذكار وتذهب "أميرة" لتغفو مع أمي وهى مازالت تسأل عما ألمّ بها.

أنهض وأرتدي ملابسي وأخبرهما أنني ذاهبة لجارتنا سريعا.. أمر على منزل "على" وأتمهل قليلاً ثم أمضي مسرعة قبل أن اتراجع.. لم يعد هناك مجالاً آخر للتفكير ولا معنى لأي من أحلامي أو مشاعري؛ فلا مكان ولا زمان لهما.. فهذا العصر لا يعترف بنا ولا بأحلام من هو فى مثل ظروفنا؛ ولابد من التعامل معه على هذا الأساس.. أصل لمنزل جارتنا؛ أقرع الباب فأسمع صوتها تغني.. تفتح فتراني أمامها..تندهش وتدعوني للدخول فى ريبة.. تخبرني بحزنها لوفاة أخي فأشير لها بيدي كي تكف عن الإدعاء.. أتردد قليلاً ثم أتنفس بعمق وأسألها:

-»هولسه عرض الجواز إللى قلتيلي عليه موجود؟«

تفتح فاها بدهشة وتبتسم ابتسامة غريبة وترد:

- «لا مش موجود».

تستدرك وهى تضحك بتهكم:

- «بس فى إللى أحسن منه ..».

يتهدج صوتي وأنا اسألها:

- «بس المبلغ زي ما اتفقنا».

تهز رأسها بسعادة ونبدأ فى الحديث عن التفاصيل.

محمود» ٣«

يستند بعض الزوار إلى حافة السور الزجاجي يلتقط أحدهما صورة جماعية لهم ..أتوجه لهم وأطلب منهم الابتعاد عن السور حيث أنه ممنوع أن يتكئ عليه أحد..يشعرون بالضيق لكنهم يرحلون..أبتسم فى سعادة عندما أراهم قد أمتثلوا لأوامري.. أتابع سير المارة وأختلس النظر إلى المحلات.. أتأمل الساعات الفخمة ذات المبالغ الخيالية وهى تبرق خلف زجاج أحد المحال الشهيرة.. أبلغتنا إدارة المول أن اليوم هم العرض الخاص لأحد الأفلام وسيشهد المول حضوراً مكثفاً من الفنانين والإعلام وعلينا أن نكون فى منتهى الحذر.. فى أوقات العرض الخاص تكثف الإدارة من تواجد رجال الأمن عند منطقة السينما فأجد البعض ممن يعملون بالطابق الأرضي والثانى قد تواجدوا معي لتأمين المكان.. نتراص فى أماكن محددة ونتابع عملية الدخول والخروج.. ونمنع الجمهور من التزاحم حول بعض الفنانين كى لا يحدث أي مشاكل أوتدافع مثلما حدث فى عرض الفيلم الماضي حين زاد الزحام حول أحد النجوم الشبان وضغطوا عليه حتى أوقعوه أرضاً وقام بعض البودي جارد الخاص به بتفريق الجمهور بالقوة قبل أن نتدخل نحن لحل المشكلة.

الليلة حفل عرض خاص لأحد أفلام الشباب.. بدأ الجمهور يفد ومنطقة السينما أخذت فى الإزدحام ..نلمح النجم الشاب أتيا محاطا بالبودي جارد ورواد المول يتواثبون من حوله..يوزع ابتساماته على

الجميع.. ويحييهم بإشارات من يده مرسومة وكأنه يؤدي دوره فى أحد الأفلام.. نقوم بإفساح الطريق له ونحاول إبعاد الجمهور المتزاحم عنه قدر الإمكان.. البعض يمد يده لمصافحته فيبتسم ويستمر فى سيره.

يقترب مني فأراه بوضوح؛ ليس بنفس وسامته على الشاشة وتظهر بعض التجاعيد الخفيفة على جانبيّ فمه وأسفل عينيه.. يصل باقي أبطال الفيلم وتتوافد كاميرات القنوات الفضائية والمذيعات الجميلات حولهم.. نقوم بتوزيع أنفسنا لنراقب الحضور حول كل منهم وأراقبهم وهم يدلون بتصاريحهم فى مواجهة الكاميرات.. ألمح «كوثر» إحدى عاملات النظافة ومعها فتاة أخرى من نفس عمرها تقفان إلى جوار السينما وتتابعان ما يحدث بعيون متسعة وابتسامة بلهاء على شفاههن.. تشب «كوثر» على أطراف أصابعها عندما يمر أحد النجوم الشبان بالقرب منها لعلها تتطلع إليه من بعيد.. ثم تبتسم حين تستطيع أن تلمح وجهه وتهمس بعبارت للفتاة الأخرى ويضحكان فى سعادة.

هذا اليوم من أشد الأيام إرهاقا وشداً للأعصاب حتى تنتهى حفلة العرض الخاص ويعود الهدوء إلى مكان العمل بعد رحيل كل هذه الحشود.. لكني أحب متابعة كل هؤلاء المشاهير ومراقبة حركاتهم ولفتاتهم وطريقة حوارهم أمام الكاميرات والتي تختلف كلية عندما تبتعد عنهم الكاميرا أوعند الحديث مع البودي جاردات.. لم أكن أظن أبداً أنني سأكون على بعد خطوات من هؤلاء النجوم والنجمات الفاتنات.. ليت «زينب» ترى كيف ترتدي وتتزين الممثلات لتدرك أنها لا تقترب حتى لوصف الأنثي.

يرحل آخر الزوار فتبدأ ساعات عملي فى الانتهاء أخيراً بعد هذا اليوم

الحافل.

اليوم يوم العطلة الأسبوعية..بعد ستة أيام من العمل المتواصل لأكثر من تسع ساعات يوميا.. استيقظ فى ساعة متأخرة.. استعد لتناول طعام الإفطار وأسمع طرقات على الباب.. أجد أحد المخبرين أرسلهم الصول لإحضارى حيث يريدني فى أمر هام استبدل ملابسي وأهبط السلالم مسرعا؛ يفتح جارى «سيد الحلاق» بالطابق السفلي بابه فيراني فيسرع بغلقه مرة أخرى.. أضحك بقوة كي يسمعني واستمر فى سيري إلى القسم.

أعرج على « سيد» فى محله كي يحلق لي شعر رأسي؛ لديه زحاماً شديداً بالمحل أطلب منه أن يحلق لي سريعاً لأن لديّ موعداً هاماً.. يوبخني ويطلب مني انتظار دوري.. أشعر بالغضب الشديد وأبدأ فى الحوار معه لكني أبدأ فى التلعثم فيتندر عليّ ويسخر معه صبي المحل من طريقة كلامي المتقطعة.. ألمح ابتسامات الزبائن فأرحل وقد أقسمت ألا يمر الموقف دون عقاب.. «هوميعرفش أنا مين؟..والله لأبيته فى التخشيبة».

أنتظر حتى يعود من عمله وأقوم بإلقاء القمامة أمام باب شقته.. يذهل أول الأمر ثم يبدأ فى الشجار.. استفزه أكثر وابدأ فى التطاول عليه باليد حتى يرد لي ضرباتى.. أتوجه سريعاً للقسم وأحرر محضراً ضده.. يبيت «سيد» ليلته فى الحجز ويتم تأديبه جيداً كى لا يكررها.. منذ هذا اليوم صرت أحلق لديه فور دخولي للمحل وبلا مقابل أيضا.

أصل للقسم وأجد الصول يخبرني بما يريده مني.. ما فهمته أن هناك أحد الصحفيين الفاسدين الذين يضمرون الشر للبلد يريد أن يتم تحذيره كنوع من شد الأذن وكل ما عليّ عند التحقيق أن أشهد أنه اعتدى عليّ بالضرب فى الشارع ويخبرني أنه سيزودني بما أحتاج من أدلة وشهود

إثبات.. أفعل ما يأمرني به وأقوم بضرب رأسي ضربة خفيفة لا تؤذيني كي استطيع الذهاب غداً للعمل ثم أتجه معهم كي أنفذ ما طلبوه.

أعود للمنزل وقد أمتلات جيوبي بالمال أجرة هذه العملية البسيطة.. أعرج على محل الكباب لأبتاع منه كيلو كباب وكفتة ثم أعود إلى المنزل وأروى ما حدث ل«زينب»..

«بس كده شهادة زور» تقولها زينب وهى تتناول الطعام فأضرب كفها فى غضب وأجذب خصلات شعرها فى غلّ.

«بتقولي إيه يا بنت ال ..».

تصمت وتعتذر عما بدر منها فأزيد من جذبي لشعرها.. تلثم يدي فأطلق سراحها لتهرول إلى الغرفة واعود لتناول الطعام بشهية أقل بعد أن ذهبت شهيتي بكلام تلك المأفونة.

أتوجه للنوم وأضبط المنبه على الساعة الثامنة صباحاً استعداداً ليوم جديد فى العمل.

أمل «١٠»

أعود لترتيب المحل من جديد.. لا استطيع أن أحدد كيف مرّ عليّ الأسبوع الماضي مازلت لا أصدق ولا أريد أن أصدق.. لذلك لم أبك.. فالأمر أكبر من البكاء.. أكبر من أي شيء ولا استطيع أن أعبر عنه..ألوم نفسي على السنوات التي قضيتها بعيداً عنهم وألوم نفسي على عنادي وعلى تمسكي بحقي الذي جعلني أفقد معه كل الحقوق الأخرى؛ ما الذي جنيته الآن؟ رحلت أمي بعيداً عني وحرمت من حنية يدها لأعوام عديدة.. تبدلت أختي وكأن ما كان بيننا لم يكن سوى وهم بنظرها.. كل ذلك من أجل تشبثي بحقي وأملي أنه يكون هناك عدل ما يوما ما.. أعوام عديدة قضيتها فى كد ووحدة وإنهاك وخوف ووحشة.. وأعوام أكثر وحشة تنتظرني.. لماذا تضل السعادة طريقها لأمثالى.. تدلف إحدى الزبائن تتفحص المعروضات لكني لا أقوم من موضعي.. أشعر بسخط على كل شيء حولي الآن وأشعر بالسخط حتى على نفسي ..بالكاد منعت نفسي عن تمزيق كتب الجامعة.. تخرج فيعود الصمت ضيفاً من جديد ..أتأمل المانيكانات الصامتة المتجمدة على أوضاع صنعها.. أشعر أنني مثلهم.. مجرد شكل خارجي لإنسان دُمر داخله وصار أجوفاً.. لكن على شفاههن بسمة ضلت طريقها إلى شفتيّ.

تعاودني صورة عمي مرات كثيرة وأجاهد نفسي كي تطردها من أفكارى.. لم أكن أتصور أن أجد الشر بهذه الفجاجة من قبل؛ ألم يكن

يطمع فى الإرث.. فلقد ناله؛ لماذا إذن كل هذه القسوة؟.. مازلت لا أصدق رد فعل أختي.. لم أكن أتخيل أنها ستتخلى عني هكذا.. لم يؤلمني سوى طلبها إياي أن أرحل وإلحاحها ألا أعود أبداً.. ألهذه الدرجة؟.. أحاول نسيان الأمر إلا أن صورة أمي وهى راقدة فى الفراش لا تفارقني. أشعر بآلاف الخناجر تمزق قلبي على كل السنوات التي ضاعت دون رؤيتها لأعود لأراها على فراش الموت ولا تتيح لي فرصة مصاحبتها حتى وفاتها.. لا أدري ما الذي دفع دادة "عفاف" إلى زحام أفكارى.. فهى آخر من تبقى لي فى هذه الحياة ..آخر من أشعر أنه يهتم لأمري.. لقد مرّ وقت طويل منذ آخر زيارة.. بالتأكيد عاد ابنها من سفره فى الخليج .. سأنتظر أسبوعاً آخر وأزورها حتى تكون اسمتعت بعودة ابنها.

تدلف "سمر" كعادتها دون استئذان.. لم أعد أطيق وجود أي أحد.. فحتى أنني لم أعد أطيق الهواء الذي يبقيني حية.. تبدأ فى الثرثرة بلا انقطاع ولا تنتظر مني إجابة كعادتها.. أجاهد كى لا أصرخ فى وجهها وأنا أسمع ثرثرتها الفارغة.. تحكي عن كل شيء من عمال المول إلى زبائنه وأخلاقهم المنحطة كما تراهم.. تتحدث بسرعة كأنما تخشى أن تفلت منها العبارات؛ أغمض عيني بعيداً عن كل ما تقول فأسمع ثرثرتها فى خلفية عقلي.. تدق بإصبعها على زجاج المكتب لتتنبهني:

- «إيه انتي رحتى فين؟»

تكمل حديثها بلهفة فأتابعها بنصف اهتمام

- «ولا حكاية العبارة إللى غرقت دي كمان»

أطلب منها المزيد من المعلومات فأصعق لهول المصيبة؛ يا إلهى أكثر من ألف شخص يموتون غرقاً.

- «بيقولوا العبارة كانت خربانة وبرده كان صاحبها مشغلها.. أصله مسنود من ناس جامدة فى البلد».

أخرج الجرائد من درج المكتب وأبدأ فى قراءة الأخبار فى الصفحة الأولي.. أجد كل الأخبار عن كأس الأمم الإفريقية وانتصار منتخبنا القومي.. أتابع بلهفة بين الأخبار حتى أجد خبراً صغيراً فى آخر الصفحة عن العبارة.. أفتح الجريدة لمزيد من التفاصيل فلا أكاد أصدق هول هذه المأساة.. كيف يمكن لإنسان أن يبلغ به الإهمال والجشع أن يقتل الآلاف من أبناء وطنه لمزيد من الربح وهويعلم أن عبارته لا تصلح للإبحار.. هل إنعدم الضمير لهذه الدرجة؟ تكمل "سمر" حديثها فأتابعها دون إهتمام وأكمل القراءة.

أغلق الصحيفة وقد ازداد الشعور باليأس من كل ما حولي.. لا أدري ما معني هذه الحياة وما جدواها.. تصمت أخيراً حين تلحظ شرودي وتسألني بغتة:

- «إلا أنتي لابسة أسود ليه..حد ماتلك ؟»

تقولها وتضحك.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

أقرع باب دادة "عفاف" مرة ثالثة وأنا فى شدة اللهفة لرؤيتها تعمدت أن أنتظر مرور فترة بعد عودة ابنها كى لا أفسد فرحتها.. أقرع الباب مرة رابعة ولا أجد رداً ..أصعد للطابق العلوي وأقرع أحد الأبواب؛ تخرج لي إحدى الجارات وتتساءل بوجه مقطب عما أريد..اسألها عن دادة "عفاف" فأجدها تمصمص شفتيها فى حسرة:

- «والله من ساعت ما ابنها ما راح فى العبارة وإحنا منعرفش عنهم حاجة.. أختفوا مرة واحدة وسابوا الحارة».

أصرخ وأتكئ على حافة الباب.

- «هى ابنها كان فى العبارة إللى غرقت؟»

تومئ برأسها أسفا وهى تمسح دموعها.. أتمالك نفسي كى لا أسقط.. أتركها وأهبط درجات السلم.. تسألني عن اسمي فلا أجيبها.. أهبط إلى الشارع وأجاهد كى لا أجعل الدوار يتمكن مني.. أشعر بغصة في حلقي تكاد تخنقني والدموع تمنعني من الرؤية بوضوح..أنتبه على صوت ألة تنبيه لإحدى السيارت التي كادت تدهمني.. يطلق سائقها سبة وينطلق.. ليته كان صدمني وأراحني من تلك الحياة البائسة.. استغفر الله ولكني أعود للبكاء من جديد.. يتأملني ركاب الحافلة فى دهشة.. أمسح وجهى وأشعر بالظلم الشديد.. وكأنه كُتب عليّ أن أفقد كل شيء جميل فى هذه الحياة.. ألا يكفى موت أمي وموقف أختي؟.. ترى كيف حالها وحال "سهام" وما وقع تلك الصدمة عليهما.. أبكي بشدة فيقوم أحد الركاب ليجلسني على المقعد وهو يربت على كتفى؛ يناولني أحدهم منديلاً فأدفن وجهى فيه.. أحاول الابتعاد عن كل شيء.. أكُتب عليّ ألا أرى يوما سعيدا واحدا؟

أشعر بالهدوء قليلاً فأرفع رأسي وأنظر خارج النافذة.. ترى كيف تحملت دادة "عفاف" تلك الصدمة ولماذا اختفت من الحارة؟ أكلما وجدتها وأشعر حينها أنه مازال هناك أملا أحيا من أجله تختفى من حياتى مجددا لتتركني بمفردي فى عالم قرر أن يكون فى شدة القسوة.. أشعر أنني فقدت أمي مرتين .. وأنه أصبح مقدوري فى هذه الحياة أن أحيا فى

عزاء دائم وحداد أبدي.

أصل للمول متأخرة عن موعد العمل؛ أصعد مسرعة قبل أن يأتى الأستاذ «مصطفى» وقد بدأ يتضايق الآونة الأخيرة من تأخرى ويكفى أنه سمح لي بإجازة أسبوع بعد وفاة أمي.. فلا أريد أن أخسر عملي ومعه أخسر كل مصدر رزق وأخسر تعليمي أيضا لأكون خسرت كل شيء يبقيني حية.

أجلس خلف المكتب وأسند رأسي على سطحه استمع إلى صوب ضربات قلبي الذي يصر على الخفقان رغم كل ما مر به.. تدلف "سمر" ومعها إحدى الفتيات اللاتى تعملن فى المول وتضحكان فى هيستريا:

- «سمعتي آخر خبر يا "أمل "؟»

تقولها وهى تجلس أمامي أنظر لها بعيون لا تري فتكمل:

- «مش"منى" طلعت متجوزة صاحب المحل إللى بتشتغل فيه عرفى.. ومراته جت الصبح وعملت فضيحة.»

تكمل الأخرى:

- «فاتك نص عمرك».

أنظر لهما قليلاً حتى تنتهيان من ثرثرتهما وتعودان إلى عملهما..أتابع صوت ضحكاتهما فأضع رأسي من جديد على المكتب واستمع من جديد لدقات قلبي أرجوه فى كل دقة أن تكون الأخيرة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIII

على «٩»

السكون الكريه يخيم على حارتنا فور معرفتنا بنبأ موت "محمد" فى العبارة..لم أتصور أن يصل الأمر لهذه الدرجة من البشاعة.. أعيد قراءة الصحف وأتطلع إلى الأخبار فلا أصدق.."محمد" الشاب المليئ بالأمل والعزيمة والذي كان يملأ مجالسنا على المقهى بالبشر والتفاؤل.. قدغرق.. هكذا تحول كل هذا الشباب والأحلام ولحظات السعادة والمعاناة وحياة بأكملها إلى رقم يضاف إلى أعداد القتلي فى شريط إخبارى يمر بسرعة فلا تدركه كل الأعين.. يتحول الاسم الذي طالما أضحكنا إلى مأساة أنسانية ستعذبنا البقية الباقية من حياتنا.. أشعر بالسخط والغضب الشديد.. لماذا يحدث كل ذلك؟.. لماذا يترك المجرم ولا يعاقب.. بل يستمر فى جرمه مرة تلوالأخرى حاصداً أرواح من هم مثلنا.. من لا ظهر لهم ولا ثمن.

"سهام" منهارة وحاجة "عفاف " ما زالت تأبى أن تصدق وأوشكت أن تفقد عقلها حزناً.. لا أتخيل كيف أمضى الساعات قبل أن يرتاح وتصعد روحه البريئة للسماء ..كيف استطاع أن يتغلب على الأمواج الهائجة والأسماك المتوحشة والبرودة التي لا يقدر على تحملها أي إنسان.. أراه وكأنه بالأمس يجلس معنا على المقهى قبيل سفره ويتبادل المزاح معنا وهويحدثنا باللهجة الخليجية.. كيف لمثل تلك الابتسامة الرائعة أن تموت بهذه الطريقة المهينة؟

استغفر الله وأمسح وجهي.. لكني مازلت أشعر بالظلم.. لماذا كتب على من هو مثلنا أن يبكي فى صمت ويعاني فى صمت ويموت أيضاً فى صمت؟

لا استطيع تحمل جدران المنزل..أشعر بها تخنقني فأترك المنزل لأقابل الأستاذ "محمود" يتحدث مع جارنا الآخر.. يستوقفاني وهما يتساءلان فى هلع عن مصيرهم بعد ما حدد الحي شرطا لوقف قرار الإزالة وهو ترميم المنزل مما سيكلفنا مبلغاً مهولا لن نستطيع توفيره.. لا أجد حلاً فأتركهم وقد بدأ السواد يجتاح مجال رؤيتي الضيق حتى لم يعد هناك مكاناً لنقطة ضوء تزيل كل هذا الظلام الموحش.

||||||||||||||||||||||

أخفض رأسي وأنا أسير فى الشارع كي أطرد صورة "محمد" وهو راقد فى المشرحة.. آخر مشهد كنت أتمني رؤيته فى حياتى.. ينتابني الإحساس بالسخط مرة أخرى ..لم أعد أطيق عملي بالمول ولم أعد أطيق كل تلك الفخامة الزائدة فيه.. كيف يمكن أن يكون هناك عالمان على هذا التناقض الفج ؟.. يمر الزبائن واحداً تلو الآخر بملابسهم الثمينة يبتاعون بضائع كثيرة بأموال أكثر.. بينما يقبع الآلاف فى حاضر مظلم ومستقبل أكثر إظلاماً وظلماً.. مازلت لا استطيع أن أصب غضبي على أحد منهم.. فلا ذنب لهم فى حالنا.

لكني يتملكني غضب شديد تجاه كل رمز للفساد وكل شخص ساهم بقوة فى ضغطنا وإضاعتنا وإضاعة كل المستقبل لتصبح الحياة عذاباً مقيماً.

تنتهى المهلة التي حددتها المحافظة لإخلاء البيت اليوم.. البارحة كان

يوماً حافلاً أرسلت والدتي إلى خالتي التي لم نرها منذ سنوات كي تمكث عندها قليلاً لعل الله يفرج الأزمة.. لم تستطع خالتي التظاهر بالمودة ولعلها لم ترد إظهارها كى لا تطول فترة مكوث والدتي لديها.

مازالت دادة"عفاف" و"سهام" والجميع مختفياً عن المنزل .. رحلت إذ فجأة دون أي مقدمات.. يقول الجيران أنهم شاهدوها أثناء ساعات عملي ينقلون أشياءهم القليلة فى إحدى عربات النقل الصغيرة تاركين أثاث الشقة بها وأبلغت "سهام" صاحبة العقار أنها لن تعود مرة أخرى.. ترى أين ذهبوا؟.. أترى ذهبوا لأحد المعارف أو الأقارب..أكاد أجن عندما أدرك حقيقة أنني لن أرى "سهام" مرة أخرى فى حياتى..بهذه البساطة إختفت..وإختفى معها كل أمل كان يمثل آخر ما يجعلني اتشبث بهذه الحياة.. هكذا فى بضع ساعات وضعت نهاية لكل الأحلام والسهر والجمل التي كنت أعاني فى صيغها والتي لم أجسر على قولها لها قط.. لماذا يصر الجميع أن يسلبوا كل كل شيء جميل فى حياتنا.

يمر "كامل" عليّ ويربت على كتفى ويتناول مني الأكياس لتعبئتها بدلاً مني ..عرض عليّ أن أقيم معه حتى أجد حلا فهو يحيا بمفرده فى إحدى الشقق التي استأجرها بعد أن ترك قريته لعله يجد لقمة العيش فى القاهرة.. أنظر لساعتي وأخبره أني سأرحل كما اتفقنا كي أتى بحاجياتى قبل أن تنفذ المحافظة قرار الإزالة.. يخبرني أنه سيحاول أن يقوم بعملي كى لا يلاحظ المدير غيابي على أن أعود ليلا.

أصل لشارعنا فأجد الجيران ينهون نقل حاجاتهم وعربة المحافظة فى انتظار انتهائهم كي تقوم بالأمر لتسليم عهدة الونش.. هكذا بكل بساطة يهدمون حياة تسعة أسر فى ساعات قليلة ليعودوا إلى أهلهم مبتسمين

يروون لهم بطولاتهم.

يزداد الغضب بداخلى حتى لم يعد هنالك مكان له بالداخل.. أصعد إلى شقتنا فأجد عم " مرعي " يبكي وهو يخرج حاجاته من شقته بالطابق الأرضي .

يأتى عم " مرعي " الساكن الجديد.. يقول أنه قام بشراء الشقة الصغيرة بالطابق الأرضي بكل ما أدخره خلال سنوات عمله كأحد حارسي العقارات بالمهندسين.

- «أنا كنت باكسب حلو من شغل البوابة هناك.. غير البقشيش والحلاوة فى المواسم ..وكنت ساكن ببلاش كمان».

أندهش فاسأله لماذا إذن ترك عمله

- «أعمل إيه البنت بعد ما علمتها ودخلت الجامعة.. مكسوفة من شغلانة أبوها مش عاوزة الواد بتاعها لما يجي يطلب إيدها يعرف أني بواب.. صممت أسيب الشغل ونشتري شقة زي الناس».

استمر على وقفتي وأنا أراه يزيد فى بكائه بعد ضياع تحويشة العمر والشقة التي لم يمر على شرائها سوى عام واحد.. يزيد مشهده الباكي من إصرارى على قرار اتخذته ..أغلق باب الشقة وأضع خلفها كل الأثاث الذي أقوي على حمله حتى لا يدخل أحد إليها.. أتوجه للشرفة الضيقة وأصيح بأعلى صوتي أني معتصم داخل الشقة لن أخرج منها حتى أحصل على جميع حقوقي الضائعة.. لا أدري كيف واتتني تلك الشجاعة

أجلس على أحد المقاعد وأغلق الشرفة كى لا يتسلق أحدهم إليها أتابع ما يجري من خلف النافذة.. يحاول الأهالى إقناعي بالهبوط بعد تهديد رجال الحي بهدم البيت فوق رأسي.. أدرك أنهم أجبن من ذلك..

قد يفعلوها ويهدمونه على رؤوس الآلاف لكن دون أن يعلم أحد.. لكن والكل يشهد فهم أجبن من الإقدام على ذلك.

لا أدري ما النتيجة التي أتوقعها من فعلتي المجنونة هذه لكني آمل أن ينقل ذلك الشرارة إلى نفوس ساكني العقار وربما لباقي أهل الحارة كي يتضامنوا معي يصيح بي عم "مرعي " أن اخزي الشيطان» قبل أن أؤذي نفسي فأكاد أجن.. لقد خسر الرجل كل ما عمل من أجله طيلة عمره.. ألا يستفزه ذلك للوقوف ولوحتى وقفة احتجاج.. أحاول أن استثير بعض السكان لكن أحداً لا يبدوعليه الشجاعة كي يطالب بحقه وحياته.. أخشى أن أجبن..أريد من يساندني..أشجع نفسي بمشهد "محمد" فى المشرحة.. اليوم أريد استرجاعه بكل ما فى عقلي من ذاكرة.

تتابع المشاهد دون جهد مني .. "سهام " الرائعة التي أختفت فى لمحة بصر..الست "عفاف" ترتدي قميص ابنها الراحل.. أمي ونظرة خالتي المتأففة لوجودها معها.. لم أعد أطيق.. ليكن ما يكون..فلم يعد لدي ما أخسره.

تأتى عربة الشرطة ويصعد الجنود إلى الشقة؛ يبدأ الخوف يتسلل إليّ لرؤيتهم بملابسهم السوداء.. أتأمل الضابط بنظارته السوداء يلوّح إليّ مهدداً.. يتراجع الجميع حتى من كان فيه بادرة أمل للتحرك.. تملكهم الخوف من مشهد الجنود السود وعاودتهم القصص الأكثر سواداً عمن يقع فى قبضتهم.

أصل للقسم مصحوبا باللكمات والسباب.. يصرخ الضابط بسباب شديد الإهانة

- «عاملي فيها بطل.. والله ما انت طالع من هنا ده أنت قضيتك

مصيبة».

تعود حفلة الضرب من جديد فأسقط وأصرخ من شدة الألم.

- «انت لسه شفت حاجة».

يقولها فلا أرى شيئاً ويتسرّب وعيي شيئاً فشيئاً.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

تمت

سارة محمد شحاتة

مارس ٢٠٠٦-أكتوبر ٢٠٠٨

تعريف بالكاتبة

- سارة محمد شحاتة محمد
- تاريخ الميلاد: ٣٠/ ٧/ ١٩٨٧ - القاهرة
- طالبة بالعام النهائي بكالوريوس العلوم الصيدلية والإكلينيكية- كلية الصيدلة جامعة عين شمس- ٢٠٠٩- جمهورية مصر العربية
- حصلت على المركز السابع فى مسابقة «ساقية عبد المنعم الصاوي» للقصة القصيرة عام ٢٠٠٧
- خريجة مدرسة الراهبات الفرنسية «نوتردام دي زابوتر» بالزيتون عام٢٠٠٤
- تنشر فى موقع «بصوطل» الإليكتروني
- البريد الإليكتروني: sarah_shehata_ph@yahoo.com